

ا ملكة العربية السعودية
جامعة ا لمك سعود
كلية الدراسات العليا
قسم التاريخ

الرباط في أفريقية

١٤٤ – ٢٩٦هـ/٧٦١ – ٩٠٨م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
(العالِمية) في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب
خالد مساعد حمد الطريق

إشراف الدكتور
عبدالله بن علي الزيدان

الفصل الدراسي الأول
١٤٢٨ ــ ١٤٢٩هـ

إهداء

إلى روحَي أمي وأبي اللذان كان لدعائهما أكبر الأثر في

حياتي

إلى زوجتي الوفية وابنتي الغالية

ولجميع أفراد أسرة الطريق

وإلى جميع أصدقائي ومحبيَّ

أهدي هذه الرسالة والتي هي ثمرة جهدي المتواضع سائلاً

الله أن تكون باكورة إنتاجي العلمي

الشكر

الشكر أولاً وأخيراً لله سبحانه وتعالى الذي وفقني لإتمام هذه الرسالة، ثم الشكر من بعد ذلك لأبي الروحي وأستاذي الجليل الدكتور/ عبدالله الزيدان المشرف على هذه الرسالة، الذي وجهني لاختيار الموضوع ومن ثم تحملني طيلة هذه السنين، فكان خير معين لي بعد الله تعالى في جبر العثرات وتعديل الأخطاء، والشكر موصولٌ للأستاذين المناقشين اللذين تكرما لقبول هذه الرسالة ومناقشتها. والشكر موصول أيضاً لجامعة الملك سعود بوجه عام وقسم التاريخ بكلية الآداب بوجه خاص لقبوله مناقشة هذه الرسالة ولا يفوتني أن أشكر المؤسسات التي ساعدتني في الحصول على المصادر والمراجع، لمكتبة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز ومكتبة الملك عبدالعزيز رحمه الله ومكتبة الملك فيصل رحمه الله. والشكر أخيراً لكل من ساعدني في إتمام هذه الرسالة من كُتاب ونُساخ أو أي شخص استعرت منه كتاباً أو مقالاً ضمنته هذه الرسالة والله الموفق،،،

المقدمة

أولاً: موضوع البحث وأهميته:

اهتم المسلمون بنشر الإسلام وبسط سيادته في مختلف أنحاء المعمورة منذ عهد الرسول ﷺ، ومما اعتمدوا عليه في ذلك، الجهاد في سبيل الله، فبدأ بالجزيرة العربية وتم لهم ما أرادوا في عهد النبوة، ثم انطلقوا إلى خارجها ففتحوا العراق وفارس والشام ومصر في خلافتي أبي بكر الصديق وعمر الفاروق – رضي الله عنهما –، إضافة إلى ذلك فتحت برقة وطرابلس وفي عهد الفاروق وذلك في سنة ٢٣هـ الموافق لعام ٦٤٤م وهما اللتان مهدتا لفتح أفريقية على يد معاوية بن حُدَّيج – رضي الله عنه – سنة ٤٥هـ الموافق لعام ٦٦٥م.

وبعد أن تم فتح بعض المدن الأفريقية لاحظ القادة أن أهل تلك المدن يتمسكون بالإسلام ما دام الجيش الإسلامي موجوداً فيها، وسرعان ما يرتدون على أعقابهم فوراً بعد خروج الجيش منها، لذا تبنى القادة فكرة عمر الفاروق رضي الله عنه والمتمثلة في بناء مدن جديدة تكون قواعد للجيوش ومقراً لانطلاقها ومكاناً لاستيطان المسلمين، فبنيت مدينة القيروان سنة ٤٧هـ الموافق لعام ٦٦٧م وذلك على يد القائد عقبة بن نافع، ثم تتابع بناء تلك المدن إلى نهاية العصر الأموي، وبما أن المسلمين قوة برية تعتمد على المشاة والنجابة والخيالة فقد تجنبوا بناء مدن على سواحل البحار عدا مدينة تونس، والتي لها ما يميزها حيث إنها تقع على بحيرة تونس تلك البحيرة التي يمكن إغلاقها بسلاسل حديدية ضخمة تكون حماية بعد الله – سبحانه وتعالى – للأسطول الإسلامي الناشئ من هجمات الأسطول البيزنطي.

لقد أسس عقبة مدينة القيروان والتي تتميز بقرب نسبي للبحر، حيث المسافة بينهما تساوي مرحلتين – أي ٦٤ كيلو متر تقريباً – وذلك الموقع يساعدها على أن

تكون بعيدة نوعاً ما عن صاحب القسطنطينية إذا ما أراد مهاجمتها بصبح أو طرقها بليل، وهذا ما أعلنه عقبة بنفسه عندما أراد تأسيسها.

ثم انتشر بناء تلك المدن على طول الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، حيث أصبحت تلك المدن أمكنة للمرابطة ومراكز إنذار مبكر ضد أي هجمة بيزنطية أو خلافها، حتى أن المؤرخين يذكرون أنه لكثرة تلك الربط كان إذا حدث شيء في سبتة في المغرب الأقصى وصل الخبر الإسكندرية بمصر في نفس الليلة.

أما من الناحية العمرانية للرباط فقد تبارى الناس وخصوصاً الأمراء والأثرياء والصلحاء في تأسيس الربط دعماً للقدرات الدفاعية للمسلمين من ناحية، وحفزاً للمتطوعين للتدرب والدراسة والقيام بالأعمال النافعة للمجتمع الإسلامي في أفريقية.

وخلاصة القول أن أهمية الدراسة تكمن في إبراز مراحل التطور العمراني للرباط وإلقاء الضوء على أدواره المختلفة السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، إضافة إلى دوره الأساسي ألا وهو العسكري.

أيضاً ستتعرض الدراسة بإذن الله إلى النظام المعيشي داخل الرباط وعناصر سكانه ومن كان يتولى الإنفاق عليهم، وهل سعى أهل الرباط لتحقيق اكتفاء ذاتي من خلال العمل التعاوني والتطوعي فيه.

ثم ستتعرض الدراسة بإذن الله إلى دراسة النواحي السلبية للرباط كهيئة قائمة.

ثانياً: مشكلة البحث:

تتركز مشكلة البحث بأنه لم يجد نصيباً وافراً من الدراسة من قبل الباحثين وإن وجدت بعض الدراسات فإنها تتركز في الغالب على الدور العسكري أو التصوف داخل الرباط، أما هذه الدراسة فإنها ستلقي الضوء على التطور المعماري للرباط ودورها العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي، وذلك

عن طريق جمع المعلومات من المصادر ككتب الجغرافيين والتراجم، وكتب التاريخ بأنواعه، تاريخ عام وإقليمي ومحلي.

ثالثاً: أهداف البحث:

١- توضيح أهمية الدراسة والحد الزمني والمكاني لها.

٢- تعريف الرباط وما يندرج تحت مفهومه.

٣- نشوء فكرة الرباط وأوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الأديرة النصرانية.

٤- بيان الدور السياسي للرباط.

٥- متابعة الدور العسكري للرباط.

٦- بيان الدور الاقتصادي للرباط.

٧- عرض الدور الاجتماعي للرباط.

٨- إبراز الدور العلمي للرباط.

٩- النتائج السلبية للرباط.

رابعاً: الدراسات السابقة:

الرباط في أفريقية موضوع جدير بالاهتمام وقد تطرق إليها بعض الباحثين ولكن بشيء من الإيجاز، إذ يوجد بين أيدينا ثلاث دراسات تناولت الموضوع بشكل مبسط وهي على النحو التالي:

أولاً: دراسة (الشرباصي ١٩٥٣):

وهو مقال صغير ركز على أهمية الجهاد ذاكراً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية حوله، ذاكراً مادة ربط في المعاجم اللغوية. وعلى هذا فإن الاستفادة من هذا المقال تنصب على الناحية اللغوية فقط.

ثانياً: دراسة (بلبع ١٩٦٨م):

وهو مقال جيد بشكل عام يفيدنا أيضاً من الناحية اللغوية وكذلك من ناحية نشأة الرباط ومراحل تطوره العمراني، إضافة إلى ذلك فإن المقال يشير إلى الربط والأديرة النصرانية وأوجه الشبه والاختلاف بينهما إضافة إلى ذكر الرباط في المغرب الأدنى نشأتها وأهمية وجودها مقارنة بنظيراتها في المشرق وكيف تطورت المنارات والأبراج التابعة لها، وكيف كانت أنظمة المعيشة فيها وفي الختام تحدث عن ربط المغرب وفوائدها وأنها كانت أهم من قريناتها في المشرق، متحدثاً عن رجالها ذاكراً رباط سوسة بالذات وتخطيطه وأرى أن هذا المقال يتماشى كثيراً مع ما سأطرحه بإذن الله.

ثالثاً: دراسة (نفيسة الذهبي ١٩٩٧م):

وهو كتاب جيد بشكل عام لكنه يختلف عما ستتناوله رسالتي هذه في عدة نقاط.

أولاً: إن هذا الكتاب ركز على رباط واحد ألا وهو رباط تيط الواقع بدكالة في المغرب الأقصى، في حين أن بحثي سيشمل عدداً كبيراً من الربط.

ثانياً: إن هذا الكتاب ركز على رباط تيط من جانبه الصوفي فقط، وأعطى بعض الإلماحات عن جوانبه السياسية والاقتصادية بينما تناولت في بحثي كل ما يدور حول الرباط من جوانب سياسية وحضارية.

ثالثاً: إن هذا الكتاب يدور حول رباط تيط في الفترتين المتوسطة والحديثة، بينما في تناولي للربط كانت فترة الدراسة من منتصف القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الثالث.

خامساً: تساؤلات البحث:

١) ما أهمية الدراسة وما الحد الزمني والمكاني لها؟

٢) ما الرباط لغة واصطلاحاً؟

٣) متى نشأ الرباط وما أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الأديرة النصرانية؟

٤) ما الدور السياسي للرباط؟

٥) ما الدور العسكري للرباط؟

٦) ما الدور الاقتصادي للرباط؟

٧) ما الدور الاجتماعي للرباط؟

٨) ما الدور العلمي للرباط؟

٩) ما النتائج السلبية للرباط؟

سادساً: منهج البحث:

وقد اتبع الباحث المنهج التاريخي والاستقرائي حيث قام بجمع المادة من مصادرها المختلفة سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة، ثم تحليلها واستخراج النتائج منها بعد أن تتم مقارنة بعضها بالبعض الآخر، وقد كان الاعتماد بعد الله على كتب الجغرافيا، إضافة إلى كتب التراجم والطبقات، وخصوصاً ما هو متعلق بمذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي - رحمه الله - إضافة إلى كتب تواريخ وفتوح إفريقية والمغرب.

سابعاً : أجزاء الرسالة :

المقدمة (الإجراءات المنهجية):

وتتضمن أهمية الموضوع وأهدافه والتساؤلات واستعراض الدراسات السابقة ومنهج البحث في الرسالة.

- ثم يأتي التمهيد : والذي تعرض فيه الباحث لإفريقية موقعها ومسماها .
- ويليه الفصل الأول: نشأة الرباط وتطوره المعماري. ويتعرض فيه الباحث لنشأة الرباط وتعريفاته اللغوية والاصطلاحية والأسباب المباشرة وغير المباشرة لإنشاء الأربطة ووجوه الشبه والاختلاف بين

الرباط والدير النصراني ثم ذكر لمدن الرباط والأربطة القائمة بذاتها.

- الفصل الثاني : دور الرباط السياسي والعسكري . والذي يتعرض فيه الباحث للعلاقة بين الرباط والسياسة حيث يذكر الباحث اهتمام الأمراء بالأربطة وأهلها وتوددهم لهم وحفظ أهل الرباط على الأمراء والوقوف في وجوههم ثم ينتقل الباحث للدور العسكري حيث يذكر العمارة الحربية والفتوحات والسيطرة البحرية الإسلامية.
- الفصل الثالث : دور الرباط الاقتصادي والاجتماعي والعلمي. والذي يتناول فيه الباحث علاقة الاقتصاد بالرباط ذاكراً تأثير المرابطين في الحياة الاقتصادية ، بالإضافة إلى تناول الباحث للحياة الاقتصادية في إفريقية بوجه عام ثم ينتقل الباحث للدور الاجتماعي ومن بعده الدور العلمي والذي أتى فيه بعلماء ، وأخذ أحداثاً من حياتهم رابطاً بينها وبين هذين الدورين. ثم انتقل الباحث لذكر الآثار السلبية للرباط.
- الخاتمة : والتي ضمن فيها الباحث نتائج بحثه.

المصادر والمراجع.

ثامناً : الصعوبات :

أما الصعوبات التي واجهتني في سبيل إعداد هذه الرسالة فهي تتلخص في عدة نقاط :

أولاً : ندرة المعلومات حول صلب الموضوع ألا وهو الربط ، إذ أن المصادر حين تتعرض لذكر تلك الربط تكون تلك المعلومات مختصرة جداً من ناحية ، ومفرقة بشكل واضح من الناحية الأخرى ، فهي متناثرة بين كتب الرجال (التراجم والسير) وكتب البلدانيين ، وكتب التاريخ العام ، وهذه المصادر الثلاثة هي المرتكز الوحيد في رأي لالتقاط تلك المعلومات وصياغتها بعد جمعها ، وإخراج النتائج

المتعلقة بها.

ثانياً: شح المراجع الحديثة المتخصصة عدا تلك التي أشرت إليها في الدراسات السابقة، والتي هي نفسها كانت تحتاج إلى تطوير وبحث أعمق.

ثالثاً: إنه مع ندرة المعلومات وتناثرها في المصادر والمراجع فإن تلك المعلومات كانت مكررة لدرجة تجعل الباحث يشك في أن المؤلفين كانوا ينقلون من بعضهم، وذلك لا ينطبق على المراجع فحسب، بل حتى على المصادر الرئيسة.

رابعاً: صعوبة الحصول على المصادر والمراجع حيث استغرقت وقتاً طويلاً في جمعها من المكتبات العامة والخاصة في المملكة تارة وفي مصر وسوريا تارة أخرى.

يضاف إلى ذلك ما طلبته ممن سافر إلى بعض الدول الأخرى كتونس مثلاً.

خامساً: طبيعة عملي، إذ أقوم بالتدريس لمراحل التعليم العام، ابتدائية ومتوسطة وثانوية، حيث إن مقر عملي وهو معهد النور للمكفوفين يضم المراحل الثلاث وأنا ممن يُدرِّس في تلك المراحل، وهذا يجعلني مضغوط الوقت، مشغول الفكر، فإنه ليس من السهل التوفيق بين ذلك العمل والبحث.

سادساً: طبيعتي أنا حيث إني ذو نظر ضعيف فلا يمكنني القراءة والكتابة إلا بوجود شخص آخر، ووجود ذلك الشخص بالتأكيد يكون مرتبطاً بوقت فراغه هو، فكثير من الأوقات يكون ذهني مستعداً للعمل في الرسالة إلا أن الكاتب لا يكون في متناول يدي، إضافة إلى ذلك كنت كثيراً أواجه بلوم حول معلومة لم تكتمل أو عدم توثيق معلومة ما، أو وجود كلمات أعرف أني لم أقم بإملائها ويكون ذلك الخطأ إما من الكاتب الذي يكتب بيده أو من الناسخ على جهاز الحاسوب، يضاف إلى ذلك ما لحق بي من خسارة مادية، فإني طوال فترة الدراسة التمهيدية وفترة البحث كنت مضطراً لدفع مبلغ شهرياً لا يقل عن ألف وخمسمائة ريال سعودي ناهيك عن وصوله أحياناً إلى ألفين وخمسمائة ريال.

سابعاً: عدم اكتراث أمناء المكتبات ما عدا القليل منهم بمن هم في مثل حالتي، فكثيراً ما تعرضت إلى الضياع والسقوط في مكتبة الجامعة فكيف الحال إذن في المكتبات الأخرى.

الرباط في إفريقية

منذ سنة

[١٤٤ - ٢٩٦هـ][٧٦١- ٩٠٨م]

التمهيد

إفريقية بكسر الهمزة منطقة واسعة حدودها من طرابلس(١) شرقاً إلى بجاية(٢) غرباً ، ومن البحر (البحر المتوسط) شمالاً إلى حد بلاد السودان جنوباً ، حيث رمال وجبال من الشرق إلى الغرب .

وقد سميت بإفريقية نسبة إلى إفريقش بن أبرهة بن الزائش ، وقيل إفريقش بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد وصل إليها بعد أن انهزم من الآشوريين ، واختطها وبنى بها مدينة سميت إفريقية ، ويقال إنها سميت بهذا الاسم

---

(١) أطرابلس : وتنطق طرابلس ، كانت توجد في طرابلس ثلاث مدن هي طرابلس في الوسط وصبراته غرباً ، ولبدة شرقاً ، ولها سور حصين وهي تطل على البحر ، وهي ذات ذروع كثيرة وشوارع كبيرة ، ومياه غزيرة ، وأول من بناها "اشباروس قيصر" انظر : المقدسي : الشامي شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، دار صادر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٠٩م ٢٢٤ ؛ وانظر : الإدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسيني ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ٢٩٧-٢٩٨ ؛ وانظر ياقوت ، ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي : ، **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت (٢٥/٤) ؛ وانظر : جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، ترجمة : محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثالثة ، تونس ١٩٧٨م ، ٢٣٣.

(٢) بجاية : مدينة تقع بين إفريقية والمغرب ، أول من سكنها البربر ، والبحر يضرب سورها ولها نهر على شاطئه البساتين والثمار ، وهي على جرف جبل شاهق يقال له أمسيول ، وأول من اختطها في العهد الإسلامي الصنهاجيون ، والذي أسسها هو الناصر بن علناس بن حماد في حدود سنة ٤٥٧هـ . انظر : ياقوت (٣٣٩/١) وأبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ، تقويم البلدان ، تصحيح ، ريفود وماك كوكين ديسلان ، دار صادر الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٨٢٠م ١٣٧ ؛ وانظر : الحميري : محمد بن عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م ، لبنان ، (٨١).

نسبة إلى فارق بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وهو الذي أسسها [١] ، وكانت قاعدتها (سبيطلة) [٢]- ويبدو أن هناك ضعفاً يعتري هذين القولين السابقين إذ أن كثيراً من المدن والأقطار حين ذكرها في المعاجم البلدانية تكون منسوبة إلى شخصيات ، وفي الغالب إن تلك الشخصيات من نسل نوح عليه السلام - وذلك يجعل الباحث يشك في تلك التسميات - ، ويقال إنما سميت بذلك الاسم لأنها فرقت بين بلاد مصر والمغرب[٣] .

ويقال إن الفينيقيين أطلقوا كلمة أفري على من كان يسكن حولهم ، فتابعهم اليونانيون في ذلك حيث أطلقوا الكلمة على كل من سكن غرب مصر إلى المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ، ومن ثم سميت هذه المنطقة أفريكا أي بلاد الأفرى ، فلما أتى الرومان أخذوا هذه التسمية فأطلقوا اسم ولاية إفريقية القنصلية على قرطاجنة[٤] وما حولها حتى نوميديا ، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية ، ثم اتسع معنى هذا اللفظ في العصر البيزنطي ، فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة [5] . وبالرجوع إلى هذه

---

(١) القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى القاهرة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، (١٠٠/٥).

(٢) سبيطلة : من مدن إفريقية ، ويطلق عليها قمودة ، بينها وبين القيروان سبعون ميلاً وهي بلد ذات حصون وقلاع وهي التي دارت فيها الحرب مع (جرجيرGregoire) انظر : ياقوت ، (١٨٧/٣) ؛ وأبو الفداء : (١٤١) ؛ والحميري ، ٣٠٢.

(٣) ياقوت ، (٢٢٨/١).

(٤) قرطاجنة مدينة قديمة يقال إن اسمها (قرطا) وأضيفت إليها كلمة (جنة) لجمالها ، أما بُناتها فيقال إنهم شعب أتى من سوريا ، وقيل بل أتوا مطرودين من برقة ، وعلى كل حال فالمدينة هجرت بعد الفتح الإسلامي واستخدمت أعمدتها الرخامية لبناء مدن أخرى . ياقوت (٣٢٣/٤).

(٥) محمود شيث خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ، دار الفكر ، ١٤٠٤هـ١٩٨٤م ، بيروت(١- ١٣) ، وحسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، لجنة الجامعيين ، نشر العلم ، الرياض (٢).

الآراء جميعاً يتضح أن أقربها إلى الصحة هما الرآيان الثالث والرابع.

وتقسم إفريقية حسب ما يذكر الطالبي [(١)] إلى نوميديا (الجزائر) وإفريقية وبيزاسان، والذي يتساءل الطالبي نفسه (هل أن بيزاسان هي التي تحولت إلى مزاق[(٢)] دون أن يضع إجابة فاصلة في هذا الموضع).

أما فيما يذكر حسن حسني عبدالوهاب في كتابه (خلاصة تاريخ تونس)[(٣)] إن إفريقية كانت مقسمة إلى خمسة أعمال كبرى هي: تونس[(٤)] وما يليها من شمال القطر التونسي والزاب [(٥)] وقاعدته طبنة وهو يمتد إلى جنوب قسنطينة[(٦)] ،

---

(١) محمد الطالبي: **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي**، ترجمة المنجي الصيادي، تدقيق: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٢م ، ١٤٢ .

(٢) مزاق هذا فحص إفريقية وإنما سمي بذلك لتمزق السحاب عنده، انظر: المالكي: أبو بكر عبدالله محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وشيء من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشي البكوش، مراجعة، محمد العروس المطوي، دار الغرب الإسلامي ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، (١- ١٥٦).

(٣) حسن حسني عبدالوهاب، **خلاصة تاريخ تونس** الدار التونسية للنشر ١٩٧٦م ٧٥.

(٤) تونس: مدينة قديمة كانت تسمى "ترشيش" وحينما افتتحها المسلمون سموها "تونس" وهي قليلة المياه وزراعتها تقوم على المطر والآبار التي تقع في أطرافها، وهي من أصح بلاد المغرب هواء، ومن أهم منتوجاتها الحنطة والعصفر والريحان والقنب. والحدود الحالية لتونس لا تطابق الفاصل الطبيعي الذي يمكن تبينه إجمالاً غربي هذه الحدود بالقرب من خط الزوال المار بعنابة حيث كانت حدود نوميديا الرومانية تقريباً. ويعتبر حسان بن النعمان ممصراً لها، حيث أحكم بناءها وجعلها رباطاً للمسلمين عام ٧٠ للهجرة. انظر: الإدريسي، ٢٨٤ ؛ وياقوت ، (٢/٦٠- ٦١)؛ والقلقشندي (٥/١٠٢)؛ وجوليان، ٢٥.

(٥) الزاب : على أطراف الصحراء في سمت البلاد الجريدية من عمل إفريقية وهو مثلها في حر هوائها وكثرة نخيلها، وفيها عمائر متصلة وفيها المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة ومن مدنها المسيلة ونقاوس وطبنة وبسكرة وتهودة وغيرها وأقرب ما لقلعة حماد من بلاد الزاب المسيلة وبين الزاب والقيروان عشر مراحل. انظر: الإدريسي (١/٢٦٣)؛ وياقوت (٣/١٢٤)؛ الحميري ، ٢٨١ .

(٦) قسنطينة: مدينة تقع على آخر مملكة بجاية وفي بداية مملكة إفريقية، وهي على قطعة جبل منقطع مربع =

وقسطيلية[١] وهي بلاد الجريد[٢] وقاعدتها مدينة توزر[٣] . ثم طرابلس ونواحيها من برقة[٤] ثم المغرب ويشمل المغرب الأقصى والسوس وقاعدته (طنجة)[٥]، ودام ذلك التقسيم حتى قيام دولة الأدارسة حيث أسسوا مدينة فاس[٦] فصارت قاعدة للمغرب =

= يصعب الوصول إليه لاستدارته، ويحيط بهذه المدينة وادي من جميع جهاتها، ولها نهر يصب في خندقها محدثاً دوياً هائلاً، وهي مدينة عامرة بأسواقها التجارية. انظر: الإدريسي (٢٦٥/١)؛ أبو الفداء (١٣٩)؛ القلقشندي، (١١٠/٥).

(١) قسطيلية: قطر كبير فيه مدن كثيرة أهمها : توزر، بساتينها كثيرة، وأكثر ما تنتج التمر الذي يصدر منها إلى المدن المجاورة حيث إن حمل جمل التمر فيها بدرهمين. وقد يطلق على هذا القطر بلاد الجريد. انظر: البكري، أبو عبيد عبدالله عبدالعزيز، المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد ٤٨ والمؤلف المجهول المراكشي، من مؤلفي القرن السادس الهجري، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ١٥٥ . وانظر، المقدسي ، ٢٣٠ ؛ وانظر الحميري ٤٨٠.

(٢) بلاد الجريد شريط ممتد من الشرق غرباً بين الأطلسين الشمالي والجنوبي وهي بلاد واسعة ذات مدن عديدة من بينها قابس وقفصة وتوزر وهي أهم مدن بلاد الجريد، ومدن أخرى تشتهر أراضيها بزراعة الزيتون والنخل. انظر: البكري ٤٨.

(٣) توزر أهم مدن بلاد الجريد أو ما يسمى بلاد قسطيلية وهي مدينة كبيرة محصنة ذات أرباض آهلة وبيئة زراعية خصبة، انظر: البكري ٤٨.

(٤) برقة: هي عدة كور حيث يقال إنها خمس مدن وإن اسمها الآخر انطابلس، أرضها حمراء، كثيرة الزروع وهي أول ما يصادف المرء حين خروجه من مصر، وتبعد ستة أميال عن البحر. انظر: الإدريسي: (٣١١) وياقوت (٣٨٨- ٣٨٩)، والحميري (٩١).

(٥) طنجة : هي مدينة كبيرة أزلية فيها آثار كثيرة للأول وقصور واقباء، ... وكان فيها رخام وصخر منجور جليل، ... وقيل إن طنجة آخر حدود إفريقية في المغرب، ومسافة ما بين طنجة والقيروان ١٠٠٠ ميل، انظر: البكري (١٠٤). الاستبصار، ١٣٨- ١٣٩ . والحميري (٣٩٦).

(٦) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه، وقد تفجرت كلها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من عيون في غربيها على ثلثي فرسخ منها بجزيرة دوي ثم ينساب يميناً وشمالاً في مروج خضر، وليس بالمغرب مدينة مثل فاس في وفرة المياه. انظر: ياقوت، (٢٣٠/٤)؛ =

بدلاً من طنجة .

أما جوليان فيذكر أن ليس للمنطقة تسمية مضبوطة فاليونان يقولون إن شمال أفريقيا - حيث السكان البيض - يسمى ليبيا والصحاري حيث السكان الأحباش السود تكون مقابلة لها أي ليبيا ، أما الرومان فأطلقوا كلمة ليبيا على المنطقة التي تقع شمال شرق البلاد التونسية ثم أصبحت كلمتا أفريقية وليبيا في ما بعد تعنيان القارة كلها، ولما وصل العرب سموا كل البلاد الكائنة غربي مصر جزيرة المغرب وبصفة أدق سموا غربي المغرب المغرب الأقصى. أما في القرون الوسطى والعصور الحديثة فقد أصبح هناك ما يعرف ببلاد البرارة.

أما في الوقت الحالي فتجري على الألسن لفظة أفريقيا الشمالية الفرنسية وذلك من الوجهة السياسية وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة شمال إفريقي وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين إفريقيا الشمالية والشمال الأفريقي [1] .

= والحميري، ٤٣٤ ؛ وعبدالهادي التازي، **جامع القرويين**، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٩٧٢م، (٤٥/١)؛ وجوليان، ٣٠ .

(١) انظر: جوليان (١١- ١٢).

سكان إفريقية الأصليين

أما سكان إفريقية فهناك ثلاثة آراء حول أصولهم، الأول: أنهم ينحدرون من الفلسطينيين حيث طردوا من بلادهم على يد الآشوريين فوجدوا إفريقية موقعاً مناسباً لمعيشتهم، والرأي الثاني: أنهم ينتسبون إلى العرب فهناك من قال إنهم ينتسبون إلى السبأيين سكان اليمن[١]، وهناك من قال بأنهم من نسل بر بن قيس بن عيلان [٢] — وهذا الرأي لا يصح على الإطلاق لأنه لا يوجد من نسل سبأ أو قيس عيلان رجل يحمل اسم بر[٣] وثالث الآراء: يقول بأنهم من سكان آسيا حيث هوجموا فذهبوا إلى بلاد اليونان، واستقروا بدورهم هناك، ولم يكن في أيدي هذه الأقوام المطرودة إلا الرحيل إلى إفريقية [٤] والاستقرار بها، وقد عرفوا فيما بعد بالبربر، وهم قبائل متعددة كهوارة وزناتة، ونفزة، وكتامة، ولواتة، وصنهاجة....إلخ. وعلى كل حال فحتى الرأيين الأول والثالث لا يمكن القطع بصحة أحدهما، وذلك لأن تلك الأراضي - وكما يقول الآثاريون - قد سكنت من عشرة آلاف عام[٥]، وإن تلك الأمم لم تكتب تاريخ أنسابها بنفسها بل لم يبدأ تدوينه إلا في القرن الرابع الهجري حيث قام العرب بتطبيق فكرة أنسابهم وتقسيمها إلى فرعين على أنساب البربر [٦] .

وكان البربر مرهوبي الجانب من الأقوام الأخرى، ولهم عاداتهم وتقاليدهم كالعرب، والفرس، والروم ، فمنهم من الأغنياء الذين يعتمدون على الفلاحة والإبل، والبقر، والخيل في الركوب والنتاج ومنهم من متوسطي الحال، ومنهم

---

(١) الوزان ، ٤٣ الحسن بن محمد العقاق الزياتي، وصف إفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة د. ط..

(٢) محمود شيث خطاب (١/ ٦١).

(٣) الوزان ، ١٣.

(٤) الوزان ، ٤٣ .

(٥) محمود شيث خطاب (١/ ٢١).

(٦) محمود شيث خطاب (١/ ١٦).

الفقراء، ومن عاداتهم اشتمال الصوف وكشف الرؤوس وتعهدها بالحلاقة ولغتهم من الرطانة الأعجمية [(١)] أي ليست عربية. أما حسين مؤنس فيذكر أن البربر هم سكان البلاد الأصليين وينقسمون إلى حضر وبدو رحل، والفوارق بينهما اجتماعية لا جنسية إذ أن الحضر أخذوا بأسباب الحضارة في شتى مجالاتها، أما البدو الرحل فعاشوا على الرعي والإغارة على من حولهم [(٢)] . وبما أننا بصدد الحديث عن إفريقية، فقد رأيت أن أتحدث عن المغرب كله بشيء من الاختصار.

لقد سمي المغرب بهذا الاسم نسبة إلى مغرب الشمس وهو هنا يتفق مع المعنى اللغوي، بمعنى أن لفظ المغرب هذا كان وما زال ذا دلالة جغرافية تعني البلدان التي في اتجاه مغرب الشمس، وتسمى المغرب أحياناً بلاد الغرب أو الغرب الإسلامي ويدخل معها بلاد الأندلس [(٣)] .

وقد ظهر هذا التقسيم إبان الدولة العباسية، حيث قسم المهدي دولته بين ولديه

---

(١) حسن حسني، **خلاصة تاريخ تونس**، ١٥ .

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، (٦).

(٣) الأندلس : جزيرة مركنة ذات ثلاثة أركان ، وقريبة من شكل المثلث: الركن الواحد منها عند صنم قادس والركن الثاني في بلاد جيليقية، وهو مقابل لجزيرة بريطانية، حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق، حيث هو قرب البحر المحيط الغربي من البحر المتوسط، وكاد البحران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع فتصير الأندلس في جزيرة لولا يسير ما بقي منها. ويقال إن سبب تسميتها بالأندلس أنه سكنها قوم يعرفون بالأندلش وهم (الوندال) ثم عربت إلى الأندلس، وتعرف بأسبانيا، وهي عند النصارى أشبانيا، لرجل صلب فيها يقال له أشبان، ويقال إنها سميت على أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها . انظر: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب، **البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨٣م، (٣٥٤- ٣٥٥)؛ وابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ومراجعة، د.س كولان وأ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، الطبعة الخامسة، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، (١/٢)؛ وابن الأثير ، الشيباني الجزري ، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبدالكريم، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م (٣/٢٦٤).

الهادي والرشيد، فعهد للهادي بالمشرق والرشيد بالمغرب، وقيل إن هذا التقسيم كان من الرشيد نفسه حيث قسم الدولة بين أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن [١] .

وقد لخص عز الدين موسى الأسس التي ارتكز عليها الجغرافيون في تعريفهم للفظ المغرب فيما يلي:

أولاً: هناك من جعل الظروف الطبيعية كالنيل والجبال على سبيل المثال حداً بين المشرق والمغرب.

ثانياً: وهناك من قال بأن التركيبة البشرية هي الأساس بين المشرق والمغرب.

ثالثاً: وهناك من جعل الأوضاع الإدارية والظروف السياسية محوراً لتعريفه[٢].

وبالنظر إلى هذه الآراء الثلاثة فإن الرأي الأول هو الذي يتماشى مع المنطق، إذ أن الظروف الطبيعية كالأنهار والجبال هي التي تكون معتمدة عند البلدانيين والجغرافيين في كثير من الأحيان، بغض النظر عن التركيبة السكانية أو الظروف الإدارية.

أما التقسيم الإداري للمغرب فهو يختلف عما هو عليه اليوم، إذ نرى المغرب اليوم خمس وحدات سياسية، هي ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية وموريتانيا.

أما ما كان عليه الوضع عند الفتح الإسلامي لإفريقية وما تلاه من فتوح فهو تقسيم يبدو أنه شكلي لا سياسي، وبمعنى أدق ربما كان ذلك التقسيم مبنياً على الطبيعة نفسها من حيث التضاريس الجغرافية ، ونرى المؤرخين يؤيدون هذا الرأي، فالعرب كانوا يطلقون على إفريقية أو تونس "المغرب الأدنى" وقد يضمون إليها ليبيا،

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، (١/٦١)؛ ويوسف حواله، الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى)، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، (١/٤١).

(٢) عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي للمغرب في القرن السادس الهجري، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (٣٧- ٣٨).

أما الجزائر وغرب تونس فكانت تسمى بالمغرب الأوسط ، والمملكة المغربية وموريتانيا تسميان المغرب الأقصى [١] .

(١) الجوهري ، شمال إفريقية ، دراسة في الجغرافية التاريخية، ١٢٩ .

فتح إفريقية على يد المسلمين

الفتح في اللغة: نقيض الإغلاق، ويقصد به هنا افتتاح دار الحرب ودخول دار العدو، وجمعه فتوح، كما يأتي الفتح بمعنى النصر والغلبة، ولقد وردت لفظة الفتح في العديد من الآيات القرآنية[١]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[٢].

وبعد التعرض لمفهوم الفتح وإنه عندما فتح المسلمون إفريقية المغرب، لم يمض جيل واحد حتى رأينا البربر أنفسهم يكملون الفتح الإسلامي حتى تجاوزوا زقاق الجبل الذي عرف فيما بعد بجبل طارق وفتحوا الأندلس لأنهم دخلوا في الدين الإسلامي وحملوا همه على عاتقهم.

ويأتي الحديث عن فتح إفريقية ابتداءً من مدينة برقة حيث تعتبر في بعض المصادر من كور مصر الغربية، وفي بعض المصادر الأخرى تعتبر بداية إفريقية مع أن هناك رأي يذكر بأن برقة كانت معلقة وكأنما لها استقلال ذاتي عن مصر وإفريقية[٣]، فإنه بعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح مصر والإسكندرية[٤] وجّه خيله إلى برقة فصالحه أهلها على أن يدفعوا الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه، وقد كانت برقة من أفضل الجهات التي فتحها المسلمون، إذ

---

(١) عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، دار إشبيلية للنشر، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١٥.

(٢) سورة [النصر: ١].

(٣) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، (٥٠).

(٤) الإسكندرية: مدينة بشمال مصر على ساحل البحر المتوسط فتحها المسلمون مرتين الأولى في سنة ٢٠هـ والثانية في عهد عثمان ﷺ وكلا الفتحين على يد عمرو بن العاص ﷺ وقد اختلف فيمن بناها فقيل الإسكندر الأول وقيل الإسكندر صاحب أرسطو طاليس، وقيل جبير المؤتفكي، ومن أشهر معالمها منارة الإسكندرية وأخبار الإسكندرية مطولة أكثر من ذلك. انظر: الإدريسي، (٣١٩/١)؛ وياقوت، (١٨٢/١- ١٨٦)؛ وأبو الفداء، ١١٣. والحميري ٥٤.

كانوا يؤدون الجزية كل عام دون أن يأتيهم من يحثهم على ذلك، وأراد عمرو بن العاص أن يوجّه إلى إفريقية جيشاً لكن عمر بن الخطاب ﷺ لم يأذن بذلك، إذ يبدو أنه تخوف من اسمها مما جعله يصفها بالمفرّقة الغادرة المغدورة وأنه لن يغزوها ما حملت عيناه الماء[١] - وعلى أية حال فإن عمر فيما يبدو لم يترك فتح إفريقية خوفاً من اسمها ولكن كان متخوفاً ومشفقاً على المسلمين الذين سيبتعدون كثيراً عن مناطق وجودهم العسكرية -

وبعد عزل عمرو بن العاص تم تعيين عبدالله بن أبي سرح والياً على مصر فأخذ يرسل جرائد الخيل فكانت تصيب في العدو وتأتي بغنائم، لذا طلب عبدالله بن أبي سرح من عثمان بن عفان ﷺ أن يرسل جيشاً لفتح إفريقية فتشاور عثمان مع كبار الصحابة وتمت الموافقة على ذلك الطلب، وأرسل مدداً بقيادة المسور بن مخرمة [٢] لمساعدة عبدالله بن أبي سرح — وقد ذكر أبو العرب تفصيلاً حول الجيش الذي خرج

(١) ابن عبدالحكم : عبدالرحمن بن عبدالله، **فتوح إفريقية والأندلس**، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع، مكتبة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٣٣ .

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة القرشي الزهري يكنى بأبي عبدالرحمن، أمه عاتكة بنت عوف أخت عبدالرحمن بن عوف ﷺ . ولد بعد الهجرة بسنتين وقيل قبلها، روى بعض الأحاديث عن الرسول ﷺ ، وعن الخلفاء الراشدين ﷺ ، وكان يعد من أهل الفضل، وكان ملاصقاً لخاله عبدالرحمن بن عوف ﷺ أثناء فترة الشورى، مع أنه كان يميل إلى علي ﷺ ، وحينما بويع يزيد بن معاوية كره بيعته وانضم إلى ابن الزبير رضي الله عنهما وقتل على يد جيش الحصين بن نمير سنة ٦٤هـ حيث أصابه حجر وقيل سهم مات من إثره وهو ابن ٦٢ عاماً.

انظر: ابن الأثير: عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، تقديم : محمد عبدالمنعم البري وعبدالفتاح أبو سنة ، وجمعه : طاهر النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٧٠/٥)؛ وابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (٢٠٤/٩).

من المدينة وكيف كانت مشاركة القبائل[١] – فلما وصلوا إليه أخذ القيادة العامة وهاجم بجيشه أراضي جرجير الذي كان قد عينه هرقل نائباً عنه في إفريقية ، لكنه خلع هرقل وضرب السكة وأعلن نفسه ملكاً ، وكانت أراضيه ممتدة من طرابلس إلى طنجة ، فلما التقى الجيشان انتصر جيش المسلمين ، وقتل جرجير ، وكان الذي تولى قتله عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ، وقد غنم المسلمون غنائم كبيرة حتى أعطي الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[٢] ، وبعد ذلك استلم قيادة الجيوش معاوية بن حديج رضي الله عنه[٣] فغزا إفريقية عدة مرات ، ثم تم استدعاؤه إلى مصر وعين بدلاً منه عقبة بن نافع الفهري[٤] .

---

(١) أبو العرب : محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق : علي الشابي ونعيم حسن الباني ، الدار التونسية ١٩٨٥م ، الطبعة الثانية ، تونس ، (٧٠).

(٢) ابن عبدالحكم ، ١٨٣ ؛ والبلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، **فتوح البلدان** ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، د.ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بيروت ٣١٧ ؛ والمالكي ، (١٤/١). وحسن مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، (٦٠).

(٣) أبو نعيم معاوية بن حديج بن جفنة السكوني يعد من أهل مصر غزا إفريقية ثلاث مرات ، وغزا الحبشة مع ابن أبي سرح ، وقد تولى إمارة إفريقية ثلاث مرات لمعاوية بن أبي سفيان ، . انظر : المالكي ، (٩٢/١- ٩٣) ؛ وابن الأثير ، (١٩٨/٥).

(٤) عقبة بن نافع الفهري ، ولد في عهد الرسول ﷺ وليست له صحبة ، غزا بلاد السودان ، ثم أغزاه معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما إفريقية في عام ٤٦هـ فاختط القيروان وبنى مسجدها ، وعزل عن إفريقية ثم أعيد إليها سنة ٦٢هـ ، وقد غزا بلاد البربر كلها ، فدخلوا في الإسلام ، ثم انتقض بعضهم بقيادة كسيلة الذي قتل عقبة في معركة تهودا عام ٦٣هـ . انظر : المالكي ، (٩٧/١) ؛ وابن عذارى (١٩/١) ؛ وابن الأثير ، **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، (٥٧/٤) ؛ وابن الأبار : القضاعي البلنسي ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر ، **الحلة السيراء** ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، القاهرة ، (٣٢٣/٢).

ولاية عقبة بن نافع:

تولى عقبة مباشرة بعد معاوية بن حديج وذلك في عام ٤٦هـ وقد اختط عقبة القيروان [١] ، وجعلها تبعد عن البحر مسافة مرحلتين أي قرابة أربعة وستين كيلومتراً ، لكي لا يأتيها الغزو إضافة إلى أن يحصل الجنود على أجر المرابطة ، وقد دعا لها عقبة بن نافع حينما أراد تأسيسها بأن تكون آمنة [٢] ، وجاء في نص الدعاء: (يا رب أملأها فقهاء وعلماء ، وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك وأعز بها الإسلام وأصلح بها المغرب ، وامنعها عن جبابرة الأرض) [٣] .

فمن هنا نجد أن لتأسيس القيروان أسباب متعددة منها أن تكون نقطة انطلاق للجيوش الفاتحة لبقية بلاد إفريقية ، وما وراءها ، أيضاً أن تكون مأوى للجيوش الإسلامية حينما تقابل بهجوم من الفرنجة أو الروم أو البربر ، إضافة لذلك تكون نقطة مراقبة لتلك البلاد المفتوحة كي لا يعاودوا الانقضاض على المسلمين ، إضافة لذلك هناك السبب الديني ، حيث أراد عقبة أن تكون القيروان مكاناً لتعليم الناس

---

(١) القيروان : هي أجل مدن الغرب وأفضل أمصارها في جميع شؤون الحياة من زراعة وصناعة وتجارة ، وكان سكانها أهل علم لا شغب بينهم مع اختلاف مذاهبهم ، وقد سلط الله عليها العرب فدمروها منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. انظر: اليعقوبي ، ٣٤٧ ؛ والمقدسي ، ٢٢٥ ؛ والإدريسي ١٤/٢ ، والاستبصار للمؤلف المجهول المراكشي من مؤلفي القرن السادس الهجري ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق سعد زغلول عبدالحميد ، دار النشر المغربي ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥م ، ١١٣ ، ٢٨٤ ؛ والحميري ، ٤٨٦ .

(٢) نجوى عثمان ، **مساجد القيروان** ، دار قابس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ١٤ ؛ ونهلة شهاب أحمد ، **المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع** ، دراسة تحليلية ، دار المتنبي . د.ط ، الأردن أربد ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م ، ٨١.

(٣) الرقيق : أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني ، **تاريخ إفريقية والمغرب** ، تحقيق : عبدالله العلي الزيدان ، وعز الدين عمر موسى ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ٨ .

الإسلام واللغة العربية ، ونشر الثقافة الإسلامية عموماً [١] .

واستمرت إفريقية في يد المسلمين ، وتوالى الولاة عليها وكان كلهم من العرب ، وكانت مرجعيتها إلى المدينة المنورة في عصر الخلفاء الراشدين، ثم إلى دمشق إبان الدولة الأموية وبغداد إبان الدولة العباسية، وقد عرفت تلك الفترة بعصر الولاة [٢] .

(١) طاهر مظفر العميد، **آثار المغرب والأندلس** ، دار الكتب والنشر ، جامعة الموصل ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، ١٩٨٩م ، ٥٩ ؛ ونهلة شهاب ، ٨٠ .

(٢) حسن أحمد محمود ومنى حسن محمود، **تاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة**، الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٥٧- ٥٨ .

الفصل الأول

نشأة الرباط وتطوره المعماري

إن الرباط بمفهومه الاصطلاحي لم يبدأ إلا في ١٧٩هـ ، وكانت السنوات التي سبقت نشأة الرباط تضم أحداثاً مهمة لابد من الوقوف عليها ، وهي فترة الاضطرابات وتفرق إفريقية بين الخوارج ، ثم استعادة العباسيين لإفريقية فإمارة المهالبة ، فبدراسة تلك الفترة نستطيع الوصول إلى بعض الأسباب المهمة التي تتعلق بنشأة الرباط.

تعريف الرباط لغة واصطلاحاً :

إنه يندرج تحت مفهوم الرباط ، مفاهيم متعددة كالقصر والحصن ، وهي متشابهة في مضمونها العام إلا أن هناك فروقاً بسيطة من الناحية اللغوية ومن الناحية الاصطلاحية فلا بد من الوقوف على كل مفهوم بذاته ، وأبدأ أولاً بالرباط. إن الرباط لغةً هو مكان تربط فيه الخيول ولا يسمى بذلك الاسم حتى يزيد عدد الخيول عن خمسة [١] ، والمرابطة أساساً هي المداومة على الأمر ، والإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل حيث يربط كل فريق خيله استعداداً للهجوم على الآخر ، ثم أصبح للكلمة معناها الاصطلاحي فإذا قيلت كلمة رباط ينصرف الذهن تلقائياً إلى أماكن معينة يقيم فيها جند الإسلام للذب عن البلاد والعباد [٢] .

---

(١) ابن منظور الإفريقي : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، (باب الطاء فصل الراء) ؛ والمقريزي العبيدي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، (٣٠٢/٤) ؛ وبطرس البستاني ، **محيط المحيط** ، تحقيق : مكتبة لبنان ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٨م (باب الراء فصل الطاء).

(٢) المقريزي ، (٣٠٢/٤) ؛ وطاهر مظفر العميد ، ١٢٢ .

وهو البناء المحصن الذي يرابط فيه العربي المسلم للدفاع عن الأرض والوطن والعقيدة في الأرض العربية الإسلامية احتساباً لوجه الله تعالى دون طمع في مال أو مغنم أو جاه، لذلك فالمرابط يكسب رزقه ورزق عياله بما يقوم به من أعمال زراعية أو مهنية أخرى [١] ، وقد كثرت الأربطة في إفريقية واهتم الناس من رجال الدولة ومن الصالحين لبنائها حتى أن النار كانت توقد في سبتة [٢] للإنذار بقدوم عدو فلا تمر ساعة من الزمن إلا والخبر قد وصل إلى الإسكندرية، حيث توقد النيران للإنذار ليلاً في منارات قد خصصت لذلك الغرض ومن أهم تلك المنارات التي استخدمت منارة الإسكندرية[٣] ، أما في النهار فكانوا يستعيضون عن المنار بالدخان [٤] ، وقد استمرت الأربطة فترة من الزمن تقوم بدورها الذي أنشئت من أجله لكن مع مضي السنين أصبحت تلك الأماكن مقرا للتصوف المذموم وملاذاً للبطالين والمتعيشين حيث

---

(١) طاهر مظفر العميد ، ١٢٢ .

(٢) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس ، وهي ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند ، ولها حصون عظيمة وأسوار منيعة يصعب على الجيوش اقتحامها وفي شكلها أقرب إلى الجزيرة . انظر : ياقوت ، (١٨٢/٣) ؛ وأبوالفداء ، ١٣٣ ؛ والحميري ، ٣٠٣ .

(٣) منارة الإسكندرية : من عجائب الدنيا ، وقد أُختلف فيمن بناها فقيل إنه الإسكندر المقدوني ، وقيل إنه عاشر الفراعنة وقيل غير ذلك، وكانت تستخدم لمراقبة الأعداء القادمين عبر البحر، وقد سقط رأسها في الزلزال الذي ضرب مصر سنة ١٨٠هـ، ويذكر المؤرخون حوادث تشير إلى بقاء أجزاء منها حتى القرن الخامس الهجري. انظر: المقريزي ، (٢٩٠/١) ؛ وابن تغرير بردي ، (١٢٨/٢) ؛ والمقري التلمساني : أحمد بن محمد ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** ، تحقيق : مريم قاسم طويل ، ويوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، (٣٣٣/٢).

(٤) المراكشي : عبدالواحد ، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، تحقيق : محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ٢٨٢ ؛ وقاجة ، **موسوعة فن العمارة الإسلامية** ، ٢٢٣ .

يأتون للأكل والنوم ويتحججون بأنهم عُباد.

ويذكر الشرباصي أن الرباط ما ربط به جمعه ربط ، والمواظبة على الأمر ، وملازمة ثغر العدو كالمرابطة ، والخيل أو الخمس منها فما فوقها ، وواحد الرباطات المبنية ، والمرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغرة ، وكل معد لصاحبه ، فسمي المقام في الثغر رباطاً ، والربيط الراهب والزاهد والحكيم .

ويقال فلان رابط الجأش ، وربيط الجأش أي شديد القلب ، أي كأنه يربط نفسه عن الفرار [١] .

ثانياً : القصر : القصر لغة البناء العالي المشيد ، وأصله الحبس وذلك لقوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾[٢] ، أي محبوسات فيها [٣] ، ويقال سمي قصراً لاقتصاره على بقعة معينة من الأرض بخلاف بيت الشعر الذي ينقله ساكنه حيث شاء وقيل سمي قصراً لقصور الناس عن الارتقاء إليه ، أو عامة الناس عن بناء مثله [٤] .

أما من الناحية الاصطلاحية ، فإن كلمة قصر إذا ذكرت في الكتب المغربية فإنها تعني الرباط الذي يبنى على الساحل ، أو قريباً منه لإقامة الجنود إضافة إلى العُباد الذين يقسمون أوقاتهم بين مدافعة العدو ومدافعة النفس ، ويكون لهم أراض زراعية يقومون على زراعتها والاستفادة منها لأغراضهم الشخصية ودوابهم ، والذي يظهر

---

(١) أحمد الشرباصي ، الرباط في الإسلام ، مجلة الأزهر ، الجزء الرابع – القاهرة ، ربيع الآخر ١٣٧٣هـ/ ديسمبر ١٩٥٣م ، المجلد الخامس والعشرون ، ٤٣٧- ٤٣٨ .

(٢) سورة [الرحمن : ٧٢].

(٣) البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالخالق ، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، (١٠٩٦/٣) .

(٤) البستاني ، (باب القاف فصل الراء).

أن القصر كلمة مرادفة للرباط إلا أنه أكبر ، وذلك سيتضح مما سأذكره بإذن الله من خلال عرض الأربطة والقصور التي استطعت أن أحصل على معلومات عنها في المبحث القادم .

ثالثاً: الحصن ، يقال حصن الشيء وأحصنه ، وهو البناء المشيد الذي لا يمكن الوصول إلى ما في جوفه ، وقد يكون الحصن صغيراً يضم عدداً قليلاً من المقاتلين ، وقد يكون كبيراً جداً ، حيث يحوي بداخله قرية كاملة [(١)] .

ونجد في إفريقية أن كلمة الرباط وكلمة القصر قد اشتهرت أكثر من كلمة حصن مع أننا إذا نظرنا إلى التعريفات اللغوية والاصطلاحية لكل من تلك الاستحكامات العسكرية نجد أنها تدور حول معنى واحد ، إضافة إلى أن بعض الكتب الحديثة التي تطرقت إلى تاريخ إفريقية عندما تذكر بناء الأغالبة على سبيل المثال للأربطة تقول بناء الأغالبة للحصون .

لقد سيطر عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري على مقاليد الحكم في القيروان عام ١٢٧هـ ، وجاءه التقليد بالولاية من الأمويين ممثلاً في مروان بن محمد لكن إفريقية لم تهدأ لعبدالرحمن إذ نزل بأرضها الطاعون وأصبحت الثورات في كل مكان من قبل العرب والبربر ، وكان عبدالرحمن هذا قاسياً في التعامل مع الناس حتى كرهوه وكرهوا حكمه [(٢)] . ولكن الأمر بقي على ما هو عليه حتى عام ١٣٧هـ إذ جاءته الولاية من المنصور فأرسل عبدالرحمن بهدايا رديئة للخليفة وكتب فيها ما مفاده أن ليس بإفريقية أموال تؤخذ من كفار جزية إذ أنها اليوم إسلامية كلها ، فغضب المنصور وأرسل يتوعد عبدالرحمن الذي لم يعجبه التهديد بدوره فخلع

---

(١) الفيومي : المصري ، أحمد بن محمد بن علي ، **المصباح المنير** ، مكتبة لبنان ، لبنان ، ٢٠٠١م ، (باب الحاء فصل النون) ؛ والثعالبي ، **فقه اللغة وسر العربية** ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ٢ ؛ وابن منظور ، (باب النون فصل الحاء).

(٢) الرقيق ، ٨٦ ؛ وابن عذارى ، (٦٠/١).

طاعته للمنصور[1] لكن الأمر لم يدم لعبدالرحمن أكثر من ذلك إذ انتهت إمارته بقتل أخيه الياس له[2] .

فإن إفريقية دخلت في صراع كبير وذلك بمقتل عبدالرحمن بن حبيب الفهري ، وكان ذلك الصراع بين الخوارج من صفرية وإباضية [3] . حيث إنه عند استيلاء ورفجومة [4] على القيروان سامت أهلها الظلم والعسف ، وأسرفوا في ارتكاب المعاصي والفظائع ، وأعمال المنكر من سفك الدماء ، وهتك الحرمات ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين في حمى أبي الخطاب عبدالأعلى بن السمح[5] ، وطالعوه بما ارتكبه الورفجوميون من ضروب البطش والظلم والطغيان والفساد

---

(١) الرقيق ، ٩٦ ؛ وابن عذارى ، ٦٧ .

(٢) الرقيق ، ٩٨ ؛ وابن عذارى ، ٦٨ .

(٣) الإباضية والصفرية : فرقتان من فرق الخوارج ، وقد اشتق هذا الاسم من الفعل (خرج) لأنهم خرجوا على علي بعد أن كانوا ضمن أتباعه وهم يطلقون على أنفسهم (الشراة) أي الذين شروا آخرتهم بدنياهم، كما يطلق عليهم أيضاً (الحرورية) نسبة إلى حروراء وهو موضع على الفرات بقرب الرقة نزلوا به إثر عودة علي وجيشه من صفين ، ولم يريدوا أن يدخلوا الكوفة ، ومن الأسماء التي تطلق عليهم أيضاً (المحكمة) أي الذين يقولون لا حكم إلا لله. انظر: أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، القاهرة ، ٢٠٠٠م، (٢/ ٢٤٠).

(٤) ورفجومة : من قبائل البربر.

(٥) هو: عبدالأعلى بن السمح المعافري ويكنى بأبي الخطاب ، ثارت ثائرته عندما أساءت الصفرية معاملة أهل القيروان فخرج وهو يقول لبيك الله لبيك وقاتل ورفجومة، ثم إنه تقاتل مع جيوش المسودة بقيادة العجلي فهزمه ، ثم تقابل مع ابن الأشعث فبدأ جيشه يتخلى عنه وهم الزناتيون الذين رأوا أنه يميل إلى هوارة، لذا أصبح موقفه ضعيفاً وقتل مع أصحابه في نهاية الأمر. انظر: الرقيق، ١٠٣ ؛ وابن عذاري ، (١/ ٧٠- ٧٢) ؛ والدرجيني: أبو العباس أحمد بن سعيد ، **طبقات المشائخ بالمغرب** ، تحقيق : إبراهيم طلاي ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، الجزائر ، (١/ ٢٢).

واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد [1] ، وكان عبدالأعلى عربياً من وجوه العرب الذين تقبلوا الخارجية على المذهب الإباضي المعتدل، فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها، فتحركت في نفسه عوامل الغيرة على الإسلام، فاستنفر أتباعه من الإباضية وشايعه بربر طرابلس وفي مقدمتهم هوارة، وزحف بمجموعة نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورفجومة وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطغيانها، وما أن علم عبدالملك بن أبي جعد الورفجومي [2] بذلك حتى خرج من القيروان .في حشود كثيفة من ورفجومة، ومن أهل القيروان، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان في صفر سنة ١٤١هـ واشتد القتال ودارت الدائرة على عبدالملك، إذ خذله أهل القيروان وانهزموا عنه، فأثخن فيهم عبدالأعلى وهزمهم وقتل منهم عدداً كبيراً من بينهم عبدالملك نفسه، وتمكن عبدالأعلى من دخول القيروان، واستخلف عليها زميله عبدالرحمن بن رستم الفارسي [3] ليدير شؤونها[4] .

---

(١) الرقيق ، (١٠٤) ؛ وابن عذارى (١/ ٧٠) .

(٢) هو: عبدالملك بن أبي الجعد اليفرني ، عينه عاصم بن جميل والياً على القيروان فأساء للعرب الذين كانوا قد وقفوا مع الورفجوميين من قبل ، لذا استنجد أولئك العرب بأبي الخطاب فسار لقتال عبدالملك الذي خذله أهل القيروان فقتل مع أصحابه في صفر عام ١٤١هـ.
انظر : الرقيق ، ١٠٣- ١٠٤ ؛ وابن عذارى (١/ ٧٠- ٧٢).

(٣) هو : عبدالرحمن بن رستم بن بهرام فارسي الأصل، كانت ولادته بالعراق وانتقل مع أمه إلى المغرب بعد وفاة والده بمكة ، وقد أخذ بالمذهب الإباضي ، ولاه أبو الخطاب القيروان بعد طرده للورفجوميين لكنه تركها بعد قدوم المسودة، ثم كان من الذين حاصروا عمرو بن حفص لكن ابن حفص أرسل له جيشاً وهو مقيم بتهودا فهزمه مما اضطره إلى الاتجاه غرباً واختطاط مدينة تاهرت الجديدة وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٧١هـ.
انظر: الرقيق القيرواني ، ١٠٤ ؛ وابن عذارى ، (١/ ٧٠- ٧٧) ؛ والدرجيني ، (١/ ١٩) ؛ وخير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس تراجم** ، دار العلم للملايين، الطبعة ١١ ، بيروت ، ١٩٩٥م ،(٣/ ٣٠٦، ٤/ ١٨٣) .

(٤) الرقيق، ١٠٣ ، والبيان المغرب (١/ ٧٠) ، والسيد عبدالعزيز سالم، **تاريخ المغرب الكبير** ، دار =

استعادة العباسيين لإفريقية :

بعد أن انتصر عبدالأعلى المعافري على الورفجوميين قام بتعيين عبدالرحمن ابن رستم على القيروان ، وعاد هو على طرابلس ، والحقيقة أن هؤلاء الخوارج كانوا ينادون بخلافة المنصور في الظاهر لكنهم يرفضونها في أعماقهم ، وإنما ادعوا ذلك الأمر لكي يجمعوا الناس حولهم ، والواضح أن تلك الحيلة لم تنطل على المنصور إلا أن تأخره عن التدخل في إفريقية كان يعود لانشغاله بمشكلة عمه عبدالله بن علي وأبو مسلم الخرساني فحينما انتهى من تلك المشاكل قرر التدخل في إفريقية وخصوصاً بعد أن جاءه وفد بقيادة عبدالرحمن بن زياد بن أنعم (١) يطلب منه تخليصه من الخوارج فكلف واليه على مصر محمد بن الأشعث (٢) بإرسال الجيوش إلى إفريقية

= النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م ، (٣٤٢/٢).

(١) هو : عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري ، يكنى بأبي خالد يقال إنه أول مولود في الإسلام بإفريقية وفد على خلفاء بني أمية وعلى بني العباس ويعد من المحدثين ، ولي قضاء إفريقية مرتين، وقد توفي بعد أن جاوز التسعين عاماً وقيل إن سبب وفاته أنه أكل سمكاً وشرب عليه لبناً سنة ١٥٦هـ وقيل ١٦٢هـ.

انظر: الرقيق ، ص١٢٨ ؛ وابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، تحقيق : محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (١٩١/٨)؛ وابن عذارى ، (٨٠/١) ؛ وابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، تقديم : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، (٣٦/٢).

(٢) محمد بن الأشعث بن يحيى الخزاعي الخرساني ، أحد قواد بني العباس ، ولي دمشق للمنصور، ثم ولي مصر ودخل إفريقية لحرب الإباضية ، كان شجاعاً مهيباً، توفي سنة ١٤٩هـ . ويحكى أنه قاد أربعين ألفاً لملاقاة أبي الخطاب الذي تفرقت عنه زناته مما قوى موقف ابن الأشعث وكان ذلك عام ١٤٤هـ .

انظر : ابن عذاري ، (٧٢/١) ؛ والصفدي: صلاح الدين خليل بن ايبك ، **الوافي بالوفيات** ، =

لاستعادتها ، فأرسل جيشاً لكنه انهزم قرب سرت [(١)] .

ثم أرسل جيشاً آخر فقطع أبو الخطاب الطريق عليه وهزمه قرب مغمداس [(٢)] ، مما جعل محمد بن الأشعث يأتي بنفسه ويهزم قوات أبي الخطاب ، ويطرد قوات عبدالرحمن بن رستم من القيروان وكان ذلك عام ١٤٤هـ [(٣)] .

وكان ملخص تلك المعركة أن ابن الأشعث أعلن في جيشه المكون من سبعين ألف أنه سيرجع من حيث أتى ، وكان أبو الخطاب قد بث بدوره جواسيس في جيش ابن الأشعث ، وكان السبب الذي جعل ابن الأشعث يعلن ذلك أن جواسيسه المنتشرين في جيش أبي الخطاب قد أخبروه بأنهم رأوا رهباناً بالليل أسوداً بالنهار يحبون الجهاد ويشتاقون إليه كما يشتاق المريض إلى الطبيب ، فأعلن ابن الأشعث ذلك كي تصل الأخبار إلى جيش أبي الخطاب، والذي كان معظمه من المزارعين فتخف حماسهم، لكن أبا الخطاب عرف أن تلك خدعة من ابن الأشعث مع كل ما فعله ابن الأشعث، إذ ضحى بأحد قواده المهمين وهو المحارب بن هلال [(٤)] ليقنع =

اعتناء : س . ديدرينع ، دار فرانزستاينر، الطبعة الثانية ، فيسبادن عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، (٢٢٨/٢).

(١) مدينة سرت : مدينة كبيرة قديمة على ساحل البحر، وكان أهله في ذلك الزمان من أخس الناس خلقاً وأسوأهم معاملة ، وقد خربها العرب وبقي بها قصور يسكنون بها . انظر : اليعقوبي ، ٣٤٤ ؛ البكري ٤ ، والاستبصار، ١٠٩ ؛ وأبو الفداء ، ١٤٩.

(٢) مغمداس : صنم قائم على شاطئ البحر المتوسط، حوله أصنام وبه قصر بناه الأعرابي عامل سرت لبني عبيدالله، وبمغمداس انهزم عمرو العجلي الذي أرسله ابن الأشعث لقتال أبي الخطاب. انظر: البكري ، ٧ .

(٣) ابن عذارى ، (٧٢/١) ؛ وابن خلدون ، (١٤٤/٦) ؛ وسعد زغلول ، **تاريخ المغرب العربي** ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٠م ، (٣٤٣/١).

(٤) هو: المحارب بن هلال كان من أكبر قواد ابن الأشعث ومن أعظم رجاله ، وأقرب الناس إليه ، وكان المنصور يراه من سيوفه ومن أركان حربه. سمع برسالة المنصور إلى ابن الأشعث ففهم أنه ليست صحيحة فابى الرجوع فما كان من ابن الأشعث إلا أن قتله ليؤكد للجند جميعاً مصداقية الرسالة، =

الجيش بالعودة حينما أبى ذلك القائد الرجوع ، وبعد ذلك أعاد ابن الأشعث الكرة على جيش أبي الخطاب ، وأباده عن آخره[١] ، ثم شرع ابن الأشعث في بناء سور القيروان وقد انتهى منه في عام ١٤٦هـ/٧٦٣م حسب ما ترويه معظم المصادر[٢] ، إلا أن هناك من يذكر أن ذلك السور قد بني في عهد عقبة بن نافع ، وهذا لا صحة له[٣].

واستمر ابن الأشعث في ولايته إلى عام ١٤٨هـ/٧٦٥م حيث جاءت الأوامر بعزله من المنصور وتولية الأغلب بن سالم[٤] ، وكان السبب في عزل ابن الأشعث أنه اختلف مع الجند وحاربهم أربعين يوماً ، وكان إذا ظفر بأحد منهم ووجد اسمه معاوية أو سفيان أو مروان أو اسماً موافقاً لأسماء بني أمية قتله ، ومن كان اسمه

=

وهذه الشخصية لم أجدها مذكورة إلا عند (دبوز) فيما أن المصادر الأصلية لا تتطرق إليها.

انظر: محمد علي دبوز ، **تاريخ المغرب الكبير**، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، الجزائر ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م ، (١٤/٣).

(١) ابن عذارى ، (٧٤/٣) ؛ ودبوز (١١/٣- ١٢).

(٢) ابن عذارى ، (٧٢/١) ؛ والنويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، مراجعة : عبدالعزيزالأهواني ، د.ط، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م (٢٤/٢٤)،

(٣) يروي الوزان أن السور قد بني في عهد عقبة، واستخدمت في بنائه مادة القرميد، مع أن القرميد لا يبنى به إنما يستعمل في تزين الحيطان إضافة إلى أن المصادر الأصلية تذكر أن السور بني في عهد ابن الأشعث. انظر: ابن الوزان ، ٤٦٠ .

(٤) هو: الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي أبو جعفر، كان من أهل الرأي وذوي المشورة، وكان ممن سعى بدعوة العباسيين مع أبي مسلم الخرساني واشترك معه في قتال عبدالله بن علي. أرسله المنصور مع ابن الأشعث إلى إفريقية وجعله ينوب عنه إذا حدث له مكروه وبعد خروج ابن الأشعث من القيرون وليها ابن الأغلب فثار عليه الحسن ابن حرب وتقاتلا حتى قتل الأغلب في عام ١٥٠هـ/٧٦٧م.

انظر: ابن عذارى ، (٧٤/١) ؛ وابن الأبار ، (٦٨/١).

خلاف ذلك استبقاه[١].

ثم ثار الحسن بن حرب [٢] على الأغلب بن سالم ودارت بينهما الخطابات ، فالمعارك التي أدت في النهاية إلى مقتل الأغلب [٣] .

---

(١) البلاذري ، ٣٢٥ .

(٢) هو : الحسن بن حرب الكندي ثار بتونس على الأغلب بن سالم أثناء حروبه مع أبي قرة الصفري فأرسل إليه الأغلب رسالة يدعوه فيها إلى الطاعة لكن الحسن لم يأبه بها وكان الحسن قد خاطب الجند مضرياً فاجتمعوا له فدارت الحرب بين الطرفين فانهزم الحسن ثم كر مرة أخرى فخرج له الأغلب بجيشه فأصيب بسهم أرداه قتيلاً إلا أن أتباع الأغلب طاردوا الحسن فقبضوا عليه وقتلوه في عام ١٥٠هـ/٧٦٧م.

ابن الأبار ، (١/٧٠) ؛ والزركلي ، (١/١٨٧).

(٣) ابن عذارى ، (٣/٧٥) ؛ ودبوز ، (٣/٣٩).

ولاية عمر بن حفص بن قبيصة على إفريقية

بعد مقتل الأغلب بن سالم أرسل أبو جعفر المنصور عمر بن حفص [1] والياً على إفريقية ، وقد وصل إلى إفريقية عام ١٥١هـ وبصحبته خمسمائة من الفرسان وقد أقام ثلاث سنوات بالقيروان بدون مشاكل تذكر، وبعد ذلك خرج إلى الزاب واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد المهلبي فثار عليه البربر فخرج لهم ليقاتلهم لكنه انهزم من قبل البربر الذين هزموا جند طرابلس أيضاً فاشتعلت نار الفتنة بإفريقية وجاء البربر من كل حدب وصوب إباضية وصفرية وحاصروا عمر بن حفص الذي لم يكن معه سوى خمسة عشر ألفاً وخمسمائة من الجند، بينما كان البربر يفوقونه ، فأبو قرة[2] معه أربعون ألفاً، وعبدالرحمن بن رستم خمسة عشر ألفاً ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

فرأى عمر بن حفص أن يخرج لهم فأشار عليه الجند أنه إن خرج وقتل انهزم الجيش بأكمله ، فرأى أن يعمل الحيلة فأرسل إلى أبي قرة ستين ألف درهماً وثياباً على أن ينصرف، فرفض حيث إنه يرى بعد أن كان يسلم له بالخلافة أربعين سنة يبيع ذلك بعرض قليل من الدنيا، فحمل الرسول الأموال إلى أخ أبي قرة وأعطاه أربعين ألف درهماً فاستطاع أخو أبي قرة أن يصرف كثيراً من الذين كانوا معه من الجيش، فلم ير أبو قرة بداً من اتباعهم، وبعد أن تفرق جيش أبي قرة هاجم عمر بن

---

(١) عمرو بن حفص بن قبيصة ولى إفريقية سنة ١٥١هـ وكان شجاعاً وبطلاً ولذلك لقب هذار مرد وهي كلمة فارسية الأصل تعني (ألف رجل) وسبب توليته إفريقية هو مقتل ابن سالم، كانت ولايته ثلاث سنوات ونصف وكانت هادئة إلا أن الخوارج ثاروا عليه في آخر مدته. انظر: ابن عذاري (١- ٧٥) ودبوز (٣- ٤٩).

(٢) هو أبو قرة اليفرني الصفري كانت بداية ثورته سنة ١٥٠هـ وذلك في زمن الأغلب بن سالم فلما علم أبو قرة بقدوم الأغلب إليه هرب وتفرق ذلك الجيش الصفري . انظر: الرقيق ، ١١١ ؛ وابن عذاري ، (٧٤/١).

حفص جيش عبدالرحمن بن رستم وقتل منهم ثلاثة آلاف، فانسحب عبدالرحمن ابن رستم إلى تاهرت، وعاد عمر بن حفص إلى القيروان وحاصره أبو حاتم، وقد كان عمر قد أدخل في القيروان كل ما يحتاجه المحاصر من متطلبات الحياة، لكن الحصار طال أمده، فأصبح في القيروان مجاعة أدت بالناس إلى أكل دوابهم وكلابهم وسنانيرهم، ثم جاء الخبر بوصول يزيد بن حاتم ومعه ستون ألف من المقاتلة ، فقال عمر: (لا خير في الحياة إذا قيل إن يزيداً أخرجه من الحصار ، إنما هي رقدة فابعث إلى الحساب) فخرج وقاتل حتى قتل في منتصف ذي الحجة عام ١٥٤هـ، وكانت ولايته على إفريقية ثلاث سنوات وبضعة أشهر وقع خلالها بينه وبين البربر ثلاثمائة وخمسة وسبعين وقعة. فاستولى أبو حاتم على القيروان وصالح أهلها على شروط هي :

١- إن جند القيروان لا ينازعون أبا حاتم ومن معه ولا ينازعونه في سلطتهم ولا يخلعون سوادهم.
٢- إن كل دم أصابه جند القيروان من جيش البربرة فهو هدر.
٣- ألا يجبر البربر جند القيروان على بيع أسلحته ودوابه [1] .

---

(١) الرقيق ، ١٠٩ ، والطبري : أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك ، دا رالكتب العلمية، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م (٥٠٤/٤) ، وابن عذاري (٧٥/١- ٧٦) ، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (١٩٧/٥) ، ودبوز ، (٤٩/٣- ٥٠).

ولاية يزيد بن حاتم على إفريقية :

هو أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، ولي مصر عام ١٤٤هـ، واستمر عليها والياً عشر سنوات [١] ، ثم سيره المنصور إلى إفريقية بعد مقتل عمر بن حفص إلا أن ابن كثير يروي أنه بقي على مصر ثماني سنوات [٢] ، وعلى أية حال فقد وصل إلى إفريقية في عام ١٥٤هـ وكان معه ستون ألفاً من الجند فوصل إلى سرت وانضم إليه من كان بها من الجند [٣] ، ثم واصل السير إلى طرابلس حيث التقى أبا حاتم ودارت بينهما معركة عظيمة استطاع فيها يزيد بن حاتم من الانتصار وقُتِل أبو حاتم وقُتِل ممن معه خلق كثير [٤] ويروي ابن الأثير أن الذين قتلوا كانوا ثلاثين ألفاً [٥] . ويبدو من هذه الرواية المبالغة حيث إن قتل ثلاثين ألفاً ليس بالشيء السهل وإنما نستطيع أن نقرأ ما بين سطور هذه الرواية حيث يريد المؤلف الإشارة إلى كثرة المقتولين في تلك المعركة.

ويذكر دبوز أن هناك أسباباً أدت إلى انتصار يزيد بن حاتم على أبي حاتم في تلك المعارك منها :

أولاً : كثرة جيوش يزيد بن حاتم، الذين كان عددهم يفوق المائة والخمسين ألفاً – هكذا ذكرها دبوز أما الرقيق فيذكر أن جيش يزيد كان ثلاثون ألفاً من خراسان

---

(١) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تقديم : محمد عبدالرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، (٣٦١/٣).

(٢) ابن كثير: القرشي الدمشقي ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية** ، مكتبة المعارف ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، (١٠٩/١٠).

(٣) الرقيق ، ١٢٣ .

(٤) ابن عذارى ، (٧٩/١) ؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (١٩٧/٥).

(٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (١٩٧/٥).

وستون ألفاً من البصرة والكوفة –[(١)] بينما جيش أبي حاتم لا يتعدى مائة وثلاثين ألفاً قبل أن ينسحب منهم الكثير .

ثانياً : الإرهاق الذي أصاب جيوش أبي حاتم جراء الحروب المتوالية منذ أيام عمر بن حفص .

ثالثاً : أن جيش يزيد بن حاتم كان نظامياً وعلى درجة عالية من التدريب ، على العكس من جيش أبي حاتم الذين كانوا يتألفون من المتطوعين.

رابعاً : القدرة العسكرية العالية الذي كان يتمتع بها يزيد بن حاتم[(٢)]

وبعد مقتل أبي حاتم في شهر ربيع الأول عام ١٥٥هـ طلب آل المهلب البربر في كل سهل وجبل حتى أبادوا كثيراً منهم ، ثم رجع يزيد بن حاتم يريد القيروان فأقام بقابس فترة من الزمن ، ثم دخل القيروان لعشرين بقين من جمادى الأولى عام ١٥٥هـ [(٣)] فثار عليه بجبل كتامة عبدالرحمن بن حبيب بن عبدالرحمن[(٤)] ، فأرسل له يزيد من استأصل شأفته وأجبره على الهروب وقتل خلقاً كثيراً من الذين كانوا معه ، ثم ثارت هوارة في طرابلس ، لكنهم هزموا على يد قوات يزيد بن حاتم [(٥)] .

ثم ثارت ورفجومة في عام ١٦٤هـ بأرض الزاب ، فأرسل إليهم زياد بن مجزأة[(٦)] لكنه هزم ، وقُتِل خلق كثير من الذين معه وقُتِل المخارق[(٧)] صاحب الزاب ،

---

(١) الرقيق، ١٢٣.

(٢) دبوز، (٨٢/٣- ٨٤).

(٣) الرقيق ، ١٢٤ .

(٤) لم أجد له ترجمة في المصادر المتوفرة لدي.

(٥) ابن عذاري ، (٧٩/١) ؛ وابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** (١٩٨/٥).

(٦) هو: زياد بن مجزأة المهلبي أحد قواد يزيد بن حاتم، وقد أرسله لقتال ورفجومة فهزم وتفرق جيشه فأتته المساعدة بقيادة العلاء بن سعيد المهلبي، فكانت البربر تقول إنما أمر زياد بن مجزأة أملاً كاذباً ، وليست يزيد" فانضم القائدان إلى بعضهما وهزما البربر . انظر: الرقيق ، ٢٥- ٢٦ .

(٧) هو : المخارق بن غفار أحد قواد يزيد بن حاتم وقد بعثه إلى الزاب فنزل طبنة ثم سيره يزيد لحصار =

فأرسل يزيد ابن حاتم إلى المنهزمين جيشاً بقيادة العلاء بن سعيد المهلبي [١] فانضم إليه المنهزمون فالتقوا بورفجومة مرة أخرى وهزموهم [٢] .

وبقي يزيد والياً على إفريقية حتى عام ١٧٠هـ ، حيث توفي في ذلك العام وبذلك تكون ولايته خمسة عشر عاماً [٣] .

= عبدالرحمن بن حبيب ، فوصل إلى كتامة وحاصر ابن حبيب ثمانية أشهر وجاءته المساعدة من العلاء بن سعيد ، فهرب البربر فعاد المخارق إلى الزاب.

انظر : الرقيق ، ص١٢٥ .

(١) هو : العلاء بن سعيد بن مروان (هكذا ذكره ابن الأبار) المهلبي كان قد أرسله يزيد بن حاتم لمساعدة يزيد بن مجزأة في حرب ورفجومة ولما انتصر عينه يزيد على طرابلس ، ويروي ابن الأبار أنه كان يريد قتال ابن الجارود فوصل بقواته إلى أريس فدارت بينهما الخطابات دون قتال إلا أن العلاء كان يقول أنا الذي أخرجت ابن الجارود من إفريقية.

انظر : الرقيق ، ١٢٦ ؛ وابن الأبار ، (٨٧/١).

(٢) الرقيق ، ١٢٥- ١٢٦ ؛ وابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، (١٩٨/٥).

(٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (١٩٨/٥) ؛ وابن خلكان ، (٣٦٢/٣) ؛ وابن تغري بردي ، (٣١/٢).

الحروب مع الخوارج بعد فترة يزيد بن حاتم:

لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ابنه داود على ولاية إفريقية ، حيث استمر داود بولايتها بعد وفاة والده زهاء تسعة أشهر أمضاها في محاربة الإباضية الذين ثاروا عليه بجبال باجة [١] ، فسير إليهم جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، وقد تمكن ذلك الجيش من هزيمتهم وكان بقيادة سليمان بن يزيد [٢] ، وظل داود على ولاية إفريقية إلى أن قدم إليها عمه روح بن حاتم أميراً على المغرب من قبل الرشيد، وساد الهدوء إفريقية فقد هادن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم[٣] بتاهرت ووادعه [٤] .

---

(١) باجة : مدينة كبيرة أزلية قديمة فيها آثار للأول ، ولها حصن حصين أزلي مبني بالصخر الجليل ، أتقن البناء ، يقال إنه من عهد عيسى عليه السلام ، ومدينة باجة على جبل شديد البياض يسمى الشمس لبياضه، وهي كثيرة الأنهار والعيون ومن تلك العيون عين تسمى عين الشمس. انظر: **الاستبصار** ، ١٦٠ . والحميري (٧٥) .

(٢) هو : سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب. أرسله داود لقتال الإباضية بجيش قوامه عشرة آلاف فهرب البربر، فتبعهم سليمان فقتل منهم أكثر من عشرة آلاف وسلم الجند وتجمع البربر مرة أخرى وكان معهم أناس لم يشهدوا الوقعة الأولى بشقينارية فزحف إليهم وهزمهم ثم عاد إلى القيروان.
انظر: الرقيق ، ١٣٢ .

(٣) عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم أدخله والده عبدالرحمن من ضمن الستة الذين سيتم ولاية أحدهم بعد وفاته فأخذ الستة يتدافعون الإمامة حتى خلصت في النهاية إلى عبدالوهاب الذي طلب منه أن يعين جماعة استشارية لكن كبار الإباضية لم يوافقوا وبذلك يصبح هو الإمام بعد والده. انظر : الدرجيني (٤٦/١- ٤٧).

(٤) السيد عبدالعزيز سالم ، (٣٥٩/٢).

ولاية روح بن حاتم على إفريقية:

هو أبو حاتم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة . كان قد استعمله خمسة من الخلفاء العباسيين وهم: السفاح ، والمنصور، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، ولم يشبهه في هذا الأمر سوى أبو موسى الأشعري الذي استعمله الرسول ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم [(١)] .

كان روح هذا والياً على السند[(٢)] ، فيما كان أخوه يزيد والياً على إفريقية ، فقال الناس ما أبعد قبري هذين الأخوين عن بعضهما ، فلما توفي يزيد استعمل الرشيد روح على إفريقية فدخلها عام ١٧١هـ، وكان داود بن يزيد عليها فلما وصل روح سار داود إلى الرشيد وبقي روح على إفريقية، وقد كانت أيامه هادئة وذلك أن أخاه يزيد كان قد أكثر القتل في الخوارج حتى أذعنوا، وفي رمضان عام ١٧٤هـ توفي روح ودفن بجانب قبر أخيه يزيد بالقيروان [(٣)] .

---

(١) ابن خلكان ، (١/٣٣٧- ٣٣٨) .

(٢) السند : موضع بين الهند ومكران وسجستان، فتحت أيام الحجاج بن يوسف، ومن أهم مدنها ديبل ، ولغتهم تختلف عن لغة أهل الهند ويقال للمفرد سندي وللجمع سند، كما يقال زنجي وزنج . انظر ياقوت، (٣/٢٦٧) ؛ والحميري ، ٣٢٧ .

(٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (٥/٢٨٢) ؛ وابن خلكان ، (١/٣٣٨).

ولاية الفضل بن روح على إفريقية :

لما توفي روح بن حاتم عين الرشيد على إفريقية نصر بن حبيب المهلبي [(١)] فذهب الفضل بن روح ووقف على باب الرشيد وطلب منه أن يوليه إمارة إفريقية، فوافق الرشيد على ذلك [(٢)] ، فلما وصل الفضل بن روح في عام ١٧٧هـ، أقام بالقيروان وعين المغيرة بن بشر بن روح على تونس وكان المغيرة قليل الخبرة عسكرياً وسياسياً فاستخف بالجند فثار عليه الجند بتونس، وكانوا يقولون إن كل جماعة ليس لها رئيس فهي إلى الهلاك، فعينوا عليهم عبدالله بن جارود [(٣)] الذي يلقب بعبدوية الأنباري، فوصلت الأخبار إلى الفضل أنهم لم يثوروا على المهالبة أو العباسيين، إنما ثاروا كرهاً لتصرفات المغيرة، فأرسل إليهم الفضل عبدالله بن يزيد بن حاتم لكنهم أحسوا أن تلك خدعة من الفضل، ومؤداها أنهم إذا عادوا للطاعة فإن الفضل سيأخذهم واحداً واحداً، فلم يرضوا بدخول عبدالله لتونس بل أرسلوا إليه عسكراً هزموه وردوه إلى الفضل، فسار ابن الجارود بعد ذلك إلى القيروان فدخلها وأخرج الفضل إلى قابس[(٤)] ، ثم أرسل له من يقتله، وبذلك زالت دويلة المهالبة بإفريقية

---

(١) هو : نصر بن حبيب المهلبي ، كان عالي الهمة ، بسط العدل والإحسان في المدة اليسيرة التي تولاها، ولم تطل مدته إذ عزله الرشيد وعين مكانه الفضل بن روح بن حاتم.

انظر : الرقيق القيرواني ، ١٤٧ ؛ وحسن حسني عبدالوهاب ، **خلاصة تاريخ تونس**، ٧٣ .

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (٥/٢٩٨).

(٣) عبدالله بن الجارود عرف بعبدويه الأنباري ثار على الفضل بن روح في تونس بسبب جعله المغيرة (ابن أخيه) أميراً عليهم وقد بايعه الناس وحاول الفضل أن يثنيه لكنه رفض ليس رفضاً للطاعة إنما طلباً لإرسال من هو كفؤُ ليكون أميراً عليهم، وكان الرشيد لما علم بابن الجارود وجه من تلطف به وأقدمه عليه وكانت أيامه سبعة أشهر .

انظر: الرقيق ، ١٥٢ ؛ وابن الأبار ، (١/٨٤).

(٤) قابس: مدينة بإفريقية بينها وبين القيروان ست مراحل، (والمرحلة ٣٢ كيلومتر) وبينها وبين البحر ست أميال، أرضها طيبة للزراعة كالزيتون والتمر، والحرير، ويحيط بها خندق وسور منيع ومرساها =

والتي دامت ٢٧ عاماً، وذلك من أيام عمر بن حفص بن قبيصة الذي ولي إفريقية عام ١٥١هـ إلى نهاية الفضل بن روح عام ١٧٨هـ [(١)] ، مع أن ابن عذارى يذكر أنها دامت ٢٣ عاماً [(٢)] حيث لا تحسب منها فترة حكم عمر بن حفص الذي يعرف بالمهلبي تجاوزاً وهو من نسل أخ المهلب.

=

لا يصلح للسفن لضيقه وعدم استتاره من الريح .

انظر: الإدريسي ، ٢٨٠ .

(١) ابن الجوزي ،(٣٥/٩) ؛ وابن عذارى (٨٨/١) ؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (٢٩٨/٥) ؛ وحسن عبدالوهاب ، **خلاصة تاريخ تونس** ، ٧٣ .

(٢) ابن عذارى ، (٨٨/١).

ولاية هرثمة بن أعين [١] :

لما قتل عبدالله بن الجارود أو ما يسمى بعبدويه الفضل بن روح بن حاتم أصبح هو الشخصية الأولى في إفريقية فأخذ يحيى بن خالد البرمكي [٢] يراسله ويتلطف معه حتى قدم إليه هرثمة بن أعين. وقبل أن يصل هرثمة إلى إفريقية قام بإرسال يحيى بن موسى الذي وصل إلى إفريقية في المحرم من عام ١٧٩هـ [٣] .

والتقى ابن الجارون الذي قال إنه لا يزال على الطاعة ثم تبع ذلك وصول هرثمة في شهر ربيع الأول عام ١٧٩هـ فقبض على ابن جاورد وأرسله إلى بغداد، وقد اختلفت الأقوال فيه فهناك من قال بأن يحيى بن خالد وفى إليه بما وعده به [٤] ، ومنهم من قال إنه اعتقل نتيجة أفعاله [٥] ، وقد كانت مدته من حين خروجه على

---

(١) كان قائداً مقداماً شجاعاً ومن أبرز قواد الرشيد حيث ولاه على مصر عام ١٧٨هـ ليصلح شأنها وبعد أن تم عزله ولاه إفريقية فأصلح شأنها وساس الناس بالعدل لكنه لما رأى سوء طاعة أهلها طلب من الرشيد أن يعفيه فتم عزله بناءً على طلبه وهو باني القصر الكبير المعروف بالمنستير وسور أطرابلس. انظر : الرقيق ، (١٦٨) وابن عذاري (١- ٨٩) ، وابن تغري بردي (١١٢/٢)، والزركلي (٨١/٨).

(٢) أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد ، وكان جده برمك من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، وقد استوزر السفاح أباه خالد بن برمك ، أما يحيى فإنه كان في النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال وكان المهدي بن أبي جعفر المنصور قد ضم إليه ولده هارون الرشيد، وحمله في حجره، فلما استخلف هارون عرف له حقه وقال له يا ابت اجلستني في هذا المجلس ببركتك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر، ودفع له خاتمه، وكان يعظمه وإذا ذكره قال: "أبي" وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وخلده في الحبس إلى أن مات فيه وقتل ابنه جعفراً. انظر: ابن خلكان (٣١١/٣) ، والزركلي (١٤٤/٨).

(٣) ابن تغري بردي ، (١١٢/٢) ، والزركلي (٨١/٨).

(٤) الطبري (٦٣٧/٤).

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٣٠٠/٥) ومحمود إسماعيل عبدالرازق، الأغالبة وسياستهم =

الفضل بن روح إلى أن قبض عليه سبعة أشهر، أما هرثمة بن أعين فإنه بدأ بالإصلاحات ومن ذلك، بناء سور أطرابلس وبناء قصر المنستير[(١)] .

إلى هنا أكون قد وصلت إلى صلب موضوعي الأساسي ، ألا وهو بناء الأربطة والقصور، وكان هذا السرد التاريخي الذي تقدم إنما هو لتبيان حالة إفريقية السياسية والاجتماعية إضافة إلى أن هذا السرد يستشف من خلاله بعض الأسباب غير المباشرة لبناء الأربطة، والتي تتمثل إجمالاً في الفوضى الأمنية وعدم الاستقرار، إضافة إلى أسباب أخرى غير مباشرة سأتعرض عليها في المبحث القادم بإذن الله .

=

الخارجية، مكتبة سعيد رأفت، د.ط، القاهرة، ١٩٧٢م، (١٥) .

(١) ابن تغري بردي ، (٦٣٧/٤) ؛ وابن عذارى ، (٨٩/١).

أسباب بناء الأربطة

أسباب بناء الأربطة:

لقد حث الإسلام على المرابطة في سبيل الله، وقد جاء ذلك الحث في القرآن الكريم تارة وفي أحاديث الرسول ﷺ تارة أخرى، ففي القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

أما في الأحاديث فقد قال رسول الله ﷺ: "رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" رواه البخاري [(٣)].

وعنه ﷺ قال: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفُتَّان" (رواه مسلم) [(٤)].

وعنه ﷺ قال: "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت

---

(١) سورة [الأنفال: ٦٠].

(٢) سورة [آل عمران: ٢٠٠].

(٣) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ٥١٩، كتاب الجهاد، باب فضل الرباط، الحديث رقم (٢٨٩٢).

(٤) مسلم النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٨٥٣، كتاب الإمارة باب فضل الرباط، الحديث رقم (١٩١٣).

تحرس في سبيل الله" رواه الترمذي [١] .

وعنه ﷺ قال : "رباط يوم في سبيل الله أفضل وربما قال خيرٌ من صيام شهر وقيامه ومن مات فيه وقي فتنة القبر، ونُمي له عمله إلى يوم القيامة" (رواه الترمذي)[٢] .

وعنه ﷺ قال : "رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل" (رواه النسائي) [٣] وعنه ﷺ قال : "كل الميت يختم على عمله، إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتَّان القبر" (رواه أبو داود) [٤] .

فمن خلال هذه الآيات والأحاديث تتبين لنا أهمية المرابطة، مما جعل المسلمين يهتمون بها ، ويحرصون على الانخراط فيها ، فهذا هو السبب الأول في إنشاء الأربطة والإقامة فيها، أما ثاني تلك الأسباب فهي الغيرة على الدين والاهتمام بأمور البر والتقوى، فإنه إذا قام أحد السلاطين، ورجال الدين أو الأغنياء بتأسيس رباط أو بترميم حصن قد عفا عليه الزمن ، فإن الآخرين تصيبهم غيرة محمودة فيتسابقون إلى بناء الأربطة أو إعادة حصن كان قد تهدم [٥] ، أما السبب الثالث لبناء الأربطة فهي أن تكون تلك الأربطة بمثابة نقط دفاع ومراقبة لأساطيل الروم [٦] ، والسبب الرابع

---

(١) الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى، بيروت (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ٥٠١ ، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ، الحديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) الترمذي، باب ما جاء في قضل الحرس في سبيل الله، الحديث رقم (١٦٦٨) ٥٠٧ .

(٣) النسائي ، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن دينار، سنن النسائي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. ٤٦٢ ، كتاب الجهاد، الحديث رقم (٣١١٩).

(٤) أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود ، دار ابن حزم الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ٣٨٥ ، كتاب الجهاد ، باب في فضل الرباط الحديث رقم ٢٥٠٠ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية المجلد العاشر ٢٠ (مادة رباط).

(٦) محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة في تاريخ المسلمين، مطبعة الإسكندرية =

لبناء الأربطة أن تكون عبارة عن ثكنات عسكرية تقيم فيها الجيوش الإسلامية حيث تكون تلك الجيوش دائماً في حالة تأهب فإذا أُريد منها أن تنطلق إلى مكان معين لا تأخذ وقتاً طويلاً فهي في حالة استعداد دائم [١] ، أما السبب الخامس فهو ما ذكره عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - في كتاب ملحق المدونة الكبرى[٢] ، حيث يرى أن الجهاد عكس المرابطة ، فالجهاد قد شرع من أجل الاستشهاد في سبيل الله وبالطبع سيتبع ذلك إراقة دماء المسلمين، أما إقامة الأربطة فقد شرعت لحقن دمائهم. قد تكون هذه الأسباب من أبرز الأسباب المباشرة لإنشاء الأربطة ، أما الأسباب غير المباشرة فسآتي بها لاحقاً بإذن الله .

نشأة الأربطة :

لقد سبق أهل المشرق نظراءهم في المغرب في بناء الأربطة، وذلك تمشياً مع حركة الفتوح الإسلامية فأقام المشارقة الأربطة في المواقع المتقدمة للدفاع عن الدولة ، ولم يقتصر بناؤها على المناطق الساحلية في بلاد الشام ومصر وساحل فارس (إيران حالياً) المطل على الخليج بل بنيت على كل الحدود بصورة عامة، فكان هناك عدد كبير منها في الثغور الشامية الداخلية المواجهة للبيزنطيين، كأرض الجزيرة [٣] شمال

=

١٩٦٨م ، ٤٤ ، مطبوعات العيد الماسي لجمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية .

(١) بلبع ، ٤٤ .

(٢) ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد ، ملحق المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس ، رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن الإمام عبدالرحمن بن قاسم ، دار الكتب العلمية ، بيروت(٥/١٩١).

(٣) أرض الجزيرة : هي ما بين دجلة والفرات وتشمل على ديار ربيعة ومضر ، ومخرج الفرات من داخل بلاد الروم ، ومن مدنها الرقة والرافقة والخانوقة وباجروان والأنبار وسورا والكوفة والموصل وغيرها . ويروي ياقوت الحموي أن اسمها في الأساس جزيرة أقور . انظر : الإدريسي ، (٢/٦٥٤- ٦٥٥) ؛ وياقوت ، (٢/١٣٤) ؛ وأبو الفداء ، ١٨.

العراق وفي منطقة خراسان [١] ، وغيرها من البلاد التي في مواجهة العدو [٢] .

وكانت تلك الأربطة كنظيراتها في المغرب تحتوي على الفناء المركزي الذي تنفتح عليه جميع عناصر العمارة سواء كانت مجرد حجرات، أو مجموعات من المحال المرتبطة ببعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وقد يوجد في المشرق قلاع مختلفة عما في المغرب مثل التي في العراق، وهي عبارة عن عدة مباني يحتوي كل مبنى منها على فناء خاص به [٣] .

---

(١) خراسان : بلاد واسعة وحدودها مما يلي العراق ، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو من أطرافها وتشتمل على مدن منها نيسابور وهراة ومرو، وبلخ ، وطالقان ونسا وابيورد وسرخس ، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحاً وذلك سنة ٣١هـ في أيام عثمان ﷺ ، وقد اختلف في تسميتها فمنهم من ينسبها إلى خراسان بن نوح عليهما السلام وقيل خُر اسم للشمس بالفارسية وأسان كأنه أصل الشيء ومكانه، وقيل معناه كل سهلاً لان معنى خر كل وأسان سهل . انظر: ياقوت (٢/٣٥٠) . وأبو الفداء ، ٤٤١ ؛ والحميري ، ٢١٤ .

(٢) بلبع، ٢٩ .

(٣) علي الصادق حسنين، المعمار الإسلامي في ليبيا ، دار الجيل ، الطبعة الأولى بيروت ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ١٠٣ .

موقف الفقهاء من الرباط:

بعد أن قمت بتعريف الرباط وما يندرج تحت مفهومه من الاستحكامات العسكرية ، أرى أنه من المناسب ذكر موقف الفقهاء من الرباط ، فإن الفقهاء عموماً يرون أن الرباط هو إقامة المجاهدين على الحدود وفي ثغور البلاد ومداخلها لحراستها والدفاع عنها ، وهم أثناء ذلك يقومون بربط خيولهم وخدمتها أو يسمون بالمرابطين ، وهذا الرباط فرض كفاية إذا قام به البعض وكفوا سقط عن الباقين فرضاً [(١)] .

وقد انتشرت الأربطة على جميع الشواطي الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، فمن الزاوية الشمالية الشرقية من هذا البحر حيث الإسكندرية حتى مدينة الصويرة (التي تسمى اليوم) موغادور [(٢)] على شاطئ بحر الظلمات (الأطلسي اليوم) يعتقد أن المسلمين أنشأوا ألف مدينة مما كان يسمى (الرباط) ، وذلك بمعدل رباط واحد كل ستة كيلومترات ، وما تزال بعض هذه المدن تحمل اسم "الرباط" حتى اليوم ومنها "الرباط" عاصمة المملكة المغربية [(٣)] .

ومن أدلة كثرة الأربطة والحصون أن الخبر كان يصل من سبتة إلى الإسكندرية أو العكس خلال ساعة كما ذكرت آنفاً ومع أن هذا الكلام فيه شيء من المبالغة إلا أننا نستأنس به حيث نعتبره دليلاً على كثرة الأربطة وانتشارها [(٤)] .

أما الخبر الذي يبدو أكثر دقة هو ما نجده في كتاب المعجب في تلخيص أخبار

---

(١) أحمد الشرباصي ، ٤٣٩.

(٢) هي مدينة على ساحل المحيط الأطلسي مشهورة بحصونها المنيعة وقد استفاد المستعمرون من تلك الحصون حيث نصبوا مدافعهم عليها.

(٣) العميد ، ١٢٤ .

(٤) دائرة المعارف ، المجلد العاشر ، ٢٠ (مادة رباط) .

المغـرب [1] ، وهـو أن الخـبر كـان يـصل مـن طـرابلس إلى الإسـكندرية خـلال ثـلاث ساعات.

وذلك عن طريق المنارات[2] الـتي كانـت تُنشأ في الأربطـة والقـصور والحـصون من أجل ذلك الغرض ألا وهو إرسال الإشارات .

---

(١) المراكشي ، ٢٨٢.

(٢) المنارات : جمع منارة (والأصل مَنْوَرة) موضع النور ومنه منارة المراكب والمسرجة ، والمئذنة ، ويجمع كذلك على مناور ومنائر، والمنار موضع النور، ومحجة الطريق وما يوضع بـين الـشيئين مـن الحـدود، وذو المنار أبرهة تبع بن الرائش هو أول من ضرب المنار على طريقـه في مغازيـه ليهتـدي بهـا إذا رجـع . انظر: البستاني ، (باب الميم فصل الراء) .

أوجه الشبه والاختلاف بين الأربطة عند المسلمين والأديرة عند النصارى :

تعريف الدير :

الدير عند النصارى هو سكن الرهبان والراهبات، وجمعه أديار وديارات وديورة وأديرة ويقال لمن يرأس الدير ديَّار أو ديراني، وقد يقال إن الياء في كلمة دير أصلها الواو، ولكن بالنظر إلى جمع التكسير وهو أديرة يترجح فيه أصالة الياء ؛ لأن جمع التكسير يرد الأشياء إلى أصلها [١] .

وتعني الرهبانية أن يعيش الشخص منعزلاً من أجل الانقطاع للعبادة، أي العيش منفرداً من أجل الزهد والتنسك ، وإذا اجتمع الرهبان والراهبات في مكان واحد فإن ذلك المكان يطلق عليه دير، حيث يمارسون عباداتهم منعزلين عن الناس بعيداً عن المدن العامرة، حيث لا يكون لديهم مما يقيم حياتهم سوى المقومات الأساسية للحياة وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾[٢] .

نشأة الرهبنة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمصر حيث أقام الرهبان في كهوف منقورة في الجبال و صوامع من القصب، وقد كانت لطبيعة مصر بما تضمه من الخرائب والأماكن الأثرية وقرب الصحراء أثراً كبيراً في نشأة ذلك اللون من التنسك الذي لم يعرفه الغرب المسيحي حتى القرن السادس الميلادي .

وقد يكون للرهبنة أسباب منها الزهد في ملاذ الدنيا ومباهجها، وحب تطبيق العبادات بعيداً عن عامة الناس ، واحتجاجاً على الأباطرة، وهرباً من تنكيلهم حيث

---

(١) ابن منظور ، (باب الراء فصل الدال) ؛ والبستاني، (باب الدال فصل الراء).

(٢) سورة [الحديد : ٢٧].

يريد أولئك الأباطرة من أولئك العباد التخلي عن دينهم، في الوقت الذي يرى فيه الرهبان أن تطبيقهم لتعاليم السيد المسيح - وذلك على حد زعمهم - سيجعل لهم مكانة في السماء ومهابة في الأرض [١] .

فمن هنا يتبين أن هناك أوجه شبه وأوجه اختلاف بين الأربطة والأديرة وهي كالتالي ، فمن أوجه الشبه :

١ - وجود متعبدين في الأربطة والأديرة .

٢ - بعد تلك الحصون سواء كانت أربطة أو أديرة عن المناطق المأهولة .

٣ - ضخامة البناء وقوته .

٤ - اعتماد ساكني الأربطة والأديرة على ما يسد رمقهم ويقيم صلبهم دون الاكتراث بمباهج الدنيا وزخارفها.

٥ - وجود قائد لكل من الأربطة والأديرة يقوم على إدارة المكان وتنظيمه وتعليم من فيه بواجباتهم الدينية ففي الرباط يسمى شيخ الرباط أو متولي الرباط أما في الدير فيسمى ديراني .

٦ - التأثير على العامة من قبل الرباط وأهل الدير .

فإذا دققنا النظر في أوجه الشبه بين الرباط والدير فإننا نجد التأثير واضحاً على الحياة عموماً من قبل هاتين المؤسستين، وبما أن الفصلين الثاني والثالث من الرسالة سيكونان مخصصين عن الحديث حول تأثير الرباط على الحياة السياسية والحضارية فإنه من المناسب ذكر التأثير من قبل الدير وأهله على حياة الناس في أوربا ، فإن الحياة الديرية قد تركت أثراً عظيماً في جميع مجالات الحياة في أوربا في ذلك الوقت وأسهمت إسهاماً كبيراً في الحياة الدينية والروحية في كل أنحاء أوربا - فقد شارك

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، ١٨٥.

الديريون مشاركة هامة في عملية البناء والإنتاج التي حافظت على كيان الحضارة الأوربية بعد غزوات البرابرة منذ القرن الخامس وبذلوا جهوداً مضنية في صيانة تلك الحضارة في العصر المظلم الذي تبع انهيار إمبراطورية شارلمان ، والكوارث التي نزلت بغرب أوربا في القرن التاسع - والدليل على ذلك أن هجمات الفيكنج الوثنيين في القرن التاسع الميلادي تركزت على الأديرة والكنائس في غرب أوربا للقضاء على ما كانت تمثله هذه المؤسسات وما كانت تنهض به من أعباء كما مهد الديريون لنهضة حضارية تمتع بها غرب أوربا في القرن الثاني عشر حين غدت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد في المجتمع الغربي ، وأضحت مركز الإشعاع الفكري والعلمي والمراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة فضلاً عن الفنون فيما بين القرن الخامس ونهاية القرن الحادي عشر الميلادي حتى يمكن القول إنه لولا نشاط الأديرة ودورها الإيجابي في ذلك لتناقص التراث الثقافي الذي خلفته أوربا في العصور الوسطى إلى حد كبير[1] .

أما أوجه الاختلاف فيمكن حصرها في التالي :

١ - إن أهل الرباط إضافة إلى طبيعتهم الدينية فهم يمارسون أعمالاً عسكرية دفاعية كانت أم هجومية ، أما ساكنو الدير فهم عباد فقط فإذا تركوا الدير وانتقلوا إلى الحصن مارسوا النشاط العسكري فقط دون الاهتمام بالناحية الدينية ، فهم بذلك على النقيض من سكان الأربطة الذين يجمعون بين الناحية الدينية والعسكرية في آن واحد .

٢ - إن الأديرة دائماً ما تكون تابعة للكنيسة التي أنشأتها فلا تصدر أي قرار إلا بالرجوع إليها على العكس من الأربطة فهي مستقلة عن الدولة حتى وإن كانت

(١) النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، ٢٢٠- ٢٢١ .

الدولة هي المنشئة لها بل إنه في أحيان كثيرة كانت تلك الأربطة أداة ضغط على الدولة وملاذاً للناس يلجأون إليه إذا ألم بهم أمر سيء وكانت الدولة هي السبب فيه [(١)] - وإنه من خلال تتبع الفصل الثاني ستأتي أمثلة تدل على ما ذهبت إليه - .

---

(١) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، جدة ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، (١٨٣/١).

الأربطة والقصور والمحارس في إفريقية :

مدن الرباط :

بعد أن ذكرت التعريفات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الرباط وما يندرج تحت ذلك من استحكامات عسكرية ، وأوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الدير النصراني. فسأبدأ بذكر المدن التي هي في الأساس أنشئت أو تم تحصينها لتكون بمثابة الرباط وذلك لأن إفريقية حوت عدداً من المدن من ذلك الطراز كالقيروان والتي هي في حقيقتها ليست رباطاً مقصوراً على المجاهدين العباد فقط بل كان فيها من يسكنها خلاف الجند ولكنها هي ونظيراتها من المدن التي سيأتي ذكرها فيما بعد أصبحت تعد من الأربطة ، حيث اشتملت على المقومات التي يحتوي عليها الرباط وقد بدأت بالقيروان لأنها أولى المدن التي اتخذها المسلمون لتكون رباطاً حيث أسست القيروان ونظيراتها من المدن الساحلية نظراً لكون المسلمين في بداية أمرهم لم يكن لديهم بحرية مثل بحرية البيزنطية وإنهم حولوا المدن الساحلية إلى نقاط مراقبة للأسطول البيزنطي. وإنه لما غزا عقبة إفريقية في عام ٤٧هـ وجد الناس ينقضون إسلامهم بعد رفع السيف عنهم ، فأراد أن يقيم قاعدة تكون مقراً للجند الإسلامي ، فوقف بأصحابه الذين كانوا معه وقال لهم ("أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة يجعل بها عسكرٌ ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر" فأجاب الناس إلى ذلك واختط مدينة القيروان فقال له بعض أصحابه "قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين" فقال لهم "وإني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها غزاة البحر لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل ، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل فيخرج ، فيقيم غارته إلى نصف النهار فلا تدركها منها غارة أبدا ، فكان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير ، فأهلها مرابطون ومن كان على البحر فهم حرس لهم ، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر

وميتهم في الجنة) [١] .

ومن هذه الرواية يتضح لنا عدة أسباب كانت أساسية في تأسيس القيروان وهي على النحو التالي :

أولاً : العامل العسكري : إن عقبة أراد أن تكون القيروان قاعدة يلوذ بها الجيش الإسلامي إذا حلت به هزيمة لينظم صفوفه من جديد ، إضافة لذلك تكون منطلقاً للجيوش الإسلامية ومقراً لإمدادهم بالرجال والسلاح إذا ما أرادوا التوغل في المغربين الأوسط والأقصى ، حيث إن الجيوش كانت في الشام مثلاً إذا ابتعدت عن مواقع الإمداد كثيراً ما تنسحب أو تقبل بالهدنة مع العدو [٢] .

ثانياً : العامل الديني : لما كان البربر حديثي عهد بالإسلام فقد كان شأنهم في ذلك شأن غير المسلمين الذين لا يقتنعون بهذا الدين من أول وهلة باعتباره شيئاً جديداً عليهم فكان لا بد من أن يكون عندهم من يعلمهم الإسلام على أصوله الصحيحة ويفقههم فيه لذلك رأى عقبة بن نافع أن تكون القيروان مركزاً لتعليم الناس أصول الإسلام ، وإضافة إلى ذلك فإن المسلمين حريصون على تطبيق تعاليم دينهم ومن ذلك ما أُمروا به في أن يكونوا مرابطين وقد حققت لهم القيروان ذلك المطلب المهم[٣].

ثالثاً : العامل الاقتصادي : تقع القيروان على ملتقى الطرق التجارية مما حقق لها الازدهار الاقتصادي[٤]. فاستمرت القيروان تؤدي الغرض الذي أسست من أجله

---

(١) أبو العرب ، ٥٦ ، والمالكي ، (١١/١) ، والاستبصار ، ١١٣ ، وياقوت ، (٤- ٤٢٠) ، والحميري ، ٤٨٦.

(٢) مظفر، ٥٩ ؛ ونهلة شهاب ، ٨٠ .

(٣) مظفر ، ٥٩ ؛ ونهلة شهاب ، ٨١ .

(٤) عبدالحليم عويس ، صور وبطولات من حضارتنا الإسلامية ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ٦١ .

، وذلك في النصف الثاني من القرن الأول الهجري وحتى العام الرابع والأربعين بعد المئة ، حيث زادت أهمية القيروان وذلك بعد أن أحاط ابن الأشعث القيروان بسور عظيم له أبراج[١]. وقد بدأ في بنائه من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤هـ وانتهى منه سنة ١٤٦هـ، وبذلك أصبحت القيروان قلعة محصنة، وأخذت شكل الرباط الحقيقي حيث السور والأبراج ، والعباد والجنود[٢].

ولذلك السور أبواب كثيرة منها باب العرافين ، باب المئذنة، باب الصباغين ، باب سوق الخميس، باب الميضاء ، باب السماط ، باب اللحامين [٣] ، وقد استمر الولاة مهتمين بالقيروان ومنهم يزيد بن حاتم الذي قدم القيروان ورتب أسواقها، وجعل لأهل كل حرفة مكانهم الخاص بهم ، حتى لو قيل إنه هو الذي مصرها لم يكن ذلك بعيداً عن الصواب[٤] ، واستمر ذلك السور قائماً إلى عهد إبراهيم بن الأغلب ومن بعده [٥] ، ولما كانت ثورة منصور الطُنبذي[١] التي اشتعلت عام

(١) البرج : جمعه بروج وأبراج وأبرجة ، وهي أبنية محصنة تكون في أركان الحصون، وتكون مربعة أو دائرية حيث يقف فيها الجنود للمراقبة ، وقد تبنى الأبراج على السواحل وتكون بمثابة القلعة الصغيرة لاستكشاف القادم عن طريق البحر. انظر: ابن منظور، (باب الجيم فصل الباء) ؛ والبستاني ، (باب الباء فصل الجيم)؛ وقاجة ، ٢٢٤ ؛ ورزق ، ٣٤ .

(٢) دبوز، (٢٥/٣).

(٣) عبدالفتاح مقلد الغنيمي ، **موسوعة المغرب العربي**، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، (٢٢٢/١).

(٤) الرقيق ، ١١١ .

(٥) كان إبراهيم بن الأغلب فقيهاً ديناً عالماً شاعراً خطيباً، ذا رأي وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكائدها جريء الجنان طويل اللسان، حسن السيرة، ولم يل إفريقية أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ، ولا أحسن سياسة، ولا أرفق برعية، ولا أضبط بأمر وكان كثير الطلب للعلم والاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه الذي وهب له جلاجل أم زيادة الله ابنه . انظر: الرقيق ، ١٧٦ ؛ وابن الأبار ، (٩٣/١) ؛ والذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق : كامل الخراط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، بيروت ، (١٢٨/٩- ١٢٩).

٢٠٧هـ واستطاع من خلالها أن يسيطر على القيروان وقام بإعادة سور القيروان من جديد إلا أن زيادة الله الأول [٢] هدم السور الذي كان منصور الطنبذي وأتباعه قد أعادوا بناءه [٣] .

تونس : من المدن التي كانت تعتبر رباطاً للمسلمين تونس ، والتي كانت قرية صغيرة وصلها الفتح الإسلامي أثناء فترة الفتوحات، وكان اسمها قديماً ترشيش ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن اسمها كان بسبب وجود صومعة يعيش فيها أحد الرهبان وكان يقوم بالتراتيل داخلها فإذا سمع المسلمون ذلك الصوت قالوا هذه الصومعة تؤنس، فخففت الهمزة لتنطق تونس فيما بعد ، وبين تونس والقيروان مرحلتان ، وهي مدينة كانت ذات زروع كثيرة وغلات وفيرة[٤].

وبيوت تونس على قدر عظيم من العظمة حيث بُنيت بالرخام حتى قيل عن

=

(١) منصور بن نصر الجُشمي ، من هوازن من ولد دريد بن الصمة ، ويُعرف بالطنبذي من أجل كونه بقرية تعرف بطنبذة من إقليم المحمدية بجهة تونس ، كان والياً على طرابلس ، فلما قتل زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب عمرو بن معاوية السلمي وولديه الحباب وسكتان - ساء ذلك منصوراً وغمه، وجعله يثور على زيادة الله - كانت بداية ثورته عام ٢٠٩هـ واستمر كذلك حتى قتله عامر بن نافع . انظر : ابن الأبار ، (٢/٣٨٢).

(٢) زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، كان ذا فضل على أهل بيته وأفصحهم لساناً ، وكان يقول الشعر، ولم يذكر قبله أحد بهذا الاسم ، اعتنى به والده ، وكان لا يقدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء إلا أصحبهم ابنه زيادة الله وأمرهم بملازمته، وملك إفريقية ، وثار عليه ثوار بسبب سفكه الدماء وقد عين أميراً عل ى إفريقية حتى توفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين وله خمسون سنة ومدته إحدى وعشرين سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام .

انظر : الصفدي : (١٥/١٨ ، ١٩) ؛ والزركلي ، (٣/٥٦).

(٣) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ، تاريخ ابن خلدون ، اعتناء وتعليق : تركي فرحان المصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، (٤/٢٠١).

(٤) الإدريسي ، (١/٢٨٥) ، **والاستبصار** ، ١٢٠ ، والحميري ، ١٤٤.

بيوتها مثل وهو (بيوت تونس خارجها رخام وباطنها سخام)[1] ، وأهل تونس يشربون من الآبار ، وليس لهم مياه جارية ، إلا أن نهر مجردة كان يساعد أهل تونس حيث يزودهم بالماء إذا نقصت المياه في تلك الآبار [٢] ، وهي على بحيرة مالحة خارجة من البحر الرومي طولها عشرة أميال ، وتونس على آخرها [٣] .

أما العوامل التي جعلت حسان الغساني [٤] يؤسس مدينة تونس فهي متشابهة تقريباً بالعوامل التي جعلت عقبة بن نافع يؤسس القيروان وهي كالتالي :

أولاً : العامل الاستراتيجي : استغل باني مدينة تونس الخاصية الاستراتيجية للمكان وذلك بسبب وجود بحيرة طبيعية داخلة في اليابسة من البحر ، فأسس عليها مدينة تونس ودار الصناعة في منطقة حماية طبيعية من الأمواج ومن هجمات الأعداء حيث صار في الإمكان فيما بعد إقفال مدخل البحيرة بسلاسل حديدية تمنع أساطيل الأعداء من الوصول إليها وتبقى مركز مراقبة متقدم للمسلمين على البحر المتوسط.

ثانياً : العامل العسكري : كان المسلمون أقل خبرة من البيزنطيين في النواحي البحرية ، لذلك كان لابد من إقامة الأسوار الحصينة ، التي تمكن تونس من مواجهة الأعداء.

ثالثاً : العامل الديني : أراد الناس أن يكون لهم رباط آخر إلى جانب القيروان

(١) الاستبصار، ١٢٠ ، والحميري ، ١٤٣.

(٢) الإدريسي ، (٢٨٤/١) ؛ والاستبصار ، ١٢٠ ؛ والحميري ، (٢٨٥/١).

(٣) القلقشندي ، (١٠٢/٥).

(٤) حسان بن النعمان الغساني كان مقيماً بمصر لما قُتل زهير بن قيس ، فأمره عبدالملك بغزو إفريقية ، فخرج في أربعين ألفاً ، ولم يدخل أحد من الأمراء قبله إفريقية بمثل هذا الجيش ، فضيق على قرطاجنة إلى أن تغلب عليها ، ودخلها عنوة ، وغزا الكاهنة ملكة البربر فهزمته ، ثم عاد إلى غزوها فقتلها ، ثم بعث برأسها إلى عبدالملك ، فقدم على عبدالملك وهو مريض ، ثم لم يلبث أن توفي إثر ذلك.

انظر : ابن الأبار ، (٣٣١/٢- ٣٣٢) .

حيث يمارسون نشاطهم الديني والعسكري على حد سواء[١] .

طرابلس : لقد سبق الحديث عن طرابلس كما هو حال تونس، لكن إعادة ذكر هذه المدن من جديد إنما يأتي بسبب ما على طرابلس تلك المدينة الثلاثية من أسوار محصنة مبنية من الطوب والصخر[٢] . وذلك السور له أبواب مثل باب البحر ، وباب الشرق ، وباب الجوف ، وباب الغرب [٣] ، وبطرابلس رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب [٤] .

سفاقس أو صفاقص : هي مدينة على ساحل البحر عليها سور حصين من حجارة وأبواب عليها صفائح من حديد منيعة وعلى أسوارها محارس نفيسة للرباط[٥] ، وقد بُني ذلك السور في عهد بني الأغلب ، وفي كل جهة من جهات سور سفاقس تشاهد رباطات ومحارس كثيرة ، حيث تمتاز هذه الرباطات بهندسة معمارية نادرة وتخطيط بديع[٦].

قفصة : وهي مدينة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب، من عمل الزاب الكبير بالجريد، لها سور منيع ، وحول قفصة أكثر من مائتي قصر عامرة تعرف بقصور قفصة، ومن تلك القصور مدينة طراق [٧] ، وهي مدينة حصينة. لها سور من لبن عال جداً استمر قائماً إلى القرن السادس الهجري ، ثم خُرب [٨] .

---

(١) محمد الباجي بن مامي ، **جامع الزيتونة أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية** ، ٩٣ .

(٢) الإدريسي ، (١/٢٩٧- ٢٩٨) ؛ والحميري (٤/٢٥) ؛ والقلقشندي ، (٥/١٠٤).

(٣) المقدسي ، ٢٢٤ .

(٤) ياقوت ، (٤/٢٥).

(٥) ابن حوقل ، ٧١ ؛ والإدريسي ، (١/٢٨١).

(٦) العميد ، ١١٥ .

(٧) طراق مدينة كبيرة آهلة ذات زروع وبساتين ومن أشهر منتجاتها الكساء الطراقي ، انظر: البكري ، ٤٧.

(٨) ياقوت ، (٤/٣٨٣).

قابس : هي مدينة بأرض إفريقية بينها وبين البحر ثلاثة أميال[١] ، ومن الجغرافيين من قال إن بينها وبين البحر ستة أميال، وعلى قابس سور منيع يحيط به من خارجه خندق، مما يُصعِب المهمة على من أراد اقتحام هذه المدينة [٢] .

بنزرت : مدينة بإفريقية ، وهي مشرفة على البحر ، وبها قلاع [٣] تسمى قلاع بنزرت ، وهي حصون يأوي إليها أهل تلك الناحية، إذا خرج الروم غزاة إلى بلاد المسلمين، وفيها رباطات للصالحين أيضاً[٤].

مدينة الحمة : مدينة عليها سور عال كأعظم ما يكون يمشي عليه فارسان، وعليها باب من حديد، وقد حصنت المدينة وجعل في كل مصراع من الأبواب مائة قنطار ، ولها بابان بأربعة مصاريع لكل باب منها دهليز يسع خمسمائة فارس، ولها بابا حديد لا خشب فيهما كل باب وزنه ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبراً ، كل مسمار من مساميره يزن ستة أرطال [٥] .

هرقلة : من مدائن الساحل ، يوجد بها جامع عتيق يلاصقه رباط متسع وكلاهما مبني من الحجارة القوية ، والذي يبدو أنهما من المنشآت الأغلبية ، ومن أشهر من ينسب إليها (أبو زكريا الهرقلي) [٦]..

---

(١) البغدادي ، (١٠٥٤/٣).

(٢) ابن حوقل ، ٧٠ ؛ والإدريسي (٢٨٠/١).

(٣) القلاع أو القلع : ومفردها قلعة وهي الصخرة الكبيرة التي تنقلع عن الجبل، وهي في الوقت ذاته اسم للحصن الذي يبنى فوق الجبل وقد انتشر بناؤها في العصور الوسطى حيث تؤدي غرضين وهما المسكن والدفاع . انظر : ابن منظور ، (باب العين فصل القاف) ؛ والبستاني ، (باب القاف فصل العين) ؛ ومحمد شفيق غربال ، **الموسوعة العربية الميسرة** ، ١٣٩٢ .

(٤) ياقوت ، (٥٠٠/١) .

(٥) ابن حوقل ، ٧١ ؛ وياقوت (٢٣١/٥).

(٦) أبو زكريا الهرقلي طلب العلم وهو صغير ثم سكن الرباط ومارس شيئاً من فلاحة الأرض ، وهذا أكثر ما يعرف عن هذا العابد ، انظر : حسن حسني ، ورقات (١٠٨/٢).

جربـة : ويطلق عليها أيضاً كوريفة وجريسة ، وهي مدينة صغيرة بها حصن منيع كان جزءاً من عدة حصون خصصت للاحتماء من الهجمات القادمة من الغرب والجنوب ، وجربة جزيرة معروفة يربطها بالبر جسر بني في العهد الروماني (١) .

سبيبة : كانت قديماً تعرف باسم Sufes عند الرومان (٢) وتحتوي على قصر يمتد على طول ٤٥ متراً وعرض ٤٠ متراً ، ولا شك أن سبيبة حافظت على حيويتها الكاملة ووسائل دفاعها في القرن التاسع ، ويقال إن مدينة سبيبة أزلية مبنية بالصخر وبها جامع ... وسور من حجارة حصين ... وكانت تحتل موقعاً حربياً جيداً في ناحية يتعسر دخولها (٣) .

فَلس : بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصن بينهما واد جرار ، ... بناؤهما مدر وحصنهما طوب وبها قلعتان إحداهما قلعة شميت - هكذا وردت - والأخرى تقع على ضفاف الوادي ، والعلماء في تلك المدينة قليلون وغوغاؤها كثر(٤).

وبعد أن تناول الباحث ذكر المدن التي كانت هي ذاتها أربطة حيث بنيت تلك المدن من أجل ذلك الغرض، إضافة إلى كونها مدينة تضم جميع مناشط الحياة أذكر الآن الرباط بهيئته الحقيقية ليس فيه إلا عبادٌ ومجاهدون وقبله سأذكر الطريقة التي كان يبنى بها الرباط.

كيفية بناء الرباط :

كانت خطة الرباط من سورٍ حصينٍ يحيط به وتقوم فيه حجراتٌ للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرجٌ للإشارة وهذا التراث من العمارة الذي سنتناول تطوره

---

(١) ياقوت ، (١١٨/٢) ، والطالبي ، الدولة الأغلبية ، ٢٢٥.

(٢) البكري ، (١٩) ، والطالبي الدولة الأغلبية ، (٢١٣).

(٣) الاستبصار، ١٦١ ؛ الحميري ، ٣٠٤ ؛ الطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ٢١٤ .

(٤) المقدسي ، ٢٢٩ .

بالحديث بعد ، كان يقام على نطاق صغير في كثير من الأحيان فكان اقتصر في هذه الحالات على برجٍ للمراقبة وحصنٍ صغير أشبه بالحصون البيزنطية [(١)] التي كانت تشيد على الحدود وهذا هو العلة في كثرة عدد الرباطات التي ذكرها الجغرافيون.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، (١٩/١٠) (مادة حصن).

رباط المُنستِير:

لفظة "منستير" ليست عربية بل هي - في الأصل - شائعة الاستعمال في اللغة الإغريقية وأطلقت على الوحدة المعمارية المشتركة بين الدير والحصن، وكلمة منستير (Monastery) تعني سكن الرهبان المنقطعين وهي في اللاتينية (Monasterium) وفي الإغريق (Monazein) وهي مشتقة من (Monos) أي واحد أو منفرد وتعني عيش الإنسان بمفرده [1] وقد قيل إن كلمة "منستير" أطلقت - في إفريقية - قبل القرن الثاني للهجرة ، وقيل استعمال كلمة "رباط" في مدلولها العربي الخاص على الوحدة المعمارية المشتركة بين الدفاع والتعبد ، وإنهم أخذوها عن البيزنطيين الذين كانت لهم منشآت كبيرة على النحو المشترك بين الأديرة والحصون، وهو لذلك لا يستبعد أن تكون لفظة "منستير" شائعة الاستعمال في المشرق العربي بسواحل سوريا وفلسطين، إلا أننا لا نجد هذا الإطلاق - على بعض المواضع - إلا في المغرب الإسلامي وخاصة بإفريقية [٢] .

ولأهمية هذا الرباط فقد قام الوضاع بالإتيان بأحاديث لا صحة لها ولكنها في النهاية تساعدنا في معرفة ما للمنستير من أهمية وقدر في قلوب الناس، ومن تلك الأحاديث ما روي عن عبدالله بن عمر إنه قال: قال رسول الله ﷺ : (بساحل قمونية باب من أبواب الجنة يقال له "المنستير" من دخله فبرحمة الله ، ومن خرج منه فبعفو الله) [٣] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة قال أنس: بخ بخ يا رسول الله ! قال: نعم يا أنس وله في هذه الثلاثة

---

(١) المصدر: قاموس أنكارتا في الشبكة العنكبوتية العالمية. Msn Encarta Dictionary

(٢) أبو العرب (٤٤) ؛ وانظر : العروسي : محمد العروسي المطوي ، فضائل إفريقية في الآثار والأحاديث الموضوعة ، د.ط، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٤م ، (٤٤).

(٣) العروسي ، ٤٨ .

أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين). وقال رسول الله ﷺ : (المنستير باب من أبواب الجنة يقال له الأنف ودونه قنطرة من قناطر الأولين) [١] .

وقد احتفظت المنستير بتفوقها في مضمار الحراسة وحماية المنطقة ، وأن النبي قد تنبأ لها بذلك ، وكان الشهداء في القرن الثاني عشر تحمل رفاتهم من المهدية إلى هناك لتثوى عظامهم في هذه البقعة المباركة [٢] .

وقد قام بإنشاء هذا الرباط هرثمة بن أعين وقد اختلف في تحديد سنة البناء فهناك من قال إن إنشاءه كان سنة ١٧٩هـ [٣] ، ومن قال إنه كان في عام ١٨٠هـ [٤] ، والواضح أن هرثمة وجد ذلك الموقع . وكان قد بني من قبل ، حيث إن المنستير مدينة رومية قديمة ، إلا أن هرثمة أعاد بناءها ، وإصلاح ما تهدم من تحصيناتها لتكون مناسبة لسكنى المرابطين [٥] .

أما موقع المنستير ، فإنه بين "سوسة" [٦] و"المهدية" حيث يبعد عن كل واحدة من هاتين المدينتين مرحلة تقريباً [٧] .

الشكل الخارجي للمنستير:

يتكون المنستير من خمسة قصور يحيط بها سور واحد ، وإلى جانب تلك

---

(١) أبو العرب (٤٤) ؛ والعروسي ، ٤٩- ٥٠ .

(٢) ابن عذارى ، (٨٩/١) ؛ ودائرة المعارف ،(٢٠/١٠) (مادة رباط).

(٣) ابن عذارى ، (٨٩/١) ؛ ودائرة المعارف ، (٢٠/١٠) (مادة رباط).

(٤) الرقيق ، ١٦٨ ؛ وياقوت ، (٢١٠/٥) ؛ وبلبع ، ٤٤ .

(٥) الوزان ، ٤٥٦ .

(٦) سوسة : مدينة على ساحل البحر بإفريقية صغيرة المساحة ، وذات أسوار حصينة ، كان أهلها يعملون غالباً في حياكة الثياب وزارعة الأراضي ، وشربهم دائماً من المواجل التي تنتشر بالمدينة ، وينسب إليها كثير من المحدثين والفقهاء. انظر: ابن حوقل ، ٧٣ ؛ والإدريسي ، (٣٠٢/١) ؛ وياقوت ،(٢٨٢/٣) ؛ والقلقشندي ، (١٠٣/٥).

(٧) البغدادي ، (١٣١٩/٣) ؛ وياقوت (٢١٠/١).

القصور هناك المواجل والحمامات العامة ، ويوجد بالمنستير ملاحة تقوم المراكب بحمل منتوجها وبيعه ، إضافة إلى أنه يوجد بالمنستير حصن صغير يعتبر مزاراً للنساء المرابطات ، أما في الطبقة الثانية للقصور فأنه يوجد الشيخ الذي يقوم بتعليم الجنود ، وتفقيههم ولأهمية المنستير في نفوس أهل إفريقية ، فإنهم يقيمون كل عام محفلاً كبيراً وذلك في يوم عاشوراء[١] .

والمنستير شكله مربع تقريباً ، إذ يبلغ طوله (٣٢,٨٠م×٣٢,٤٠م) وله جدران سميكة يبلغ سمكه ١,٢٥م ، ويقف على تلك الجدران أربعة أبراج ، في شكل زاوية برج [٢] .

أشكال الأبراج :

للبرج أشكال عديدة أسطوانية فعلى سبيل المثال كان لقصر المشتى سور خارجي مربع الشكل محصن بأبراج دائرية أو نصف دائري كما ف قصر الحير الغربي ، ومضلع كالأبراج التي بناها الموحدون ، وهرمي كأبراج أربطة شمال إفريقيا ومن أقسامه : البرابخ والمنابل والشرفات التي توزع في أماكن مدروسة على الجدران والمقاذة المفتوحة على مستوى أرض الممرات ومخازن المؤن وصهريج الماء أو البئر ومستودعات السلاح وأدوات الحرب والدفاع[٣] .

وفوق أحد الأبراج يأتي المنار ، وهو منار أسطواني الشكل بتناقص قطره كلما ارتفع إلى الأعلى ، إذ يكون قطره عند القاعدة (٦,٣٧م) وينتهي عند الشرفات إلى (٤,٥٨م) ، وارتفاعه (١٦,٣٥م) عدا القاعدة المربعة ، ... ويصعد إلى المنار من مدخل يفتح على المسجد ويؤدي إلى سلم دائري يشتمل على (٨٩) مرقاة ، وتتسرب إليه الإضاءة من كوى صغيرة موزعة على ارتفاعات متباعدة ، وهذا الطراز الدائري

(١) البغدادي ، (١٣١٩/٣) ؛ وياقوت ، (٢١٠/٥) ؛ وبلبع ، ٤٥ .
(٢) العميد ، ١٣٣ .
(٣) قاجه ، ٢٢٤ .

الذي ابتدأ من قصر هرثمة قد اختصت به الأربطة في حين استمر استخدام المنارة المربعة الشكل في المغرب وإفريقية والأندلس [١] .

الشكل الداخلي للمنستير :

للمنستير مدخلان ، جنوبي وغربي ، فالداخل من أحدهما سيقف في ساحة كبيرة تحيط به الغرف التي هي عبارة عن مخازن ربما أنها تستخدم إما لخزن الاسلحة أو خزن الطعام ، وتلك الغرف ذات طابقين أو ثلاثة وكلها تفتح على الساحة ، والغرف تقع في ثلاث جهات ، شمالية وشرقية وغربية ، أما الناحية الجنوبية ففيها مسجدان ، في كل طابق من بالطابقين مسجد ، ويُصعد إلى الطابق الثاني عن طريق درج داخلي خلاف الدرج الذي في المنار [٢] .

---

(١) العميد ، ١٣٤ .

(٢) نقولا زيادة ، إفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي ، رياض الريس للكتب والنشر ، الطبعة الأولى ، لندن ، ١٩٩١م ، (١٩٣) .

رباط سوسة :

سوسة مدينة صغيرة بنواحي إفريقية، اشتهر أهلها بنسج الثياب ، وقد خرج منها محدثون وفقهاء، وكان عليها سور حصين فيه ثمانية أبواب والبحر يحيط بها من ثلاث جهات عدا الجهة الغربية [١] .

أسباب بناء رباط سوسة :

كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، من جهة والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزاً على عناية الأغالبة بتحصين هذه السواحل ، وذلك بإقامة المحارس والأربطة، وقد لعبت الأربطة دوراً هاماً في الحياة الدينية والحربية ببلاد إفريقية، وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلاً للنذير باقتراب سفن العدو وعن طريق هذه الإشارة تستعد المحارس والأربطة المجاورة لملاقاة العدو بحراً وبراً، ولذلك كثر عدد الأربطة على السواحل التونسية، ورباط سوسة المعروف بقصر الرباط من أهم الأربطة التي أقيمت في عصر الأغالبة [٢] .

وإضافة إلى ما سقناه من أسباب بناء رباط سوسة فإن الموقع الاستراتيجي الذي يتميز بالحصانة والمتانة كان من أهم الأسباب التي جعلت الأغالبة يختارون ذلك الموقع ليقيموا عليها قصر الرباط [٣] ، وتشير المصادر إلى أن زيادة الله الأول هو باني ذلك الرباط في عام ٢٠٦هـ /٨٢١م على يد خادمه مسرور[٤] ، وهناك نقش يشير إلى ذلك الأمر ونصه "بركة من الله مما أمر به الأمير زيادة الله ، أطال الله بقاءه على مسرور سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين" [٥] .

---

(١) ياقوت ، (٣/٢٨٢).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم ، (٢/٤٤٩).

(٣) العميد ، ١٢٧ .

(٤) المالكي ، (١/٣٩٨) ؛ والنويري ، (٢٤/١١٥).

(٥) العميد ، ١٢٧ .

الشكل الخارجي لرباط سوسة :

رباط سوسة بناء حصين مربع الشكل يبلغ طوله ٣٩ متراً يدعم جدرانه ثمانية أبراج ، أربعة منها في منتصف كل ضلع من أضلاعه والأربعة الأخرى في زواياه الأربعة ، وقطاع ستة من هذه الأبراج ثلاثة أرباع الدائرة ، والبرجان الآخران فإنهما قائما الزاوية ، وهما برج المدخل ، والبرج الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية [١] .

---

(١) العميد ، ١٢٧ .

التخطيط الداخلي لرباط سوسة :

مدخل الرباط:

يقع مدخل الرباط في الضلع الجنوبي وهو المدخل الوحيد له، ويأخذ هذا المدخل شكل برج بارز عن وجه السور بنحو (٣,١٧متراً) وقد أضيفت له زيادة بنائية يبلغ امتدادها (٣,٧٠متراً) في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م وتفسير هذه الزيادة ترجع إلى ارتفاع مستوى الشارع عن أرضية الرباط نحو (٢,٨٠متراً) وكان مدخل الرباط في الأصل (٧) درجات فأضيفت إليه (٧) درجات أخرى فأصبح السلم الذي يؤدي إلى الداخل يتألف من (١٤) درجة .

ويحمي مدخل الرباط بواسطة برجي الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، كما أن مدخل الرباط مزود بسقاطة ، والتي تعد عنصراً دفاعياً ، وتقع تحت القبة التي تتوج المدخل والسقاطة هنا على هيئة ثلاثة شقوق طويلة تستند على أربعة عقود ، والسقاطة عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض، وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب يمكن أن تصوب السهام فيه إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون إحداث ثغرة في السور أو الجدار، كما يمكن أن يصب على رؤوسهم الزيت أو الماء المغلي ، وتدعى السقاطة لدى بعض الباحثين بالمشربية [١] .

أما من داخل هذا الرباط فإن هناك صحن مستطيل تقريباً إذ تبلغ أبعاده عشرين متراً من الشرق إلى الغرب وتسعة عشر متراً من الشمال إلى الجنوب، وفي كل جهة من الجهات الأصلية ثمان غرف صغيرة ، أما في الجهات الفرعية فتوجد في كل منها أربع غرف وبهذا فإن مجموع الغرف (ثمانين وأربعون) [٢] غرفة في الطابق السفلي .

وقد اتخذت إحدى هذه الغرف في المجنبة الجنوبية، وهي الغرف المواجهة

---

(١) العميد ، ١٢٨ .

(٢) بلبع ، ٤٩ . ودائرة المعارف الإسلامية (٢٢٠/١٠) (مادة رباط) .

لباب الممر يؤدي إلى الصحن. وتتقدم هذه المجنبات ممرات مسقوفة أو أروقة ، يطل الرواقان الشرقي والغربي منها على الصحن بخمس عقود نصف دائرية تحملها ست دعائم ، بينما يرتفع عدد هذه العقود إلى ست في الرواق الشمالي ، أما في الجهة الجنوبية فيتقدم المجنبة التي تحوي الغرف رواقان [(١)] .

أما الطابق العلوي فهو تقريباً نسخة من الطابق الأسفل ، فالغرف تأتي تماماً فوق الغرف السفلية وهي خالية من النوافذ ، إلا أن الأروقة المسقوفة في الطابق الأسفل خلت من أسقفها في الطابق العلوي [(٢)] .

مسجد الرباط :

يقع المسجد في الجهة الجنوبية من الطابق العلوي ، ويبلغ طوله تسعة أمتار وعرضه سبعة أمتار وقد جُعل له خمسة أبواب ، وجُعل أمام تلك الأبواب فتحات للإضاءة ، وللمسجد اسكوبان (أي ممران) يفصل بينهما صف من العقود ، ويلاحظ أن ممر المحراب أكثر اتساعاً من الممر الثاني وتحمل هذين الممرين عشر دعائم تكون ما عدده أحد عشر بلاطاً . أما المحراب فتعلوه قبة بارزة إلى الخارج تزيد في جمال هذا المصلى [(٣)] .

منار الرباط :

يقع هذا المنار في الركن الجنوبي الشرقي فوق قاعدة تعلو السطح بمقدار ٧٥ سم ويتألف من قسمين ، سفلي ويؤلف قاعدة المنار وهو على هيئة مربع ، والقسم العلوي يمثل البرج الأسطواني ، وينتهي المنار ببرج صغير مربع الشكل ذو نهاية مخروطية [(٤)] .

---

(١) بلبع ، ٤٩ .

(٢) بلبع ، ٤٩ .

(٣) بلبع ، ٤٩ . والعميد ١٣٠ .

(٤) العميد ، ١٣١ .

قصر أبي الجعد :

سبب بنائه :

جاء ابن الجعد [1] إلى المنستير ، وكان في نيته أن يبني قصراً يكون لسكنى المرابطين فأخبر رجلاً يدعى مكرم [2] بنيته في بناء ذلك القصر بجزيرة المنستير - هكذا وردت - فأخبره مكرم أنه في إحدى الليالي رأى فارساً بيده حربة فسأله عن مراده فقال : إني ماضٍ إلى جزيرة ابن الجعد فإن كنت راغباً في بناء قصر فاجعله هناك [3]. فوافقه ابن الجعد على ذلك الرأي وبدأ في إعطاء الأموال لأبي عبدالله محمد بن عبادة السوسي [4] الذي كان هو القيم على بناء هذا القصر .

والذي يتضح أن بناء هذا القصر كان بالقرب من قصر المنستير .

مراحل البناء :

ما كاد يفرغ من بناء الطابق السفلي حتى اتخذ المرابطون منه مسكناً، ثم أخذ في بناء الدور الثاني فالسطح والأبراج للطبقة الثالثة ، وكان البناة قد أخطأوا بإضافة قوسين لم يكن ابن الجعد قد أمر ببنائهما مما تسبب في فناء المال قبل إتمام القصر فانبرى أناس لإتمام العمل لكن ابن الجعد كان رافضاً في أن يشاركه أحد في عملية الإنفاق، حيث إن ابن عبادة حينما ذهب إلى ابن الجعد أدخل المسرة في قلبه بإخباره أنه قد ختم في الليلة الماضية القرآن ثمانية وأربعون رجلاً في مسجد

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي توفرت لدي .

(٢) مكرم المتعبد بالمنستير رضي الله عنه ، كان فاضلاً ورعاً ، وكان سكناه بالقصر الكبير وبه قبره على ساحل البحر ، وبرجه معروف به إلى الآن بالقصر الكبير . انظر : المالكي ، (١/٤٢٠) .

(٣) المالكي ، (١/٤٢٠) .

(٤) هو : أبو عبدالله محمد بن عبادة السوسي ، وهو من الصالحين ، سمع من هشام بن عمار وأبي المصعب وكان هو القيم في بناء قصر أبي الجعد ومتولي الإنفاق فيه ، انظر : المالكي (٢/١١٦).

القصر ، ثم أخبره بنفاذ النفقة فدخل ابن الجعد إلى داره وغاب ساعة حتى سُمع صوت البكاء من داخل الدار، ثم عاد ومعه حلي نسائه فدفعها لابن عبادة الذي سأله بدوره عن سبب ما قام به ، فأخبره أنه هو من اشتراها وقد استمتعوا بها زمناً ولن يؤثرهم على نفسه وأنه متى جاءت الغلات سيشتري لهم مثلها، فأتم ابن عبادة البناء بثمن تلك الحلي [١] .

من خيرات القصر :

لقد أجرى الله تعالى لقصر ابن الجعد نعماً نستشفها من حديث دار بين رجلين كلاهما من العباد غير أن أحدهما يسكن بيتاً مستقلاً والآخر يقيم في القصر، فالمقيم بالقصر يسأل ذلك الرجل إن كان يملك غلاماً يخدمه فأجابه بنعم فقال الساكن بالقصر إن لدينا غلاماً يقف بالباب دون أن ندفع له أجرة ، ثم سأله إذا كان عنده مرحاض يوقد فيه القنديل، فأجابه بأنه يوقده وقت الحاجة فقال المقيم بالقصر: أن عندهم سبعة مراحيض وقناديلها موقدة طوال الليل ، ثم سأله إن كان عنده بئر وعن حبلها ودلوها ، وهل هو يغيرها من فترة وأخرى فأجابه أن نعم ، فقال له المقيم بالقصر : أما بئرنا فلا تحتاج لشيء من ذلك. وكانت تلك الأسئلة لتبيان ما أنعم الله به المرابطين بقصر ابن الجعد [٢] .

قصر الطوب :

تكتب الكلمة بالطاء المضمومة والباء المسكنة، وهو الآجر عند أهل مصر[٣] ، وقد بناه الأمير الأغلبي أبو العباس محمد بن الأغلب[٤] سنة ٢٤٠هـ /٨٥٤م ،

---

(١) المالكي ، (١١٦/٢).

(٢) المالكي ، (٤٦٥/٢).

(٣) البغدادي ، (١٠٩٧/٣).

(٤) محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أبو العباس ، ولي بعد أبيه أبي عقال في آخر شهر ربيع الآخر =

وهو اليوم مجاور للمكان الذي يطلق عليه سيدي عبدالحميد وهو عبدالحميد بن محمد الصائغ المتوفى بتونس عام ٤٨٦هـ/١٠٩٣م .

أما سبب بنائه فهو أن الأمير أبا العباس أراده أن يكون مكاناً للمرابطين العباد ، أما تخطيطه الداخلي فإن للقصر باب حديدي ، وبداخل القصر صحن وماجل [١] لخزن مياه الأمطار ، وكانت هناك غرف أعدت لسكنى المرابطين إضافة إلى مسجد صغير، وبرج مرتفع يكشف على البحر للمراقبة لم يسقط إلا في الزمن الحالي، وبجانب القصر مقبرة لدفن أولئك الصالحين ثم أصبح أهل سوسه يدفنون فيها موتاهم تبركاً بالراقدين فيها [٢] .

قصر الطياطر :

من بقايا بنيان الروم المشهور - والذي يبدو أنه كان مسرحاً رومياً إذ إن الكلمة تعني المسرح وأصلها Heatron الإغريقية من الفعل Theasthai كلمة theater, or, theatre ، جاءت من الفرنسية القديمة واللاتينية من الأصل الإغريقي Theatron ومن فعل Theasthai أي يشاهد [٣] وهذه المباني ليس لها نظير في مباني الأرض قدرة واستطاعة ، وذلك أن الطياطر هي بناء في استدارة وهي نحو من

=

سنة ست وعشرين ومائتين، وتوفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة فكانت ولايته خمس عشر سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً. وكان كوسجاً : كان وجهه وجه خَصيٍ ليس فيه إلا شعرات يسيرة عقيماً لا يولد له، موصوفاً بحلم وجود وحاربه أخوه فظفر به وأخرجه إلى المشرق، وكانت في أيامه حروب كثيرة . انظر : ابن الأبار (١٦٩/١) .

(١) هو الجلد الذي أصابته نار فامتلأ ماءاً فإذا بزغ خرج منه الماء ومن هنا قيل لمستنقع الماء ماجل ، وقيل الماجل الماء الكثير المجتمع ، انظر : ابن منظور (٦١/١١).

(٢) حسن حسني ، ورقات من تاريخ حضارة تونس .

(٣) المصدر : من قاموس .Msn – Encarta في الشبكة العالمية.

خمسين قوساً قائمة في الهواء سعة كل قوس منها أزيد من ثلاثين شبراً وبين كل قوس وأختها سارية وعظمها وسعة السارية والعضادتين أربعة أشبار ونصف ويقوم على كل قوس من هذه الأقواس خمسة أقواس قوس على قوس صفة واحدة وبناء واحد من الحجر الكنان الذي لا يجانسه شيء في الجودة، وعلى أعلى كل قوس من هذه القسي بحر دائر وقد صور في البحر الدائر على القسي السفلى أنواع من الصور وضروب من التماثيل العجيبة الثابتة في الصخر من صفات الناس والصناع والحيوانات والمراكب ، وكل ذلك قد أتقن بأبدع صنعة ، وأحذق حكمة ، وسائر البناء الأعلى أملس لا شيء به ، ويقال إن هذا البناء كان ملعباً ومجتمعاً في فصل ما ويوم ما من السنة [(١)] .— والمصادر لا تشير إلى أن الطياطر استخدم كرباط ولكن ارتباطه بكلمة قصر جعلتني أورده هنا استئناساً -

قصر زياد :

سبب البناء :

في عام ٢١٢هـ أراد زيادة الله بن الأغلب إرسال المسلمين لغزو صقلية [(٢)] فأراد عبدالرحيم المستجاب [(٣)] الخروج مع المسلمين للغزو ، لكنه كان متخوفاً من ركوب البحر فأُشير عليه أن يستعيض عن الغزو ببناء قصر يكون حرساً

---

(١) الإدريسي (٢٨٦/١- ٢٨٧) .

(٢) صِقِلية من جزائر بحر الروم مقابلة إفريقية ، وهي مثلثة الشكل ، .. وإفريقية منها بين المغرب والقبلة ... وبين الجزيرة وبر إفريقية مائة وأربعون ميلاً ، ومن مدنها مازر وبلرم وقد افتتحها المسلمون بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ. انظر : ياقوت ، (٤١٦/٣) ، وأبو الفداء ، ١٩٣ ، والحميري ، ص٣٦٦.

(٣) عبدالرحيم المستجاب هو: عبدالرحيم بن عبد ربه ، كان ثقة فاضلاً وكان يقال إنه مستجاب الدعوة، كان يسكن بقصر زياد المرابط ، وله سماع من سحنون، وهو قريب منه في السن ، وقد سمع من غيره ، سمع منه عيسى بن مسكين وغيره .
انظر : أبو العرب ، ١٩٧ ؛ والمالكي ، (٤٢١/١).

للمسلمين، فتم له الإذن من الأمير زيادة الله، أما النفقة فإن عبدالرحيم قد أنفق في بناء القصر اثني عشرة ألف ديناراً نصفها من عنده والنصف الآخر من إخوانه، ويبدو أن عبدالرحيم هذا لم يؤسس قصر زياد [١] تأسيساً إنما وجده متهدماً فرممه وأصلح من شأنه [٢] .

قصر لمطة :

يدخل في جملة الرباطات المعتبرة التي أحدثت في القرن الثالث، وقد بني ذلك القصر في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م ، ورابط في القصر كثير من العباد والزهاد[٣] ومعلوم أن لمطة هي تلك البليدة الجميلة من دائرة سوسة ، وهي المشهورة في الساحل بمنسوجاتها القطنية ذات الألوان اللامعة البديعة ، ويرجع تأسيس البلدة إلى العصر القرطاجني أي إلى ما يقرب من ألفين وخمسمائة سنة ، ويدل على ذلك اسمها القديم (لبطة) وقد قلبت لامها ميماً في العصر الإسلامي فصارت تلفظ (لمطة) وكثيراً ما تذكر (Leptus minor) في تاريخ تونس القديم أي في المدة الرومانية، وكانت تعرف باسم (لبطة الصغرى) للتفرقة بينها وبين (لبطة الكبرى) وتنعت اليوم (بليدة) بليدة في ناحية برقة من ليبيا ، ومهما يكن فإن (لمطة) التونسية اشتهرت في العصر الأغلبي برباطها المعروف (بقصر لمطة) .

قصر طارق :

هذا القصر يعتبر من صغار الرباطات التي تحيط بسوسة، ويقع على ساحل البحر بمقربة من المدينة بحيث يشاهد بناؤه منها، وله برج عال يرى من مسافة بعيدة من البحر ، وكان تأسيسه على يدي رجل سخي يعرف بـ(طارق) ، وأنفق عليه من

---

(١) لم أجد في المصادر التي توفرت لدي إشارة عن زياد الذي ينسب إليه هذا القصر .

(٢) المالكي (٤٢٢/١).

(٣) حسن حسني ، ورقات (١٠٥/٢- ١٠٦).

ماله الخاص كما بنى في غربيه منزلاً يسكنه مع أسرته . وكان ذلك في آخر القرن الثالث ، ولهذا القصر صدى كبير في أشعار أدباء سوسة المتقدمين [١] .

قصر سهل :

في الجهة القبلية من سوسة كان يوجد رباط صغير قبالة قصر الطوب بينه وبين المدينة نحو ثلاثة أميال هو (قصر سهل) بناه أحد أعيان القيروان المعروفين بالثراء الواسع وفعل الخير المشهورين بالعلم والورع سهل بن عبدالله بن سهل أبو زيد [٢] وموضع هذا الرباط كان كدية رمل كبيرة ... وقد تولى سهل البناء ولم يرض أن يشاركه في النفقة أحد ، وأنفق عليه من ماله الخاص نحو الألف مثقال ذهباً ، وقد احتاج في وقت ما من بنائه إلى شيء من المال لإتمام عمله فباع في ذلك حلي زوجه وبناته وأتمه على أحسن حال ، وتوفي الباني أبوزيد سهل في ذي القعدة من عام ٢٨٢ هـ / يناير ٨٩٥م فيكون بناء القصر في منتصف القرن الثالث ، وربما أطلق عليه اسم (القصر الجديد) لحداثته بالنسبة إلى سالفه قصر الطوب ، وقد نزل به جماعة من العلماء والعباد) [٣] .

قصر طنبذة :

كان قصر طنبذة يقع على بعد أربعة فراسخ جنوب تونس في موضع المحمدية حالياً ، فهل كانت بناية من العصر الإسلامي؟ كلا ، فإن حسان بن النعمان لما هجم على قرطاجة سنة ٨٤هـ/٧٠٣م ترك قسماً من جنوده مرابطاً هناك ، وكان القصر حصناً عتيقاً بلا أي شك ، ويحتمل كثيراً أنه كان حصناً بيزنطياً [٤] وينسب إليه

---

(١) حسن حسني ، (٨٣/٢).

(٢) سهل بن عبدالله لم أجد في المصادر التي توفرت لدي ترجمة له.

(٣) حسن حسني ، (٩١/٢- ٩٢).

(٤) الطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ١٩٦- ١٩٧ .

منصور الطنبذي الثائر .

قصر قومش :

لـه طبقـات كـثيرة في سـواري رخاميـة مفرطـة الكـبر والعظـم يتربـع علـى رأس السارية منهـا إثنـا عـشر رجلاً وبينهم سـفرة طعـام أو شـراب ، وهـي مـشطبة كـالثلج بياضاً والمياه صفاءً، بعض تلك السواري قائمة وبعضها ساقطة ، وبهـا قبـو عظـيم لا يدرك الطرف آخره - وهذه العبارة واضح فيها المبالغة الشديدة - ولكن يستأنس بها للدلالة على السعة ، فيه سبعة مراجل للماء كبار تعرف بمراجل الشياطين فيها ماء قديم لا يدرى متى دخلها [١] .

قصر طوارق :

من قصور قفصة في البلاد الجريدية ، وكانت مدينة كبيرة آهلة فيها جامع كانت القوافـل إذا خطـرت بـين هـذه القـصور تكمـم إبلـها ودوابهـا لـئلا ترعـى ورق الـشجر لكثرته على تلك الطريـق، ويـه اليـوم خرائـب لا أنـيس بهـا منـذ دخلـت العـرب بـلاد إفريقية وأفسدت بلاد القيروان وغيرها من البلاد ، والقرى والعمائر وكثيراً مـن المـدن بإفريقية [٢] .

قصر الأجم :

هو المعروف بقصر الكاهنة ، وبينـه وبـين المهديـة مـن الـبلاد الإفريقيـة ثمانيـة عشر ميلاً ، وذكر أن الكاهنـة حـصرها عـدوها في هـذا القـصر فحفـرت سـرداباً في صخر صماء من هذا القصر لكي ترسل لها اختها الطعـام مـن خلالـه علـى ظهـور الدواب ، وهذا القصر عجيب البنيان ، قد أحكم بحجارة طول الواحـد منهـا سـتة وعشرون شبراً ، وارتفاع القصر في الهـواء أربـع وعشرون قامة وهو من داخله كله

---

(١) البكري ، ٤٤ .

(٢) الحميري ، ٣٩٨ .

مدرج إلى أعلاه وأبوابه طاقات بعضها فوق بعض [١] .

قصر الفاروج :

وهو قصر قد خرب ، بجواره جب وحوله سبخة وبينه وبين سرت خمس مراحل [٢] .

رباط ترام :

به قوم متعبدون تخلوا عن الدنيا وسكنوا في هذا الجبل مع الوحش لباسهم البردي، وعيشهم من نبات الأرض ، ومن صيد البحر يتناولون ، والدعوة من أكثرهم مستجابة، وهذا الجبل معروف بالترام [٣] .

القصر الأبيض :

وهو قصر خرب وهو أدنى المراحل إلى خرايب أبي حليمة على ظهر العقبة بقرب جب خرب والقصر الأبيض آخر لواته ، وقد بنى هذا القصر حسان بن النعمان الغساني بأمر من عبدالملك بن مروان بعد هزيمته من الكاهنة [٤] .

حصن الحَمَّة :

بجزيرة صقلية، وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة قد فجرها الله سبحانه وتعالى ينابيع في الأرض، وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرها[٥].

---

(١) الحميري ، ١٣ .

(٢) البكري ، ١٢ .

(٣) البكري ، ٧ .

(٤) البكري ، ٨ .

(٥) الحميري ، ٢٠٣ .

قصور حسان :

عندما تولى حسان بن النعمان الغساني إفريقية قام بمحاربة ملكة البربر الكاهنة إلا أن الكاهنة تمكنت من هزيمته فكّر راجعاً فأتى قصوراً بالقرب من برقة فنزل عندها ، وهي قصور يضمها قصر سقوفة أزاج [١] . فسميت تلك القصور بقصور حسان ، مع أن الرقيق القيرواني يذكر أن تلك القصور أقامها حسان في حيز طرابلس[٢] .

إن هذه القصور المذكورة سلفاً هي التي استطعت أن أحصيها ، وهي بالطبع ليست كل القصور والأربطة ، حيث إنها أي القصور المبنية في إفريقية تصل إلى الآلاف ، إنما هذه القصور هي أهم ما بني وذلك يتضح من تركيز المصادر والمراجع عليها ، حتى أن ذلك التركيز كان متفاوتاً وذلك تبعاً لأهمية القصر نفسه . واهتمام المؤلف متأخراً كان أو متقدماً بالحدث الذي دعاه لذكر ذلك القصر .

حصون صقلية :

لم يكتف الأمراء الأغالبة ببناء الأربطة والحصون في إفريقية وحدها بل تعدوا ذلك إلى صقلية التي دخلت تحت الحكم الإسلامي عام ٢١٢هـ ، ولقد ذكر ابن الأثير أسماءً لتلك الحصون دون أن يتطرق إلى تعريفها ، حيث ذكر أن أبا عقال [٣] هو

---

(١) أزاج : مفرده أزج وهو بيت يبنى طولاً ويقال له بالفارسية اوستان . انظر : ابن منظور (باب الجيم فصل الهمزة) .

(٢) البلاذري ، ٣٢١ . والرقيق ٢٦ .

(٣) أبو عقال هو الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (وبلقب بخزر) ولي إفريقية بعد أخيه زيادة الله ، وهو كان أصغرهم ولاية ، أقام سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، وكل من ولي بعده من آل الأغلب - إلى أن انقرض ملكهم وزال سلطانهم - من ولده ، وله آثار صالحة ، أمن الجند . انظر : ابن الأبار ، (١٦٨/١) ؛ وابن عذارى (١٠٧/١) ؛ والنويري ، (١٣٢/٢٤) ؛ والطالبي ، الدولة الأغلبية ، ٢٤٧ .

الذي استأمن تلك الحصون سنة ٢٢٥هـ[١] . أما ميكائيلي أماري[٢] فقد عرفها، حيث ذكر أن قلعة البلوط هي حصن منيع ومعقل شامخ على الذرى صعب الارتقاء ذو بوادٍ شريفة خصيبة وضياع طيبة عجيبة وأصناف من الثمار غريبة ، وبها عيون وأودية[٣] ، وحصن ابلاطنو هو محل شريف ومعقل منيف، وله مزارع وغلات وخيرات واسعات، كثير البساتين والأشجار ، وعليه قلعة سامية وذروة نامية [٤] ، وحصن قرلون (قرليون) [٥] هو حصن حصين منيع ومعقل مشيد رفيع وله عمارات متصلة ويتصل به نهره المنسوب إليه ، ومرو قلعة حصينة يقع أقرب منزل لها على بعد تسعة أميال [٦] .

وفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين هجري تولى إفريقية أبو إبراهيم أحمد [٧] فأحسن السيرة وأكثر العطاء للجند ، وكان مولعاً بالعمارة فبنى بإفريقية نحواً من

---

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (٢٢٣/٦).

(٢) ميكائيلي أماري ، المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، ليبستك ١٨٥٧ ، (٤٠).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢٢٣/٦) ، وميكائيلي أماري ، (٤٠)

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢٢٣/٦) ، وميكائيلي أماري ، (٥١).

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢٢٣/٦) ، وميكائيلي أماري (٤٥).

(٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢٢٣/٦) ، وميكائيلي أماري (٥٠).

(٧) أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب كانت أيامه كلها ساكنة لم يحدث فيها ما يعكر صفوه ، عدا ما كان بناحية طرابلس ، وذلك أن قبائل البربر تجمعت ، فكان بينهم وبين عاملها عبدالله بن محمد بن الأغلب حروب كثيرة فكتب إلى أبي إبراهيم بذلك فأرسل له العساكر فكانت بينهم وبين البربر حروب شديدة ، ولأبي إبراهيم آثار في المباني بإفريقية منها المآجل، وبناء مسجد سوسة ، وسورها.

انظر : ابن الأبار ، (١٧١/١) ؛ وابن عذارى ، (١١٢/١) ؛ والنويري ، (١٢٣/٢٤- ١٢٤) ؛ والطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ٢٨٢ .

عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد[١]. حيث كانت تلك الحصون تستخدم للرباط وفي عهد أبي الغرانيق [٢] كثرت الفتن والحروب ، وتغلب الروم على صقلية ، ويعرف عن أبي الغرانيق أنه قد قام ببناء حصون ومحارس على ساحل البحر بإفريقية على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب[٣] .

وحينما تولى إبراهيم بن أحمد [٤] ولاية إفريقية كانت البلاد آمنة ، وذلك ربما يعود إلى كثرة بنائه المحارس والحصون حيث كانت بالكثرة التي تجعل النار توقد في سبتة كإنذار بقرب العدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في نفس الليلة [٥] فإذا كانت رواية ابن الأثير تبالغ عندما تقول إنه "بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر، حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة" ، ما يعني أن نفوذ إبراهيم السياسي كان ممتداً بين سبتة والإسكندرية ، فهذا الأمر غير

---

(١) ابن خلدون ، (٢٠٧/٤) ؛ والطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ٢٨٤ .

(٢) أبو الغرانيق هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب ولي بعد عمه زيادة الله (الثاني) ، وكان مشغوفاً بالصيد فلقب بأبي الغرانيق ، وذلك أنه بنى قصراً لصيد الغرانيق ، أنفق فيه ثلاثين ألف مثقالاً من الذهب ، ولقب في آخر أيامه بالميت ، وذلك أنه أعتل وطالت علته فكان يشنع عليه بالموت في كثير من الأيام. إضافة إلى ذلك عرف عنه الرفق بالرعية وجزالة الأعطيات له.
انظر : ابن الأبار ، (١٨١/١) ؛ وابن عذارى ، (١١٤/١) ؛ والنويري ، (١٢٧/٢٤- ١٢٨) ؛ والطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ٢٩٣ .

(٣) ابن خلدون ، (٢٠٥/٤) ؛ والطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ٢٩٣ .

(٤) إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلبي أمير القيروان ، تولى الأمر فكان في أول أمره حسن السيرة يقتفي طرائق العدل ، ثم إنه غلبت عليه السوداء فأكثر من سفك الدماء ، وقتل جماعة من بناته وحظاياه لا لجناية ارتكبوها ، وفي آخر أمره قدم عليه رسول المعتضد يأمره أن يلحق ببابه ، ويولي على إفريقية ولده أبا العباس ، لما شكا أهل إفريقية منه ، فأظهر التوبة ورفض الملك ولبس الخشن من الثياب وأخرج من في سجونه ، وسلم الأمر إلى ولده المذكور ، وتوجه إلى صقلية مجاهداً.
انظر : ابن عذارى ، (١١٦/١) ؛ والصدفي (٣٠٤/٥) ؛ النويري ، (١٢٧/٢٤).

(٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، (٢٥٦/٦) ؛ وانظر: ابن خلدون (٢٠٥/٤).

صحيح ، وإذا كان ذلك يعني أن التضامن بين المحارس والرباطات البحرية على طول سواحل البحر المتوسط من الإسكندرية إلى سبتة كان أمراً واقعاً ، فهو الأمر المحتمل ، أما ما هو حقيقي ، فهو ما تؤكده الرواية من أن العرب كانوا يستخدمون في ذلك الوقت المبكر من القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، الإشارات الضوئية في التخاطب بين المحارس البحرية ليلاً ، وهي الطريقة المعروفة حالياً باسم "إشارات مورس" التي تستخدمها السفن في التخاطب فيما بينها حتى اليوم [1] .

---

(١) سعد عبدالحميد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، (١٥٠/٢).

الفصل الثاني

الدور السياسي والعسكري للرباط في إفريقية

الفصل الثاني

الدور السياسي والعسكري للرباط في إفريقية

أولاً : الدور السياسي للرباط :

لعب الرباط دوراً سياسياً [1] يتمثل في سلطة الفقهاء والعباد الذين يسكنون الرباط والذين لهم تأثير كبير على عامة الناس، وخاصة مذهب عامة أهل إفريقية وهم المالكية. ويلعب أهل الرباط وخاصة العباد والزهاد منهم دورا مهما في تخفيف الضغط عن العامة. ومثال ذلك عندما اشتكى العامة والزراع إلى أحد العباد في سوسة من سياسة أبي العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب في الجباية وأخذه للعشر نقداً وما لاقاه الناس من ظلمه بسبب ذلك وكيف أن العباد من سوسة أتوا إلى أبي العباس وطلبوا منه التخفيف عن الناس فرفض. ويقال إنهم دعوا عليه فمات بعد فترة وجيزة. ومثله شكوى العامة إبراهيم بن أحمد على أحد العباد في سوسة.

---

(١) معنى السياسة : يقال ساس المرء الشيء أي أصلحه وقام عليه ، والرجل يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها والوالي يسوس رعيته ، والسياسة كذلك استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل وهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم ومن السلاطين والملوك على كل منهم في ظاهرهم ، ويقال ساسوهم سوساً إذا رأسوه ، وساس الأمر سياسة : قام به ، وسوسه القوم : جعلوه يسوسهم ويقال سستُ الرعية سياسة ، والسياسة المدنية تدبير المعاش على العموم على سنن العدل والاستقامة . انظر: ابن منظور (باب السين فصل السين) ؛ والبستاني (باب السين فصل السين) .

أ – الرباط وأهميته لدى الأمراء :

لقد اهتم الأمراء الأغالبة بالأربطة منذ توليهم السلطة حتى سقوط دولتهم، حتى أن الأربطة في آخر أيام الدولة الأغلبية غطت الساحل الإفريقي بأسره. وقد كانت هناك أسباب عدة جعلت الأمراء يهتمون بالأربطة منها أن رجال الأربطة كانوا غالباً مؤيدين للحكومة المركزية ؛ لأنها كانت غالباً نصيرة السنة ، الممثلة في الفقهاء المالكية (رجال القيروان) في صراعهم مع المذاهب المختلفة المخالفة لأهل السنة والجماعة[١] ، إضافة إلى هذا السبب فإن ما كانت تتعرض له البلاد من غزوات خارجية بحرية من البيزنطيين وأهل صقلية كان سبباً رئيساً في بناء الأربطة لتكون مراكز إنذار مبكر لأهل البلاد الداخلية، إضافة لذلك ما كانت تتعرض له البلاد من ثورات على يد بعض الجنود الخارجين عن طاعة الدولة كما هو الحال في ثورة منصور الطنبذي التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً [٢] . أخيراً ما تتعرض له البلاد من غزو داخلي كما هو الحال في الغزو العبيدي لدولة الأغالبة وقد تغير الأمر عندما جاء العبيديون حيث جعلوا بعض رجال الأربطة يتركون جهاد البيزنطيين بعض الوقت ليتفرغوا للخطر الجديد ، وذلك يتضح من حديث جبلة بن حمود الصدفي [٣] الذي

---

(١) الغنيمي ، (١/٢٢٦) .

(٢) ابن عذارى (١/٩٨) ؛ والنويري (٢٤/١٠٨) ؛ والطالبي ، **الدولة الأغلبية** ، ١٩٥ .

(٣) جبلة بن حمود هو أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبدالرحمن يكنى جده بأبي الأشعث من ولد المعروف بالمقطع مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، ودفن في باب سلم وكان مولده سنة عشر ومائتين ، وكان يقيم بقصر الطوب للمرابطة ثم يقدم إلى القيروان فيسمع الناس منه ثم يرجع ، وقيل عنه : من أراد أن يدخل إلى دار عمر بن الخطاب ﷺ فليدخل إلى دار جبلة ، وقيل إنه كان صاحب همة يتيه بها على الخلفاء.

انظر : المالكي (٢/٢٧- ٢٨) ؛ عياض ، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق : عبدالقادر الصحراوي ، الرباط ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، (٤/٣٧) ؛ وابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد ، الديباج =

كان يأخذ سلاحه ويقف على مشارف القيروان ويقول ها قد داهمنا عدونا فيجب علينا جهاده [١] .

وقد سارت الأربطة في طريق التطور والتحديث ، فما لبثت أن خرجت عن وظيفتها لتصبح مدارس يقصدها الطلاب من أجل دراسة الفقه والحديث . وقد كانت عناية بني الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية ، فقد أنشأوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن ، وخاصة ما وقع على الساحل منها . وكان رباط سوسة من أهم الرباطات في عصر الأغالبة ، فهو شبيه برباط المنستير وأجمل من ناحية الهندسة ، وقد تضخم رباط سوسة حتى أصبح أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة [٢] ، وفي الرباط طابقان يخصص الدور الثاني للحراسة والأول للعبادة ، وفي العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتيسير أمور العبادة والحراسة. ولقد كان يحيط بالرباط عادة سور مرتفع تقوم على أركانه وعلى مسافة منه أبراج يقف فيها الحراس وتوقد بها النيران وقت الخطر وقد بقي لنا من رباطات الأغالبة رباط سوسة السابق الإشارة إليه وهو من بناء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ثالث أمراء الأغالبة وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر. وقد بنى إبراهيم بن الأغلب القصر القديم على نحو ستة كيلومترات جنوبي القيروان لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته ولكن دون أن يعد القصر القديم رباطاً إنما هو مقر للحكم والإمارة كما قد سبقه إلى ذلك المعتصم بالله الخليفة العباس الثامن حين بنى لجنده مدينة سامراء ، وكان القصر يتكون من قصور وحدائق

= المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق : علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، بورسعيد ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، (١/٢٨٢).

(١) المالكي (٢/٣٧) ، وعياض (٤/٣٧) ، وابن فرحون (١/٢٨٢).

(٢) الغنيمي ، (١/٢٣٦).

ومعسكرات [١] .

ولا يخفى على الإنسان أن زيادة واردات الدولة في عصر تكون سبباً في الرقي الحضاري وذلك ما حدث تماماً في عهد زيادة الله الأول الذي امتلأت الخزانة في عهده بالأموال، فقد تضاعف خراج إفريقية السنوي وبلغ (ست وعشرون مليون درهماً) ولقد ساعد ذلك النمو الاقتصادي الأمراء المحبين لفعل الخيرات على بناء الأربطة وبناء المنشآت الدينية والاجتماعية عموماً ، فقد جدد زيادة الله بناء جامع عقبة من أصله وجعله على هيئة حسنة ، وأحدث جسراً عظيماً قرب القيروان يعرف (بقنطرة أبي الربيع) وكانت تلك القنطرة تمر على وادي مرج الليل أو ما يعرف بوادي السراويل وهو الطريق المؤدي إلى المشرق الذي يأخذه الناس حين يريدون الذهاب إلى مصر وحصن مدينة سوسة بسور محكم البناء بالإضافة إلى ما شيده من القصور والمعاقل مثل رباط سوسة المعروف بالقصر وغيره [٢] . وقد كان زيادة الله الأول يقول عن نفسه (ما أبالي ما قدمتُ عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان وبنياني قنطرة أبي الربيع، وتوليتي أحمد بن أبي محرز [٣] ، وبنياني حصن مدينة **سوسة**)[٤].

---

(١) الغنيمي، (١/٢٣٧).

(٢) حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس ، (٨٠) .

(٣) أحمد بن أبي محرز تولى القضاء بعد أبيه، فكان عفيفاً صالحاً وقد تولى القضاء مكرهاً في شهر رمضان سنة عشرين ومائة، فأقام على القضاء تسعة أشهر ثم توفي، لم يحكم بحكم حتى مات إلا أنه حكم في حمار وغرم صاحبه .

انظر : أبو العرب ، ١٧٦ ؛ والخشني القيرواني ، أبو عبدالله محمد بن حارث بن أسد، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق السيد عزت العطاء الحسيني ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ٣٠٥ . والمالكي ، (١/٣٩٥).

(٤) المالكي (١/٣٩٨) ، وابن عذارى (١/١٠٦) والنويري شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، **نهاية الأرب** ، تحقيق : حسين نصار ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، (١٥/٢٤) .

ب - الثورات وتأثير أهل الرباط فيها :

١ - ثورة منصور الطُّنبُذِي:

لقد كان لأهل الرباط تأثير واضح في إخماد الثورات، فكانوا عوناً للأمراء وما برحوا يدافعون عن السلطة الشرعية وعن الأبرياء عموماً، وكان من أشهر تلك الثورات في عهد الأغالبة ثورة منصور الطنبذي التي أزعجت الدولة الأغلبية كثيراً[(١)] ، فإن منصور الطنبذي دفعته لتلك الثورة أسباب ، ويُذكر أن قسوة زيادة الله في التنكيل بعمرو بن معاوية القيسي [(٢)] وولديه كانت من أسباب تلك الثورة سنة ٢٠٩هـ ، وحقيقة الأمر أن الطنبذي لم يقم بثورته إلا طمعاً في اغتصاب الإمارة لنفسه عن طريق استغلال كراهية الجند للأمير وحقدهم عليه، وقد تمكن الطنبذي من شحذ همم الجند وقام بثورة كبيرة هزت قواعد الإمارة ، وفشلت محاولات الأمير في الوقوف في وجه الثوار دون إراقة الدماء [(٣)] .

ثم إن زيادة الله أرسل قائده ابن حمزة [(٤)] ومعه الشيخ شجرة بن عيسى

---

(١) ابن الأبار (١١٠/١)، وابن عذاري (٩٧/١)، والنويري (١٠٨/٢٤).

(٢) عمرو بن معاوية القيسي هو من ولد عمير بن الحباب السلمي أحد فرسان قيس وساداتها الأربعة في الإسلام ، كان عمرو بن معاوية يتولى ناحية القصرين من إفريقية ، وخرج على إبراهيم بن الأغلب مع عمران بن مجالد، وكان وزيره الغالب عليه أموره. ثم خرج ثانية على ولده زيادة الله بن إبراهيم - وكان قد ولاه القصرين وما إليهما - فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف ، فلما ظفر به زيادة الله قتله وولديه الحباب وسكنان .
انظر : ابن الأبار ، (١١٠/١) ؛ وابن عذارى (٩٧/١) ؛ والنويري ، (١٠٨/٢٤) .

(٣) ابن عذاري (٩٨/١) ؛ والنويري ، (١٠٩/٢٤) ؛ ومحمود إسماعيل عبدالرزاق(٣٨)،

(٤) ابن حمزة هو محمد بن أحمد بن حمزة بن السبال ويعرف والده بالحرون . وجهه زيادة الله بن إبراهيم للقبض على منصور الطنبذي بقصره بالمحمدية وقُتل محمد هذا في وقعة سبيبة أيام خلاف منصور والجند على زيادة الله. انظر : ابن الآبار ، (١٨٦/١) .

القاضي [١] ولما اقترب الجميع من معسكر منصور الطنبذي انطلق القاضي شجرة ومعه أربعون شيخاً من أشياخ تونس بأمر من ابن حمزة لمعاتبة الطنبذي وإعادته إلى الحق ولما وصلوا إلى الطنبذي ودعوه للطاعة، قال منصور "ما خلعت يداً ولا أحدثت حدثاً! وأنا سائر معكم إلى زيادة الله، ولكن أقيموا علي يومي هذا حتى أعد لكم ما يصلحكم، فأقاموا معه، ووجه إلى ابن حمزة والذين معه ببقر وغنم وعلف، وأحمال قهوة، وكتب إليه "إني قادم عليك بالغداة مع القاضي شجرة" .

فركن ابن حمزة إلى قوله وذبح البقر والغنم، وأكل هو والناس الذين معه وشربوا فلما أمسى منصور أخذ القاضي والذين معه فحبسهم في قصره وأخذ دوابهم وجعل عليها أصحابه وجمع خيله وأشياعه وزحف إلى تونس، وأمر أصحابه ألا يُسمع لهم حس ولا حركة حتى يصيروا إلى دار الصناعة ، وسار حتى إذا كان بالقرب من دار الصناعة أمر بالطبول فضربت وأمر أصحابه فكبروا فوثب ابن حمزة ومن كان معه والتحم القتال عامة الليل، وكثر الناس عليهم، فقتل من كان مع ابن حمزة ولم يسلم منهم إلا من سبح في البحر ، وأصبح منصور فاجتمع عليه الجند وقالوا له "نحن لا نثق بك ولا نأمن أن يستنزلك السلطان بدنياه وماله فتميل له ، ولكن إن أحببت أن نقوم بنصرك فأخضب يدك في دماء أصحاب السلطان وأهل بيته" [٢] .

---

(١) شجرة بن عيسى المعافري أبو سمرة ، ويقال أبو زيد، أصله من العرب ، سمع من ابن زياد وابن أشرس ، وابن أبي كريمة، وأباه عيسى ، وعداده في أهل تونس ، ولي شجرة قضاء تونس أيام سحنون وقبله، كان يلبس الثياب الحسنة، ويخضب لحيته وأطرافه بالحناء ، ويركب الفرس الفاره ، ويجيد الركوب ، عُمر حتى توفي سنة اثنتين وستين ومائتين ، مولده سنة تسع وستين ومائة . انظر : عياض ، (١٠١/٤- ١٠٢) ؛ وابن فرحون ، (٢٥٢/١) ؛ والطالبي ، **تراجم أغلبية** ، ١٥١.

(٢) الرقيق (١٨٥) ، وابن عذاري (١٠٠/١) ، والنويري (١٠٩/٢٤).

فأحضر إسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقال [١] وهو من أهل بيت زيادة الله - فكان هو العامل على تونس - فلما حضر أمر بقتله، فلما سمع زيادة الله الخبر سير جيشاً كثيفاً واستعمل عليهم غلبون واسمه الأغلب بن عبدالله بن الأغلب ، وهو وزير زيادة الله - إلى منصور الطنبذي، فلما ودعهم زيادة الله تهددهم بالقتل إن انهزموا، فسار غلبون حتى وصل إلى سبخة تونس ، فخرج إليهم منصور الطنبذي في تعبئة عباها لنفسه فاقتتلوا ملياً، ثم حمل منصور حملة كانت فيها هزيمة غلبون وأصحابه ، فسار منهزماً إلى زيادة الله ، فاعتذر غلبون عن الهزيمة وحلف أنهم نصحوا واجتهدوا ولكن قضاء الله لا يرد ، وتواثب القواد على أعمال إفريقية ، كل قائد على بلدة يضبطها، ويمتنع فيها من عقوبة زيادة الله التي توعدهم بها، واضطرمت إفريقية ناراً ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبذي أزمة أمورهم، وولوه على أنفسهم ، وقدم غلبون على زيادة الله فأعلمه بما كان من أمره وهروب الجند، فكتب إليهم زيادة الله صكوك أمان وبعث بها إليهم ، فلم يثقوا بها منه وخلعوا الطاعة ولما ظفر منصور واجتمع إليه بتونس جميع الجند والحشود والوفود من كل جهة ومكان ، زحف بهم من تونس فوصل إلى القيروان فركب له القاضيان أبو محرز وأسد بن الفرات [٢] فكان بينهما وبينه كلام لم يُفد ، وخندق منصور الطنبذي على

---

(١) هو إسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقال، كان عاملاً على تونس لزيادة الله الأول إبان ثورة منصور الطنبذيي، وقد قتل هو وولده الأكبر في تلك الثورة على يد الطنبذي نفسه ، وذلك عام ٢٠٩هـ. ا

أنظر: ابن الآبار (٢/٣٨٣).

(٢) أسد بن الفرات ، يكنى أبا عبدالله مولى بني سليم ، كان أوله من خراسان من نيسابور، وولد بحران من ديار بكر قدم أبوه وأمه حامل به، ثم تعلم القرآن ، ثم اختفى إلى علي بن زياد بتونس ، فلزمه وتعلم منه ، وتفقه به، ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك موطأه وغيره، ثم ذهب إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة ، وكتب الحديث عن يحيى بن زكريا ، كان أسد بن الفرات ثقة لم يكن فيه شيء من البدع ، كان زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ولى أسد بن الفرات على الجيش الذي وجهه =

نفسه ، فكانت بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ، ثم رحل منصور من خندقه ، ونزل منزلاً آخر ، وأخذ منصور في إصلاح سور القيروان فوالاه أهل القيروان وحاربوا معه ، فدامت الحرب بين منصور وبين عسكر زيادة الله على القيروان أربعين يوماً ، ثم زحف زيادة الله على تعبئة عباها لنفسه قلباً وميمنة ، فلما رأى ذلك منصور هاله وراءه ، والتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم منصور وولى هارباً ، وقتل أصحابه قتلاً ذريعاً ، وانتهى زيادة الله إلى القيروان ، فأمر برفع القتال ، وتمادى منصور في هزيمته إلى أن دخل قصره بتونس والناس لا يشعرون ، وعفا زيادة الله عن أهل القيروان ، وصفح عن جميعهم غير أنه جعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى ألصقه بالأرض [١] .

لقد ألحق الطنبذي الكثير من الهزائم بمعظم الجيوش التي سيرها زيادة الله إليه ، ولقي خيرة رجال البيت الأغلبي حتفهم على يد الثوار ولم يجد الأمير منفذاً سوى الاعتصام بقصره مستسلماً للأقدار موقناً بضياع ملكه بعد أن انصرف عنه الأتباع وانحازوا إلى معسكر غريمه وبعد أن علا شأن الطنبذي وسيطر على إفريقية كلها باستثناء الساحل وقابس ، وقيل إنه ضرب السكة باسمه لكن لم يُقدر لهذه الثورة أن تحقق أهدافها ، فقد انقسم معسكر الطنبذي وخرج قواده عليه في نفس الوقت الذي استمد فيه زيادة الله عوناً صادقاً من بربر نفزاوة وتمكن زيادة الله من استعادة البلاد بلداً بلداً ، وما لبث الطنبذي أن اغتيل على يد قائده عامر بن نافع[٢] الذي خرج عليه

= إلى صقلية ، وكان علماء إفريقية قد كرهوا غزو صقلية لعهد كان لهم قديماً ، فخرج أسد على الجيش سنة اثنتي عشرة ومائتين فمات بصقلية ولم يستكمل فتحها كان مولده سنة ٢٤٥هـ وقيل ٢٤٣هـ وقيل ٢٤٢هـ . انظر : ابن فرحون (١/٢٦٨) ، والخشني ص(١٦٥) وأبو العرب (١٣).

(١) ابن عذارى (١/١٠٠) ؛ والنويري (٢٤/١٠٩- ١١٠).

(٢) عامر بن نافع بن عبدالرحمن بن عامر بن نافع بن محمية المسلي بن مزحج . مالأ منصور بن نصر الطنبذي على الخلاف ، وكان الذي بينهما غير جميل ، وربما استراح فيه منصور بمجالس أنسه =

وحظي بتأييد الجند وتزعمهم بعد موت منصور الطنبذي [١].

وقد قمت بذكر هذه الثورة لأن أحداثها جرت في تونس، وتونس كما أشرت سابقاً من المدن التي بناها المسلمون لتكون بمثابة رباطٍ لهم حيث إن أهل تونس علماء كانوا أو عامة يعدون من المرابطين . إضافة إلى ذلك كان في أثناء هذه الثورة تدخل واضح من شيوخ المرابطين الهدف منه إخمادها، مثل شجرة بن عيسى وأسد بن فرات وأبي محرز.

٢ – ثورة خوارج زواغة ولواتة ومكناسة :

كانت أيام أبي عقال كلها هادئة ، ولم يقطع هذا الهدوء إلا انقضاض خوارج البربر من زواغة ولواتة ومكناسة سنة ٢٣٤هـ، في إقليم قسطيلية وقيامهم بقتل عامله على هذا الإقليم فسير إليهم جيشاً بقيادة عيسى بن ربعان الأزدي [٢] .

اشتبك معهم فيما بين قفصة وسطيلية ، فأبادهم عن آخرهم ، واهتم أبو عقال في أول ولايته بأمر صقلية فبعث في سنة ٢٢٤هـ سرية غزت بعض مواضع من الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة، ونجح المسلمون في افتتاح عدد من حصونها [٣] .

٣ – ثورة الإباضية :

في عام ٢٤٥هـ ثار الإباضية في طرابلس وقتلوا العامل عليها، فأرسل إليهم أبو إبراهيم أحمد بن محمد جيشاً كبيراً فهزمهم وشتت جمعهم الثائر، فعاد الهدوء إلى المنطقة من جديد [٤] .

= فيفضي عامر على ذلك إلى أن زحف إليه فحصره بقصره بطنبذة ، واضطره إلى النزول على شروط لم يف بها ، وسجنه . انظر: ابن الأبار (٣٨٣/٢- ٣٨٤) .

(١) ابن عذارى ، (١٠٠/١- ١٠١)؛ والنورير ، (١١٢/٢٤)؛ ومحمود إسماعيل ، (٣٩).

(٢) لم أجد له ترجمة في المصادر التي توفرت لديَّ.

(٣) ابن عذارى ، (١٠٧/١) ؛ والسيد عبدالعزيز سالم، (٣٩٣/٢).

(٤) النويري (١٢٣/٢٤) ؛ والسيد عبدالعزيز سالم (٣٩٨/٢).

والمؤكد أن الثورات المذكورة كانت ستسقط الدولة الأغلبية ، لولا الله ثم تدخل الجيش الأغلبي الذي كان مختلطاً بين الجيش النظامي للدولة والمرابطين المتطوعين في الحصون ، حيث إن أولئك المتطوعين يعتبرون حرب أولئك الثوار والخارجين جهاداً في سبيل الله ، ولا أدل على ذلك مما قاله جَبَلة بن حمود "ها قد داهمنا عدو بأرضنا" ويقصد بهم العبيديين.

ج – تودد الأمراء لأهل الرباط :

يتضح من تتبع سير أمراء إفريقية كم كانوا يظهرون التودد والملاطفة إلى الفقهاء والمرابطين عموماً ، وفي الصفحات القادمة سأتعرض بالشرح لبعض تلك المواقف.

فقد حدث أن هرثمة بن أعين قد أقبل في موكب إلى مسجد بهلول بن راشد(١) ، وبهلول مسند ظهره إلى عمود بإزاء باب المسجد ، فلما قابله هرثمة – وهو أمير إفريقية إذ ذاك – انحنى للنزول إلى بهلول ، فلم يزح بهلول ظهره عن العمود ، فلما رآه هرثمة لم يتحرك للنهوض إليه استوى في السرج وأقبل على بعض من كان يليه فقال له : "ادفع إليه هذا المزود بالدرهم وقل له : قال لك الأمير فرق هذه الدراهم فأقبل عليه رسوله وأمره به فقال له بهلول : "الأمير أقوى على تفريقها مني" (٢) .

وإضافة إلى ذلك نرى إبراهيم الأول كان يتقرب إلى ابن غانم (٣) ويظهر له

---

(١) هو أبو عمر البهلول بن راشد ، كان ثقة مجتهداً ورعاً لا يشك أنه مستجاب الدعوة وكان عنده علم كثير ، كان مولده سنة ثمان وعشرين ومائة ، سمع من ابن أنعم ومن سحنون ، وسمع منه يحيى بن السلام حديثاً واحداً. وألف البهلول ديواناً في الفقه ، والغالب عليه مذهب مالك ، وربما مال إلى قول الثوري ، وتوفي – رحمه الله – سنة ثلاث وثمانين ومائة ، ودفن بباب سلم وقبره مشيد هناك.
انظر : أبو العرب ، ١٢٦ ؛ والخشني ، ١٣٦ ؛ والمالكي ، (٢٠١/١) ؛ والدباغ ، (٢٧٠/١).

(٢) الخشني ، ص١٣٧ ؛ والمالكي ، (٢٠٧/١) ؛ والدباغ (٢٧٠/١).

(٣) هو عبدالله بن عمر بن غانم ، تولى قضاء إفريقية عام مائة وإحدى وسبعين للهجرة ، وهو ابن أربعين سنة مما يعني أنه ولد عام ١٣١هـ ، وكانت توليته القضاء أمراً من هارون الرشيد ، وقد كان يكاتبه رأساً ، وبقي على القضاء عشرين عاماً ، عاصر فيها كلاً من روح بن حاتم ، ونصر بن حبيب ،
=

الخضوع ، فإنه في ذات يوم وصل صاحب البريد ودفع إلى إبراهيم كتاباً من الرشيد وكذا إلى ابن غانم ، فقرأ ابن الأغلب كتابه ثم دفعه إلى ابن غانم فقرأه ابن غانم وأعاده إليه ، وكان ابن الأغلب ينتظر من ابن غانم أن يرفع إليه بدوره كتابه ، وعندما رآه أحجم عن ذلك بادره بالسؤال عن سبب عدم دفعه له كتابه . فرد ابن غانم "أنت دفعته إلي ومددت به يدك وكرهت أن أردها ، وأما أنا فلست اطلعك عليه ، فإن أمير المؤمنين أسر إلي فيه شيئاً لا أطلع عليه أحداً" فقال له إبراهيم : أما علمت أنه يقال إن أمير إفريقية يقتل قاضيها" قال : "أعلم أن قد ذكر ذلك ولكن لست أنت ذلك الأمير ، ولا أنا ذلك القاضي" [١] ومن خلال هذه الحادثة يتضح مدى التودد من إبراهيم لابن غانم ، إلى درجة تجعله يطلعه على أسراره وأسرار أمارته ، وذلك على النقيض تماماً على ما قام به ابن غانم .

وكان على الأغالبة مواصلة تقاليد كبار ولاة العباسيين في أعمال الإنشاء والتعمير ، والعناية بشؤون الدين والعقيدة والحرص على أن يكونوا دائماً موضع رضى الفقهاء فقد كان الفقهاء يمثلون السنة ، ومذهب الجماعة ، وكان الخلفاء يعتبرونهم ممثلين لهم في شؤون العقيدة والشريعة والعدالة ، بل كان هارون الرشيد لا يكتب كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب إلا كتب مثله إلى عبدالله بن غانم الرعيني قاضي القيروان [٢] .

واصل زيادة الله الأول تودده للفقهاء وملاطفتهم منهم أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي[٣] فقيه إفريقية حيث ناظره في النبيذ ، فقال له اليحصبي : "كم

=

والفضل ابن روح ، وهرثمة بن أعين ، ومحمد بن مقاتل العكي ، وبعض أيام إبراهيم بن الأغلب. انظر : أبو العرب ، ١١٦ ؛ والرقيق القيرواني ، ص ١٤٣ ؛ وعياض ، (٦٥/٣) ؛ والدباغ ، (٢٨٨/١).

(١) الرقيق ، ١٩٢ ؛ وعياض ، (٦٩/٣) ؛ والدباغ ، (٣٠١/١).

(٢) الرقيق ، (١٩٥).

(٣) أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي ، سمع من مالك وابن أبي ذئب ، كان مفوهاً ، حاضر =

دية العقل؟" قال : "ألف دينار" قال : "أصلح الله الأمير! يعمد الرجل إلى ما قيمته ألف دينار فيبيعه بنصف درهم، فقيل له"إنه يعود ويرجع" فقال : أصلح الله الأمير! بعد كشفه سوءته ، وإبرازه عورته ، وضرب هذا وشتم هذا [١] .

أما أبو عقال فقد حكم البلاد وخزائن الدولة مليئة بما يكفي من المال ، ولا شك أن حرب صقلية ساهمت في هذا الإثراء ، وأتاحت تطبيق مثل هذه السياسة ، فكان ينبغي تقديم بعض الترضيات للفقهاء لذا فقد حرم أبو عقال النبيذ بالقيروان وعنَّف الباعة والشاربين ، لكن العباسيين والبلاط لم يشملهم التحريم المقرر للقيروان[٢] . وكان أول ما قام به أبو عقال الأغلب في صدر ولايته تأمين الناس على أنفسهم، والإحسان إليهم وإلى جنده، وإزالة المظالم" وزيادة أرزاق عماله، حتى يكفوا أيديهم عن الرعية ، والتودد إلى الناس ، والتقرب إليهم بإسقاط كثير من المحدثات التي بالغ فيها العمال بجانب ما ذكرناه من تحريمه للخمور ، كل ذلك ليكسب رجال الدين والفقهاء إلى جانبة [٣] .

أما إبراهيم بن أحمد فإنه بقدر ما هو قاسي مع الرعية إلا أنه يظهر لين الجانب مع رجال الدين وذلك يتضح جلياً مما دار بينه وبين أبي الأحوص [٤] .

= الحجة، قوياً على المناظرة مدافعاً عن السنة، قليل الهيبة للملوك في حق يقوله ، وكان جواداً شريفاً. واسم أبي حسان يزيد بن عبدالرحمن ، وقيل اسمه عبدالرحمن ويقال عبدالرحمن بن يزيد توفي سنة ٢٢٦هـ وهو ابن ٨٧ سنة .

انظر : أبو العرب ، ١٥٥ ؛ والمالكي ، (٢٨٤/١) ؛ والدباغ ، (٥٨/٢) ؛ وابن فرحون ، (٣٦٧/١).

(١) المالكي ، (٢٨٨/١) ؛ وابن عذارى ، (١٠٨/١) ؛ والدباغ (٦١/٢).

(٢) الطالبي ، (٢٥٠).

(٣) السيد عبدالعزيز سالم ، (٣٩٣/٢).

(٤) أبو الأحوص أحمد بن عبدالله ، كان رجلاً من أهل الفضل ، وكانت له صحبة من سحنون بن سعيد ، وكان الخير والعبادة أغلب عليه من الفقه ، كان غالباً ما يبكي والإمام يخطب يوم الجمعة، =

إذ أن إبراهيم لما جار على الناس وتعسفهم ، كتب إليه أبو الأحوص رقعة فيها : "إذا السماء انفطرت" فلما وصلت إلى إبراهيم بلغت منه مبلغاً عظيماً ، فأتاه في الليل فاستأذن عليه ، فلم يسمع من حس المطحنة لأن زوجته كانت تطحن ، فلما سمعوا فتحوا له الباب ، فدخل إليه فقال : بعد السلام والسؤال عن الحال "أتتني رقعة ذكر أنها من عندك" فقال وأنا مكفوف البصر كما ترى ، ولكن تقرأ الرقعة عليَّ ، فإن كنت أمليتها أخبرتك " فقرئت عليه فقال : " نعم أنا أمليتها " فوعظه فاتعظ ، ثم قال له : " أحب أن ترفع إلي كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيره " [١] .

فنرى إبراهيم يقبل العذر الذي جعل أبا الأحوص وزوجته لا يسمعان صوت طرقه على الباب بسبب الطاحونة ، مع أنه إبراهيم الذي كان يقتل من يشاء دون ذنب جناه ، حتى أقرب الناس إليه وهم بناته [٢] ومما يؤكد تقدير إبراهيم وإجلاله لأبي الأحوص أنه أي الأمير إبراهيم الثاني في زيارته للمدينة لتفقد أشغال البناء ، وإكمال الزيادات التي عزم عليها لتوسيع المرسى ، تقدم إليه أبو الأحوص مخاطباً إياه بهذه الكلمات " قد علمت أن البلد (أي سوسة) قد عُمِّر الآن ، وهو ثغر للمسلمين على الدوام ، فإليه مقصدهم وقت الشدة ، وهو رباطهم الحامي حماهم ، والقرويون أي أهل القرى ، يقصدونه في كل ليلة جمعة يرابطون به فأحب أن تجرى إلى هذه الدواميس [٣] الأولية ساقية من بَر المدينة ، وتوصل إليها ماء السماء ، لينتفع

=

وكان مكفوف البصر بعد صحته ، وهو من المغرب وسكناه بسوسة . وتوفي بسوسة ليلة الأحد سنة أربع وثمانين ومائتين .

انظر : الخشني ، ص ١٩٨ ؛ والمالكي ، (٤٨٢/١) ؛ وعياض (٣٩٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية ، ٣٠٠ .

(١) المالكي ، (٤٨٥/١) ، وعياض ، (٣٩٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية ، (٣٠٠- ٣٠١).

(٢) ابن عذارى ، انظر أحداث سنة ٢٦٨ ، و٢٧٩ .

(٣) الدواميس جمع ديماس وهو الحمام ، ابن منظور (باب السين فصل الدال).

بذلك الناس والأرامل والأيتام ويجد فيه أهل الموسم من الغرباء والمرابطين المنقطعين إلى رب العالمين مرغوبهم ، لحله وقدم أجله وأرجو أن تخرج الذين حبستهم في السجون". وسرعان ما أجابه الأمير إلى جميع ذلك ، فقد أطلق سراح المحبوسين من السجن ، ثم بادر إلى ترميم الدواميس بما يناسب لما خصصت له وهيأها لتكون خزاناً عظيماً يستفيد السكان من مائة في زمن الشدة [١] .

وللأمير إبراهيم بن أحمد حادثة أخرى مع أبي عبدالله محمد بن أبي حميد [٢] تظهر تواضعه وتودده للدين ورجاله ، وهي أن إبراهيم قد أتى إلى سوسة وقد بلغه عن أهلها أذى فقال : أمضي إليها فأخربها وأهدم سورها وأغرب أهلها ، فوصل إليها في الليل فنزل في المسجد فاجتمع إليه الناس فقال لهم : هل عندكم من أحد يحفظ القرآن يخرج إلي؟ فخرج إليه محمد بن أبي حميد ، فسلم عليه ، وجلس معه ساعة ثم قال له : ما أتى بك ؟ فقال له بلغني أن أهل هذه المدينة تكلموا فيَّ بالقبيح وآذوني فجئت معتمداً لإخرابها واخراب سورها ، وعذاب أهلها ، فقال له ابن أبي حميد : يأذن لي الأمير أن اقرأ ، فقال له : اقرأ فقرأ بعد أن تعوذ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠] ، فبكى إبراهيم بن أحمد عند ذلك بكاءً عظيماً ثم قال : والله لا فعلت شيئاً مما كنت اعتقدت وركب من ساعته

---

(١) المالكي ، (٤٨٦/١) ؛ وعياض ، (٣٩١/٤) ؛ وحسن حسني عبدالوهاب ، ورقات ، ٦٣-٦٤.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أبي حميد المتعبد بسوسة ، سمع من سحنون وسمع بمكة من غير واحد، كان كثير التلاوة للقرآن ، كان دائماً يقول : " اللهم إن كنت تعلم أني عملت عملاً رضيته لك فأحرقني بالنار" .

انظر : المالكي ، (٥/٢) ؛ وعياض، (٤١٦/٤) ؛ والدباغ ، (٢٥٠/٢- ٢٥١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية ، ٣٣٢ .

راجعاً إلى القيروان [١] .

د - ضغط أهل الرباط على الأمراء :

لقد كان أهل الرباط يملكون نفوذاً قوياً مكنهم من التصدي للأمراء وإيقاف مشاريعهم إذا رأوا فيها مخالفة للدين أو جوراً على العامة . ومن ذلك أن محمد بن مقاتل العكي الذي أصبح أميراً على إفريقية في شهر رمضان عام ١٨١هـ [٢] أساء معاملة جنده وقطع عنهم رواتبهم فثاروا عليه، وناصبوه العداء ، إلى جانب انقلاب أهل القيروان علية نتيجة علاقته مع البيزنطيين في صقلية ، فقد قيل إنه لاطفهم عن طريق إرسال النحاس والسلع والجلود والهدايا الثمينة إليهم وشاع هذا الأمر بين الناس ، وقد حذره الفقيه البهلول بن راشد من إرسال هذه المواد التي تعتبر موارد عسكرية إلى أعداء الدين ، وهذا يدل على أن الفقهاء لم يقتصر عملهم على الناحية الدينية فحسب بل كانت لهم مواقفهم السياسية[٣] .

لذلك قام العكي بضرب بهلول بالسياط - ذلك العابد الزاهد - ضرباً أدى به إلى الموت [٤] . وقال أبو جعفر أحمد الكوفي الذي كان يسكن " المنستير" " كنا مع غزاة مع الخليفة وكنا معه من أهل الثغور اثنا عشر ألف فارس ، وكان يقضي لنا كل يوم حاجتين نكتب بهما إليه في رقعة يوصلها الحاجب إليه ، فلما بلغنا أن البهلول ضُرب بإفريقية تخلخل العسكر، فأتينا بأسرنا إلى باب الخليفة ، فقال لنا الحاجب : "اتقوا الله في دم العكي ليس يبلغ الخليفة أن العكي ضرب البهلول إلا قتله ، وكيف

---

(١) المالكي ، (٢/٩).

(٢) الرقيق القيرواني ، (١٧٠) .

(٣) ابن وردان ، **تاريخ مملكة الأغالبة** ، تحقيق محمد عزب ، (٣٠).

(٤) الرقيق ، (١٧٠) ؛ وابن عذارى ، (١/٨٩).

يضرب البهلول بإفريقية ، إلا أن يكون أهل إفريقية ارتدوا عن الإسلام ؟ ولكن اصبروا فإن صح الخبر رفعت أمركم ، فرجعنا من الغزو قبل أن يتبين لنا صحة الخبر"[١] .

ولم تكن المصاعب أقل تفاقماً ولا أقل خطورة من جانب الفقهاء ، فقد اجتهد ابن غانم قاضي إبراهيم الأول ، وكان ثرياً ، وسبق له أن تولى القضاء في فترة سبقت حكم إبراهيم في العمل على إهانة سيده الجديد - وقد قدر ملبوسه عند موته بألف دينار - وكان يرفض تارة مجالسته ويتحدى تارة أخرى جهاراً سلطته، ويمس بوضوح كرامته فمثلاً قدم إليه مرة إبراهيم الأول زجاجة ملئت سماً - لتذكره أنه اتهم بالمشاركة في تسميم إدريس الأول - وتباهى بثمنها ، وتسلمها القاضي وهشمها ببرودة على سارية، صائحاً : "فأترك معك ما يقتل الناس" فترك إبراهيم القاضي يوبخه صامتاً ساكناً [٢] .

أما عبدالله بن إبراهيم الذي خلف والده في الحكم ، فقد اشتهر عنه جمال الوجه وقبح الأفعال، وحدث أنه أراد مرة أن يحدث جوراً عظيماً على رعيته ، فأهلكه الله قبل ذلك ، ومن ظلمه أنه أراد قطع العشر حباً وجعله ثمانية دنانير للقفيز[٣] ، أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم فاشتد على الناس .

---

(١) المالكي (٢١٤/١) ؛ والدباغ (٢٧٧/١- ٢٧٨).

(٢) الرقيق ، ١٩٤ ؛ والدباغ ، (٣٠٣/١- ٣٠٤) ؛ والطالبي ، ١٥٣- ١٥٤.

(٣) القفيز بشكل عام يساوي صاع النبي ، أي ٤,٢١٢٥ لتر ، أما في القيروان فقد كان القفيز الواحد يساوي ٣٢ ثمناً كل ثمن ٦ أمداد من أمداد النبي يساوي ٢٠١,٨٧٧ ، ص ٤٢ ، وكان للقفيز القيمة ذاتها في تونس . انظر : فالتزهنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسيلي ، دليل الاستشراق ، ١٩٥٥م ، الطبعة الأولى ، جوتنجن (٦٦).

وبينما هو ماض في ظلمه وجوره على الناس ، قدم حفص بن حميد [(١)] - مع العلم أن المالكي وابن الأثير يذكران أن اسمه حفص بن عمر - على إفريقية ، ومعه قوم صالحون من الجزيرة قصدوا إليه فوعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين فتهاون بهم فخرجوا مهمومين يريدون القيروان ، وكان هو في القصر القديم ، فلما وصلوا وادي القصارين ، قال لهم حفص : " قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الخالق ، فسألوا المولى واضرعوا إليه في زوال ظلمه عن المسلمين فإن فُتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة " فتوضأ جميعهم وصاروا إلى كُدية مُصلى روح فصلى بهم حفص ركعتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ويريحهم من أيامه ، فيقال إن قرحة خرجت له تحت أذنه فقتلته في السادس من دعاء القوم ، وقال من حضر غسله إنه لما كشف عنه ثيابه ظن أنه عبد اسود بعد جماله ، وذلك بسوء فعاله ، وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة ٢٠١ فكانت دولته خمسة أعوام وأشهراً[(٢)] .

أما في عهد زيادة الله فقد مضى جماعة في عشر أنفس إلى أبي يونس [(٣)] بقصر الطوب وقالوا : اكتب لنا كتاباً إلى أم الأمير فإن زيادة الله الأمير أخذ مائتي رجل من أهل العلم والقرآن فأرسلهم إلى العسكر رماة فقال أبو يونس : ما نعرف الأمير ولا أمه إنما نعرف الله عز وجل ورسوله ، الليلة نسأل الله فيهم ويطلقون إن شاء الله تعالى

---

(١) حفص بن عمر الجزري ، كان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً ، ظهرت له إجابات وكرامات . انظر : المالكي ، (١/٣٣١- ٣٣٣) .

(٢) المالكي (١/٣٣٣) ؛ وابن عذارى (١/٩٥) ؛ وابن الأثير ، الكامل في التاريخ (/٤٣٣) ؛ والنويري ، (١٠٦/٢٤).

(٣) أبو يونس المتعبد بقصر الطوب واسمه نصير، كانت ولادته سنة ١٩٦هـ، وقد عاش مائة وثمان سنة، كان قليل الهيبة للسلطان، لا يخشى في الله لومة لائم، وبقي آخر حياته، لا يتكلم إلا بالقرآن ، وإذا لم يفهمه من يكلمه كتب إليه ما يريد . انظر : المالكي ، (٢/١٢٣) .

، وكانت ليلة جمعة فلما كان الليل قام أبو يونس فقال: يا أحمد يا محمد يا أبا القاسم ، يا خاتم النبيين يا سيد المرسلين ، يا من جعله الله رحمة للعالمين قوم من أمتك أتوني يسألوني في قوم صالحين أن يطلقوا فقد سألتك فاسأل الله فيهم، فلما صلى حزبه ورقد مر به النبي ﷺ في المنام فقال له يا أبا يونس قد سألت الله تعالى فيهم وغداً يطلقون إن شاء الله، فلما أصبحوا قال له يا سيدنا ما كان من الحاجة؟ فقال قد سألت النبي ﷺ فيهم ، فقال لي غداً يطلقون إن شاء الله عز وجل ، فلما كان يوم الجمعة دخلوا على زيادة الله بن الأغلب صاحب الجيش فسلموا عليه فرد عليهم السلام ، ورحب بهم وقال : يا أهل العلم والقرآن لعنة الله على ابن الصائغ[١] الذي وجهكم إليَّ قد تركتم كرامة لله عز وجل وللنبي عليه أفضل الصلاة والسلام[٢].

مع أن هذه الحادثة يشوبها شيء من المخالفة الشرعية - إذ أن الفقيه أبا يونس سأل الرسول ﷺ ، وهو ميت ، وحقق له الرسول ﷺ ما أراد - إلا أنه يستأنس بها حيث توضح عدم إذلال الفقهاء أنفسهم لأم الأمير أو الأمير نفسه .

واستمراراً لما كان يفعله أهل الرباط والفقهاء من ضغط على الأمراء ورفع الجور عن الناس ما فعله سحنون [٣] حيث رأى الناس يقبلون يد الأمير الأغلبي قال

---

(١) أبو محمد بن عبدالحميد بن محمد القروي ، المعروف بابن الصائغ قيرواني ، سكن سوسة ، كان فقيهاً نبيلاً زاهداً ، وله تعليق على المدونة أكمل به الكتب التي بقيت على التونسي ، توفي سنة مئتان وستة وتسعين للهجرة .

انظر: عياض ، (١٠٥/٨) ؛ ابن فرحون ، (٢٤/٢).

(٢) المالكي (١٢٤/٢- ١٢٥).

(٣) سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، من صليبة من العرب ، أصله شامي من حمص ، وأبو سعيد قدم مع الجند وهو من جند أهل حمص ، كان جامعاً للعلم فقيهاً ، اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره ، الفقه البارع والورع الصادق ، والصراحة في الحق والزهادة في الدنيا ، كان مالكياً وأخذ علمه عن ابن القاسم وكان من أعظم أساتذة جامع القيروان ، ولد سنة ١٦٠هـ، وتوفي سنة ٢٤٠هـ.
=

له : ولم تعط الناس يدك ليقبلوها ؟ لو كان هذا أمراً يقرب على الجنة ما سبقونا إليه[١] ، فنرى سحنوناً يخاطب الأمير وكأنه يخاطب أحد العامة ، ويرسل له رسالة أن الفقهاء أحرص إلى الجنة من كل الناس ، ولسحنون واقعة أخرى مع الأمير أبي إبراهيم أحمد بن محمد ، وذلك عندما عصى عليه أهل تونس فغزاها ، وسبا منهم خلقاً كثيراً ، فمنعه سحنون من التصرف في السبيات التونسيات ، فبعث الأمير أبو إبراهيم في ردهن ، فأقسم سحنون لا يردهن ما دام قاضياً إلا أن ترفع يده عن القضاء ، فكف عنه الأمير أبو إبراهيم [٢] .

وليس هذا هو الموقف الوحيد لسحنون الذي يتبين فيه ضغطه على الأمراء الأغالبة ، فقد ذكر عنه أنه قال للأمير : والله لو أعطيتني ما في بيت مالك ، ما سألني الله أن أقبل منك ذلك ، ولا أخذ منه شيئاً ولو أخذته لجاز لي ولكنه تورعاً.

وقال أيضاً للأمير : حبست أرزاق أعواني وهم أجراؤك ، وقد وفوك عملك، ولا يحل لك ذلك ، وقد قال رسول الله ﷺ : أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه[٣].

وكما فعل سحنون بالذين عاصروه من الأمراء الأغالبة فعل مرابطو سوسة ، حيث لم يكن بها شيء من المنكر، لا خمر ولا لهو ولا عزف ، وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات، وأن الأمير إبراهيم الثاني لما كان يوماً في قصره بسوسة أظهر تابعوه وحشمه شيئاً من اللهو والعزف بآلات الطرب ، ولم تمض سويعات حتى تقدم جماعة من مرابطي البلد وصلحائه مطالبين بإبطال

=

انظر: أبو العرب ، ١٨٤- ١٨٥ ؛ والمالكي ، (٣٤٥/١) ؛ وابن فرحون ، (٣٢/٢)؛ وابن خلكان ، (٨٦/٢) ؛ وابن كثير ، (٣٢٣/٩).

(١) ابن فرحون ، (٣٦/٢) .

(٢) عياض ، (٦٧/٤) ؛ وابن وردان ، (٥٨).

(٣) عياض ، (٥٩/٤).

تلك الملاهي التي تتنافى وآداب أهل البلد المنقطعين للمرابطة في الحصون . خرج هؤلاء المرابطون بعد أن اجتمعوا بالجامع وهم سبعون رجلاً ، فتوجهوا إلى قصر الأمير إبراهيم فملأوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع من تبعهم ، فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائماً من اللهو العزف فقيل ما تريدون ؟ قالوا نريد الأمير نجتمع به ، فقيل لهم : الأمير في شغل، لن تصلوا إليه في يومكم، فقالوا : عرفوه إنا لا نبرح من هنا حتى نجتمع به ، فدخل الحاجب إلى الأمير وأعلمه أن شيوخ سوسة كلهم بالباب يطلبون الاجتماع بك، فقال له الأمير: أخرج إليهم فانظر ما طلبوه فنفذ لهم ، فخرج الحاجب إليهم وقال : إن الأمير أمر بتنفيذ ما تحبوه فقالوا : " إنما جئنا إلى هذه المدينة وسكناها لله خالصاً ، وأحدثت علينا هذه الأمور من اللهو، والعزف فأما أن يقطع عنا هذا الأمر وإلا نخرج عنه وأرض الله واسعة " فعاد الحاجب إلى الأمير وأخبره بحديثهم فقال الأمير : ارجع إليهم وقل لهم : لن تروا ما أنكرتموه بعد هذا " فانصرفوا ، وخرج الأمير إبراهيم إلى خارج القصر فكان يخلو فيه ما يحب، فإذا قضى وطره رجع ليلاً إلى القصر [١] .

حاول إبراهيم بن أحمد التدخل في القرارات الدينية إذ أرسل رجلاً يقال له سحنون - وقد سماه أبوه سحنوناً تبركاً بالعالم سحنون بن سعيد - إلى جبلة بن حمود ، فقال له " الأمير يقول لك كرر الإقامة - يعني قبل الصلاة - وسلم اثنتين ولا تقنت في الصبح " فقال له جبلة : " مر يا شعل سماك جدك (سحنوناً) وأنت مسخوناً، الأمير لا يعلمنا أمر ديننا"[٢].

ومرة أتى لإبراهيم الأمير جماعة من خدمه فارادوا النزول في قصر الطوب ، وكان في القصر في ذلك الوقت سعيد بن إسحاق [٣] ، وأبو يوسف وجبلة ،

---

(١) حسن عبدالوهاب، ورقات عن الحضارة (٥٩- ٦٠) .

(٢) المالكي ، (٤٥/٢) .

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسحاق الكلبي ، ولد عام ٢١٢هـ ، رحل إلى مصر لطلب العلم ، أما من =

فمنعوهم من ذلك وأغلقوا باب القصر في وجوههم ، فبلغ إبراهيم الأمير فأتى إلى باب قصر الطوب وهو مغضب فقال : من هذا الذي منع عبيدي أن يدخلوا القصر؟ فارتاع أهل القصر لذلك وداخلهم من الجزع أمر عظيم ، فأتوا إلى سعيد بن إسحاق فعرفوه ، فتشرف من أعلى القصر وقال : من هذا ؟ فقال له أنا إبراهيم بن أحمد الأمير، فرفع سعيد صوته وقال : يا إبراهيم تركنا لك الدنيا كلها وانزوينا في هذا الثغر ، فجئت تؤذينا ! والله لئن لم تمر لأهلكت ، فمضى إبراهيم هارباً على وجهه حتى جاز القصر بأمر عظيم، فقال له الذين حوله مالك يا سيدنا ؟ فقال لهم : لما صال عليَّ سعيد بن إسحاق تلك الصولة ، حسبت أن الفحص [(١)] قد اشتعل ناراً عليَّ ، فما زلت كذلك حتى وقعت في هذا الموضع [(٢)] .

=

إفريقية فقد سمع من سحنون وآخرين كان ثقة متعبداً سريع الدمعة .

انظر: المالكي، (/١٢) ؛ والخشني ، (٢٠٧).

(١) الفحص هي الأرض الصلبة المستوية التي خلت من التراب ، انظر: ابن منظور (باب الصاد فصل الفاء) ، والبستاني (باب الفاء فصل الصاد) .

(٢) المالكي (١٥/٢).

ثانياً : الدور العسكري للرباط :

إن للرباط وساكنيه تأثيراً عسكرياً واضحاً من خلال ما انبثق عن الرباط من أشكال الأربطة والحصون والاستحكامات العسكرية ، وكيفية تسويرها إضافة إلى السيادة البحرية التي فرضت من قبل الأغالبة على بحر الروم (البحر المتوسط) وجزره وإن أوضح تأثير عسكري للرباط وساكنيه هي الفتوحات في صقلية وجنوب أوربا عموماً ، وسنأتي على ذلك كله بإذن الله . وأن لكلمة عسكرية أو عسكر معاني متعددة تصب في النهاية في معنى واحد ، حيث إنها كلمة فارسية تعني الجيش والعسكران هما الجيشان إذا اصطفا ، والمعسكر هو موضع التجمع [١] ، وأقل العسكر الجريدة ... ثم السرية ، وهي من خمسين إلى أربعمائة ، ثم الكتيبة ، وهي من أربعمائة إلى الألف ، ثم الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف .

كذلك الفيلق والجحفل ثم الخميس ، وهو أربعة آلاف إلى اثني عشر ألفاً والعسكر يجمعها [٢] .

---

(١) ابن منظور (باب الراء فصل العين) ؛ والبستاني (باب العين فصل الراء) ؛ والمقري (١٥٥).

(٢) الثعالبي ، (٧٤).

أ - العمارة الحربية :

لقد اهتم الأمراء الأغالبة بالعمارة الحربية كما تقدم ، مثل زيادة الله الأول الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء رباط سوسة ، وكان من قبله هرثمة بن أعين ، باني أهم أربطة إفريقية على الإطلاق (وهو رباط المنستير) . وقد بنى أبو إبراهيم أحمد نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس ، وأبواب الحديد ، وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات ، التي كان قد أقامها البيزنطيون على عجلة على تخوم الصحراء ابتداء من طرابلس شرقاً حتى نوميديا غرباً ، وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وأبراج تكاد تكون متصلة ، وكانت معظم بلاد قسطيلية محصنة بالقلاع المنيعة ، وقد عني الأغالبة بتحصين السواحل خوفاً من أن يطرقها الروم ، وأعظم أمراء الأغالبة الذين اهتموا بالأبنية الحربية الأمير إبراهيم بن أحمد - كما تقدم - الذي بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر ، حتى كانت النار توقد على سواحل سبتة للنذير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة [١] .

وبما أن الجهاد والمرابطة وجهان لعملة واحدة ، ألا وهي الدفاع عن المسلمين أولاً وبسط سيادتهم ثانياً ، فقد أنشأ المسلمون مدناً عسكرية ، يستخدمونها إما للهجوم إذا وجب أو للدفاع .

وتلك المدن الإسلامية لها أربعة تصانيف وهي :

١ - الثغور [٢] : وهي المدن الحصينة التي أنشئت على حدود الدولة الإسلامية ومنها ما هو على السواحل .

٢ – الرباط : وهي في الاصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب ومنها رباط

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم (٤٤٧ - ٤٤٨).

(٢) الثغور مفردها الثغر ، وهو ما يلي دار الحرب ، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . انظر : ابن منظور (باب الراء فصل الثاء) .

الخيل ، والرباطات هي المدن التي يرابط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن ، وحماية الدعوة الإسلامية دون أي مطمع مادي في الأجر ، أو المرتبات كما هو شأن الجنود المحترفين ، ولهذا فإن الرباطات يكون فيها عادة مواطنون يكسبون رزقهم من الأعمال العادية التي يمتهنونها وإذا دعى داعي الجهاد نفروا للحرب ، والرباطات عادة ما تكون على السواحل البحرية .

٣ - العواصم : ومفردها عاصمة وهي تعني المانع والحامي من عصمة وعاصم - ويذكر ابن منظور أن عاصم في كلام العرب تأتي بمعنى منع وحمى وحفظ - [١] والعواصم في الأساس لها صفة الدفاع والحماية .

٤ - العسكر : وهو مجتمع الجيش أو المكان المخصص لإقامة القوات المسلحة، ولفظة العسكر هي إحدى معاني القيروان وهي التي بناها عقبة بن نافع لتكون رباطاً [٢] .

والذي يهمنا في بحثنا من هذه المدن الأربعة ، الثغور ، والأربطة، والتي فيما يبدو أن بعض المؤلفين ، قد يخلط بينها ، فحينما كنت بصدد المقارنة بين الأربطة في المشرق والمغرب من خلال ما كتبه المؤلفون يتضح أن الأربطة في المشرق هي نفسها الثغور ، وذلك لأنه من خلال تتبع النواحي العسكرية في المشرق يتضح أن أهل تلك الأربطة كانوا هم المبادئين بالهجوم أحياناً، إضافة إلى أن جيش العدو كان يقف على مقربة منهم دون أي حواجز طبيعية ، إضافة على أن تلك الأربطة كانت تخلو من الزهاد والعباد ، فهذه الأمور كانت تختلف في كثير من جوانبها مع معنى المرابطة الذي ذكره عبدالله بن عمر رضي الله عنهما والذي أشرت إليه سابقاً ، إضافة إلى الاختلاف الواضح في نشاط المؤسستين العسكريتين (الثغر - الرباط) .

---

(١) ابن منظور (باب الميم فصل العين).

(٢) ابن عذارى (١/٣١) ، وحيان صيداوي ، **الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية**، دار المتنبي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٢م ، (٧٨) .

بالإضافة إلى المدن العسكرية الآنفة الذكر ، فإن هناك تحصينات صغيرة وأخرى مؤقتة تقوم بدور الداعم لتلك المدن العسكرية الرئيسة ، فمن تلك التحصينات ، ما ما يطلق عليه الاستحكام العسكري [١] ، وهو منشأ من التراب مرتفع عن سطح الأرض ، يقام عليه المتراس ، ومن فوائده أنه يمكن العساكر من أن تشرف على الأرض خارج الحصن ، ويوفر الموانع التي تحول دون الهجوم ؛ لأنه يزيد ارتفاع جدار الخندق ، والسطح وراء المتراس تكون فيه أسباب اتصال موافقة للعساكر ، ويبنى الاستحكام بحيث يستتر به العساكر والمدافع ، ويسهل إطلاق المدافع والبنادق ، والخندق يزيد الموانع في وجه العدو ويحصل بحفره على تراب لإنشاء الاستحكامات والمتاريس ، ويحاط بابنية حجرية لإكسابه متانة وثبوتاً [٢] .

أما التحصينات المؤقتة فهي نوعان ، أحدهما للدفاع عن المركز ، والآخر للحمل عليه ، والمقصود منها الاستتار من مدفوعات المنجنيق ، وإلقاء الموانع في سبيل تقدمه ، وتمكين المحمول عليهم من استعمال سلاحهم على وجه يفي بالمطلوب ، وقواعد إنشائها كقواعد إنشاء الحصون الثابتة ، والفرق بينهما في الاتساع والقوة وسماكة الجدران وارتفاع المتاريس وعمق الخنادق واتساعها ، وتكون سماكة الجدران غالباً زائدة نصفاً عن السماكة التي تخترقها المدافع . وقد تبنى بناء متيناً بحيث تكون قريبة من التحصينات الثابتة وتكون على ثلاثة أنواع ، أحدها للدفاع أمامها والثاني للدفاع الأمامي والجانبي ، والثالث للدفاع عن جميع جهاتها ، فالحصن أو الاستحكام المؤلف من خط واحد بسيط ، أو من وجهين وتكون الجهة الخلفية منه مفتوحة هو من النوع الأول ، ويبنى أمام معبر أو في جانب جسر أو للمدافعة عن مركز حراسة خارجي ، حيث لا ينتظر الهجوم إلا من الأمام. فالنوع الأول إذا كان ذا

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٩٢/٧) (مادة عسكر).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٩٢/٧) (مادة عسكر) .

استحكامات جانبية يكون من النوع الثاني ، والثالث يكون كثير الزوايا دون زوايا داخلة كمربع مهيأ في جميع الجهات للدفاع وقد تشيد متباعدة في خط واحد مستمر أو منقطع .

وينبغي أن تكون هذه التحصينات بسيطة سهلة البنا. وهذه الحصون لا يتم بناؤها إلا في ايام ، أو اسابيع ، فإذا نشب القتال دون وقت كاف لإنشائها يكتفى بإنشاء تحصينات لمنع تقدم العدو أو ستر العساكر ، أو تقوية النقط الضعيفة، ويتم بناؤها في زمن قصير ، أي من ساعة إلى ثلاث ساعات ، وهي لاتبنى ولا تقام في المراكز الموقوفة للدفاع فقط ولكن في وسط ميدان الحرب أيضاً [(١)] .

وبعد الحديث عن المدن العسكرية والتحصينات بأنواعها يتبين لنا التطور المعماري والتقني بتلك المؤسسات العسكرية لكن هذه المؤسسات، بعد فترة من الزمن أخذت تتحول شيئاً فشيئاً من النشاط الديني المقرون بالنشاط العسكري إلى النشاط الديني فقط ، وذلك في القرنين الخامس والسادس الهجريين اللذين يوافقان الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين حيث أصبحت تلك الأربطة أماكن لمزاولة الأنشطة الصوفية وأصبحت تكايا وزوايا للدراويش.

وقد تكون أهم تلك الأسباب التي أدت إلى ذلك التحول هي :

١ - توقف حركة الفتوحات .

٢ - سيطرة بعض الأجناس غير العربية على مقاليد الحكم في الدولة العباسية .

٣ - دخول كثير من الأمم وأهل الديانات المختلفة كالنصارى واليهود والهندوس والمجوس بمذاهبهم المتعددة في الإسلام [(٢)] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٩٥/٧) (مادة عسكر) .

(٢) بلبع ، (٦٢).

ب – دور أهل الرباط في فتح جزائر البحر المتوسط :

لقد ساهم الرباط وساكنوه مساهمة واضحة في الفتوحات الإسلامية في الفترة موضع الدراسة حيث كان الرباط ممولاً أساسياً للحملات العسكرية التي تُشن على الروم .

أولاً : فتح صقلية :

إن أكثر ما يتضح به ذلك فتح المسلمين لصقلية ، زمن زيادة الله الأول سنة ٢١٢هـ على يد قاضي القيروان وفقيهها أسد بن الفرات ، فقد استطاع المسلمون فتح صقلية وضمها إلى أملاك الدولة الأغلبية . ولكن ذلك الفتح لم يكن أول غزو لصقلية ، فإن المسلمين أثناء ولاية معاوية بن حديج على أفريقية سنة ٤٥هـ غزو صقلية وأخذوا منها الغنائم [١] أثناء ولاية زيادة الله الأول . ثم غزا المسلمون صقلية مرة أخرى في عام ١٠٥هـ [٢] وذلك في أيام الوالي بشر بن صفوان [٣] .

أسباب الفتح :

هناك مجموعة من الأسباب كانت الدافع الأساسي وراء فتح صقلية وهي :

١- يمكن اعتبار غزوة صقلية سنة ٢١٢هـ بمثابة محاولة للقضاء على غارات الروم وعودة سياسة غزو أراضي الروم ، وهي السياسة التي جرى عليها ولاة بني أمية .

٢- كانت صقلية بالنسبة للمسلمين تشكل خطراً كبيراً فأراد المسلمون فتحها للتخلص من الخطر البيزنطي وفتح جبهة على الروم في جنوب البحر

---

(١) البلاذري (٣٢٩) ؛ وابن عذارى (١/١٨) .

(٢) ابن عذارى (١/٤٩) .

(٣) بشر بن صفوان بن تويل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شراحيل بن عزيز بن خالد ، ولي إفريقية سنة ١٠٣هـ أثناء حكم يزيد بن عبدالملك فاستصفى بقايا آل موسى بن نصير ولما كانت ولاية هشام بن عبدالملك أقر بشراً على ولايته. انظر : ابن عذارى (١/٤٩) .

المتوسط لتخفيف الضغط على الدولة العباسية ، ويضاف إلى ذلك ما كانت عليه صقلية من وفرة الغنائم . في الوقت الذي أقفرت بلاد إفريقية من هذه الغنائم ، كذلك كانت صقلية تمثل أراض جديدة يمكن فتحها واستغلالها .

٣- هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله، ولا ننسى أن أهل إفريقية كانوا قد تفقهوا في الدين الإسلامي وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم وكان الخروج لمدافعة الروم في صقلية أقصى ما يتمناه العابدون والصالحون ، ولا شك أن موافقة زيادة الله على اختيار القاضي أسد بن الفرات ، قائداً للحملة يعبر أصدق تعبير على روح الجهاد المسيطر على الفاتحين فلقد ولاه زيادة الله القضاء ، وأمره على الجيش، فخرج معه أشراف إفريقية من العرب، والجند والبربر، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر .

٤- أراد زيادة الله أن يظهر أمام رعيته بمظهر المجاهد المثابر في سبيل الله ليكسب بذلك قلوبهم ، ويوطد مكانته ومنزلته في نفوسهم .

٥- عانى زيادة الله كثيراً من ثورات جنده وفتنهم المتعددة، فأراد أن يكسر شوكتهم، ويتخلص منهم بإشراكهم في هذه الغزوة .

٦- ويذكر أن قائد الأسطول الرومي بصقلية " فيمي" ثار على الإمبراطور " ميخائيل " الثاني واستولى على سرقوصة ثم أعلن نفسه ملكاً على صقلية ، ولكن أتباعه خرجوا عليه وتفرقوا عنه ، وتمكن والي مدينة بلرم من هزيمة " فيمي" ، والاستيلاء على سرقوصة ، فركب فيمي ومن معه سفنهم وتوجهوا إلى إفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجد به ويعده بملك جزيرة صقلية ، فاستنجاد فيمي بزيادة الله كان سبباً مباشراً في

إغراء زيادة الله على فتح هذه الجزيرة [١] .

وهناك عاملان آخران جعلا المسلمين يفكرون جدياً في فتح صقلية ، هما أن صقلية أصبحت ملتجأً لأعداء الدولة الإسلامية ، إضافة إلى ذلك أن صقلية صارت مركزاً من مراكز الأسطول البيزنطي الذي كان ما يفتأ يهدد السواحل الإسلامية عموماً وإفريقية بوجه خاص [٢] .

الاحتفال بخروج اسد بن الفرات إلى صقلية :

جمع زيادة الله جيوشه وأمر ألا يبقى أحد من رجاله إلا أن يأتي ليشيع أسد بن الفرات الذي ركب بدوره من القيروان بين عشرة آلاف من الرجالة وسبعمائة من الفرسان فكان ذلك المشهد عظيماً ، حيث صهيل الخيل وقرع الطبول وخفق الرايات حتى وصل الجميع فرضة القيروان استعداداً للإبحار ، ألا وهي مدينة سوسة [٣] .

فلما رأى أسد بن الفرات تلك الجموع خطب خطبة قال فيها : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يا معشر الناس ، والله ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط ، ولا أحد من سلفي رأى هذا قط ، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام ، فاجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، واصبروا على شدته فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة "[٤] . وهكذا اجتمع في أسد بن الفرات الجهاد والعلم النافع وهما من ضرورات الرباط .

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم ، (٣٨٦/٢) ، والسيد عبدالعزيز سالم وأحمد مختار عبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣م (٩٩- ١٠٢) .

(٢) سعد زغلول ، (٢١٠/٢) .

(٣) المالكي ، (٢٧٢/١) ؛ والدباغ ، (٢٣/٢) ؛ ومحمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر، بيروت ، (١١٩) ؛ والسيد عبدالعزيز سالم ، وأحمد مختار عبادي ، (١٠٥) .

(٤) المالكي ، (٢٧٢/١) ؛ومحمد بن محمد مخلوف ، (١١٩) ؛ الدباغ ، (٢٣/٢).

حجم حملة أسد بن الفرات :

كان أسد يشرف على رجال الحملة الذين بلغ عددهم سبعمائة فارس بخيلهم ، وعشرة آلاف راجل ، ويذكر أنهم انتظموا في مراكبهم التي بلغت مائة مركباً قبل صباح يوم السبت الموافق للنصف من شهر ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/١٤ يونيو ٨٢٧م ، حينما أعطيت الإشارة للأسطول بالإقلاع وذلك في خلافة أبي عبدالله المأمون .

وهذا يعني أن حمولة المركب كانت مائة رجل دون النواتي [(١)] ، ويقال إن رجال الحملة كانوا يتكونون من أشراف إفريقية ، من العرب والجند والبربر ، والأندلسيين وأهل العلم والبصائر وذلك يعني أن العرب الذين شاركوا في الحملة كانوا من سلالة القرشيين ، وعرب الفتوح الأولى في إفريقية الذين عرفوا بالبلديين ، إلى جانب التميميين من أقارب الأغالبة ، أما الجند فالمقصود بهم عسكر الأمير وفتيانه من الصقالبة ، ومن السودان وأما بربر إفريقية فلا بأس أن يكونوا جماعات من هوارة طرابلس ونفزاوة ، ومن قبائل الزاب وبضمنهم كتامة ، أما الأندلسيين فالمقصود بهم كما نرى أولئك الذين كانوا قد استقروا في إفريقية ، ومنهم من كان من أهل العلم والبصائر الذين ساهموا في هذا الجهاد وهم غير الأندلسيين من الغزاة البحريين ، أما عن مراكب " فيمي" التي لا تشير إليها الرواية في تلك الرحلة ، فأغلب الظن أنها سارت بصحبة أسد [(٢)] . الذي وصل إلى صقلية فافتتح كثيراً من مدنها بعد حروب

---

(١) النوتي : هو الملاح الذي يدير شؤون السفينة ، وجمعها نواتي ، وهي من كلام أهل الشام. انظر : ابن منظور (باب التاء فصل النون) .

(٢) ابن عذارى (١٠٢/١) ؛ وسعد زغلول ، (٢١٨/٢)، والسيد عبدالعزيز السالم وأحمد عبادي ، (١٠٥) .

خاضها ضد أهل تلك البلاد ، ومن تلك المدن سرقوسة [١] ، وبلرم[٢] . فأتت قوات من القسطنطينية فحصروا المسلمين ، واشتد بهم الوباء فمات خلق كثير منهم أسد نفسه [٣] .

---

(١) سرقوسة هي أعظم مدن صقلية على الإطلاق ، وبينها وبين الجزيرة الرئيسة ممر بسيط ، وسرير الملك واقع بها ، وهي مدينة كبيرة ذات حصون منيعة ومراسي عظيمة ، انظر : ياقوت (٣/٢١٤) ، والحميري (٣١٨) .

(٢) بلرم بلغة أهل البلاد تعني المدينة وهي عظيمة وكانت مقر السلطان أيام المسلمين والروم ، يقال أن بها قبر أرسطو طاليس الذي يستشفي به النصارى ، وقد كثرت بها المساجد والحمامات ، انظر : ياقوت (١/٤٨٣) ، والحميري (١٠١) .

(٣) ابن عذاري ، (١٠٣) ؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (٥/٤٣٦) ؛ والنويري ، (٢٤/١١٥) .

نتائج فتح صقلية :

ويمكن تلخيص نتائج فتح صقلية حسب ما ورد عند محمد محمد زيتون [(١)] في النقاط التالية :

١- أصبح مفتاح حوض البحر المتوسط الغربي في أيدي المسلمين ، حيث أصبح المسلمون مسيطرين على صقلية من جهة والأندلس من جهة أخرى .

٢- صار الأسطول الإسلامي يتمتع بقاعدة هامة في البحر التيراني الذي تطل عليه إيطاليا .

٣- أصبح للأمراء الأغالبة بسبب تلك السيطرة البحرية تدخلاً واضحاً في المنازعات التنافسية بين أمراء إيطاليا .

٤- فتح جزر في البحر المتوسط من أهمها جزيرة مالطة [(٢)] .

٥- دمج سكان إفريقية الأصليين بسكان جزر البحر المتوسط التي فتحها الأغالبة [(٣)] .

ثانياً : غزو إيطاليا :

من أهم الغزوات التي قام بها المسلمون خلال حكم الأغالبة غزو إيطاليا وخصوصاً مدينة (رومة)[(٤)] ، عاصمة المسيحية ، فإنه في عام ٢٣٢هـ سير الأمير

---

(١) محمد محمد زيتون ، المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م (١٣٥-١٣٧).

(٢) مالطة جزيرة بينها وبين صقلية مجرى بسيط كان الروم هم سكانها الأصليين ، وبها مدينة من البنيان الأول انتدب إليها أسد بن الفرات قائده خلف الذي افتتحها والذي كان مشهوراً عنه الإكثار من بناء المساجد . انظر : الحميري ، (٥٢٠) .

(٣) محمد محمد زيتون (١٣٥- ١٣٧) .

(٤) رومة أو روما : هي عاصمة الدولة الرومانية وعاصمة إيطاليا الجديدة يسميها الجغرافيون العرب رومية ويصفونها بأنها : مدينة رياسة الروم وعلمهم وتنسب إلى رومي من نسل نوح عليه السلام ، =

الأغلبي أبو العباس حملة بحرية لمهاجمة إيطاليا فوصلت القوات إلى نهر (التبري) ومنه انتشروا في البلاد القريبة لذلك النهر، وكان أشهر تلك المدن على الإطلاق مدينة روما التي احتلوها واحتلوا الحصون المجاورة لها ، وسيطروا على الكنيسة الكبرى المنسوبة للقديسين (بطرس وبولس) وكانت القوات الإسلامية قد أقامت لها رباطاً صغيراً بالقرب من مصب نهر (التبري) للاستفادة منها في مراقبة الروم ، ويكون لهم مثابة نقطة ارتكاز في المنطقة [١] .

وفي واقع الأمر إن هذه الحملة ما كانت إلا رد فعل للمهاجمة الشنيعة التي دبرها سكان أواسط البلاد الإيطالية ضد الساحل التونسي قبل هذا التاريخ بسنة أو سنتين ، فقد باغتوا شواطئ الساحل ليلاً وأحاطوا بالسكان بغتة في منازلهم المتفرقة عن بعضها ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ، ساقوهم عبيداً أرقاء وأقلعوا بهم إلى بلادهم حيث باعوا جانباً وافراً منهم في أسواقهم الكبيرة ، علاوة على ما نهبوه من الأرزاق والأقوات [٢] .

= وهي تقع شمالي غربي قسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر ، وهي بيد الفرنجة وبها مقر البابا الذي هو بمثابة الإمام للروم الذين يقال أن ملوكهم إذا كانوا في حضرة ذلك البابا انبطحوا في الأرض وقبلوا رجله ولا يزالون كذلك حتى يسمح لهم بالقيام . انظر : ياقوت (١٠٠/٣) ، والحميري ، (٢٧٥) .

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى بيروت (٢٩٨) وحسن عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس (٨٣) وحسن عبدالوهاب ورقات (١١٤/٢) .

(٢) حسن عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس (٨٤) .

غزوة إيطاليا أثناء حكم إبراهيم بن أحمد :

ورد على إبراهيم خطاب الخليفة (المعتضد العباسي) محتوياً تقليد الولاية إلى ابنه (أبي العباس عبدالله) فامتثل إبراهيم إلى الأمر وسلم المقاليد إلى ابنه ، ثم حشد الناس لغزو بلاد الإفرنج ، وركب من سوسة سنة (٢٨٩هـ/٩٠٢م) في جيش جرار يحمله أسطول عظيم وسار إلى صقلية وعبر مجاز " مَسِينة [(١)] " ودخل أرض إيطاليا الجنوبية ، فلاقاه سكانها بالطاعة وبالجزية وأثناء سيره في تلك المناطق أصابه رمح قاتل، وقيل مات بعلة مزمنة ، ويُروى أن إبراهيم هذا كان قاصداً رومة ثم القسطنطينية ، لولا انقضاء أجله المحتوم ، وقفل المسلمون به إلى صقلية ، فدفنوه بقاعدتها " بلرم" وبُني على قبره قصر [(٢)] .

---

(١) مسينة وتكتب أحياناً مسيني وهي بليدة صغيرة بالقرب من صقلية ، لها مرسى تبحر منه المراكب ، وفيه حصن يقيم به الجنود البريين والبحريين وتشرف على المضيق الذي يفصل صقلية عن الأرض الإيطالية اليابسة . انظر : الإدريسي ، (٧٥٧/٢) ، وياقوت ، (١٣٠/٥- ١٣١) .

(٢) شكيب أرسلان ، (٢٩٩) ، وحسن عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، (٨٩) .

ج - النشاط البحري :

مما سبق من فتوحات وغزوات لصقلية وإيطاليا يتضح أن البحر والجزر الواقعة فيه كانت المسرح الذي جرت عليه الأحداث، لذلك لابد من الحديث ولو بشيء من الإيجاز عن البحرية الإسلامية في إفريقية وصولاً إلى تاريخ الأغالبة وسبب تفوقهم في ذلك .

فقد لجأ المسلمون إلى تحصين السواحل بالأربطة التي زودت بالقلاع والمراقب والمناور ، كما عمدوا إلى نقل أهالي البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ، ومنحوهم فيها الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة ، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى .

وقد اعتمد المسلمون على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها ، التي ثبت أنها أفضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال، وأول من اعتمد هذه السياسة هي الدولة الأموية ، عند تعمير سواحل إفريقية، ويُروى عند الكلام عن تأسيس مدينة تونس أن الخليفة عبدالملك بن مروان كتب إلى أخيه عبدالعزيز والي مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهلهم وأولادهم ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى تونس ، وكتب إلى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبني لهم دار صنعة تكون قوة وعدة للمسلمين ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر [1] ؛ وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغيروا منها على ساحل الروم وقد نفذ حسان أوامر الخليفة ، وأنشأ هذه القاعدة الحربية الإسلامية الجديدة التي عرفت بميناء تونس ، والتي صارت تخرج منها أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر المتوسط، وهكذا أصبحت إفريقية مركزاً

---

(١) أحمد مختار عبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، (٣) .

بحرياً إلى جانب الشام ومصر [١] .

وبعد سقوط الدولة الأموية انحصر النشاط البحري بين الأغالبة والبيزنطيين ، فلم يحفل ولاة إفريقية من قبل العباسيين بشئون البحر المتوسط ، لما شغلت به الخلافة من مشاكل في الشرق ، على حين زاد نشاطها في الخليج العربي وبحر العرب وبحار الهند ، هذا فضلاً عن انشغال الولاة بالثورات ، فأخذ البيزنطيون زمام المبادرة لتلك الأسباب الآنفة الذكر ، فهاجموا السواحل الإفريقية ، فتوقفت التجارة البحرية بين إفريقية ومصر واعتمدوا على التجارة البرية ، ولما لم تفلح جهود الولاة في ردع المغيرين عمد المجاهدون من النساك والصالحين إلى إقامة الرباطات والمحارس على طول ساحل البلاد ، وشكلوا خطأً دفاعياً قوياً حال دون توغل الأعداء إلى الداخل طلباً للغنيمة والسبي [٢] .

وكان قيام دولة بني الأغلب في إفريقية ، بداية تحول في العلاقات الإفريقية البيزنطية ، فتسنى للبلاد التمتع بالاستقرار السياسي الذي حرمت منه طويلاً ، وأصبح الولاة قادرين ليس فقط على صد غارات البيزنطيين بل والقيام بحملات مضادة على مراكزهم البحرية والاستيلاء عليها ، فقد اندفع إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م بغزوة بحرية كان الهدف منها تضييق الخناق على القسطنطينية [٣] ، مما جعل البيزنطيين يعقدون معه معاهدة سلم مدتها عشر سنوات ، واستمرت تلك المعاهدة حتى أيام زيادة الله الأول الذي غزا صقلية كما ذكر سابقاً [٤] . إلا أن ابن عذارى يذكر أن الحملة كانت سنة ١٨٨هـ .

---

(١) أحمد مختار عبادي ، تاريخ المغرب والأندلس ، (٣- ٤) .

(٢) محمود إسماعيل ، (١٨١- ١٨٣) ، وأحمد شلبي ، (٣١٨/٤) .

(٣) محمود إسماعيل (١٨١) وأحمد شلبي (٣١٨/٤) .

(٤) ابن عذارى (٩٣/١) ؛ ومحمود إسماعيل ، ١٨١- ١٨٣ ؛ وأحمد شلبي ، (٣١٨/٤) .

فتفوقت البحرية الإسلامية من أيام ذلك الأمير تفوقاً واضحاً وذلك لعوامل هي :

أولاً : طبيعة بلاد المغرب عامة وإفريقية بوجه خاص حباها الله بالمقومات الأساسية لتقوم بدور بحري هام، فإن شكل الساحل التونسي ، ووضع البلاد الجغرافي وامتداد سواحلها على مسافة تصل إلى نحو ١٤٠٠كم متصلة في الشرق بسواحل ليبيا التي تمتد بدورها مسافة تصل إلى ١٩٠٠كم تقريباً ، وبسواحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الأطلسي في شريط طويل ، وكثرة خلجانها وجزرها البحرية الحامية للسواحل ، بالإضافة إلى موقعها المركزي في حوض البحر المتوسط حتم عليها القيام بهذا الدور[١] .

ثانياً : سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة أمام الساحل المغربي الأندلسي .

ثالثاً : توافر المواد اللازمة لصناعة السفن.

رابعاً : اتصال المغرب والأندلس بالمشرق الإسلامي علمياً واقتصادياً [٢] .

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي (٤٧- ٤٨) .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي (٥٧) .

مواقف بعض الفقهاء من الجهاد :

لقد سجل بعض المؤرخين أقوالاً وأفعالاً نسبوها إلى بعض الفقهاء المرابطين تدور في فلك الجهاد والنواحي العسكرية ومن ذلك ما قاله البهلول بن راشد ، حيث قال : " ما أعمال البر كلها عند الجهاد في سبيل الله تعالى إلا كبصقة في بحر ، وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم إلا كبصقة في بحر " (١) وهكذا كان الجهاد والعلم يمتزجان امتزاجاً ، وهذا ما تمثل بشكل رائع في إسناد حملة صقلية إلى أسد بن الفرات ، الذي بجانب علمه وفقهه كان يعد واحداً من الشجعان كذلك ظهر الارتباط الوثيق بين العلم والجهاد في رباطات السواحل ومحارسها ، وأشهرها رباط المنستير قرب سوسة ، حيث انصرف المرابطون إلى أعمال الزهد والعبادة ، وأخذ العلم عن المشايخ الذين كانوا يلجأون في أوقات معينة إلى ربطهم وذلك في وقت فراغهم، وهم في انتظار مجاهدة العدو ، إذا ما فكر في النزول في ثغرهم (٢) .

ولقد كان الزهاد يتعرضون أحياناً لمواقف تجعلهم ربما دخلوا في جهاد العدو وحدهم ، أو بأناس قليلين ، وذلك كما حدث لمحمد بن سحنون (٣) حيث خرج من القيروان إلى " قصر الطوب " للعبادة وحراسة المسلمين ، فنزلت سفن الروم بساحل ذلك البحر فضربوا على منازل المسلمين ، فتصايح الناس ، ولم يكن مع محمد ابن سحنون إلا بغل ، فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الروم من المسلمين بغيتهم ، فتلقد بسيف وأخذ رمحاً ودرقة ، وركب ذلك البغل الذي كان معه ، واجتمع إليه الناس في جماعة من المرابطين ، ومن يقرب من القصر من أهل

---

(١) أبو العرب (١٢٩) ؛ والمالكي (٢١١/١) ؛ وسعد زغلول ، (٥١٥/٢) .

(٢) سعد زغلول ، (٥١٥/٢) .

(٣) محمد بن سحنون بن سعيد ، تفقه بأبيه وسمع من أبي حسان وموسى بن معاوية وغيرهم كان إماماً في الفقه ثقة وكان عالماً بالذب عن مذاهب أهل المدينة . انظر : المالكي (٤٤٥/١) ؛ والدباغ (١٢٢/٢) ؛ وابن فرحون (١٥٥/٢) ؛ والطالبي تراجم أغلبية ، ١٧٤.

البوادي التي حوله ، وتمادى بمن معه إلى الروم فوجدهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم فكبر عليهم هو ومن معه ، وقد ناشبوهم القتال فهزمهم الله على يديه وقتل منه مقتلة عظيمة ، وأتبعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هاربين ، فحلف محمد بعد ذلك أنه لن يخرج إلى الحرس إلا بفرس [١] .

إضافة إلى ما سبق ، فإن بعض المرابطين كان يربي أولاده على الجهاد ، ويعطيهم ويعطي نفسه تدريبات عسكرية متواصلة ومن ذلك ما كان يفعله أبو سعيد خلف بن محمد اليحصبي [٢] حيث كان يخرج بابنه للمرابطة بقصر سهل ، فكان يقوم بالناس كل ليلة في شهر رمضان ، ويجتمع خلفه جماعة فيُسمع البكاء والشهيق من كل مكان ، ولم يكن يتكلف في قراءته ، وكان يحسن الفروسية ، مولعاً بشراء الخيل ، ويخرج إلى الرباط بها لحراسة المسلمين والسياحة على البحر ، وكان ربما خرج من سوسة هو وجماعة معه ، فيقفون صفاً واحداً كأن العدو بين أيديهم ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس [٣] .

أما جهاد (جبلة بن حمود الصدفي) المشار إليه سابقاً ، فلم يعرف أحد أكثر مجاهدة للعبيديين منه ، ذلك لما دخل عبيدالله إفريقية ، ونزل رقادة ترك جبلة سكنى الرباط ونزل القيروان فسئل في ذلك فقال : " كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، والآن حل هذا العدو بساحتنا ، وهو أشد علينا من ذلك ، فكان إذا أصبح وصلى الصبح خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقادة ومعه سيفه وترسه وقوسه وسهامه وجلس محاذياً لرقادة نهاره إلى غروب الشمس ثم يرجع إلى داره ويقول أحرس

---

(١) المالكي ، (٤٤٦/١- ٤٤٧) ؛ وحسن حسني عبدالوهاب ، ورقات ، (٩٣/٢) .

(٢) أبو سعيد خلف بن محمد بن جرير السرتي اليحصبي سمع من أبي بكر محمد بمصر وسمع بالقيروان من عبدالجبار بن خالد صاحب سحنون كان كثير المرابطة محباً للفروسية من أفضل الناس صوتاً في قراءة القرآن دون تكلفة . انظر : المالكي ، (١٩٥/٢) .

(٣) المالكي ، (١٩٦/٢) .

عورات المسلمين منهم ، فإن رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم ، وكان ينكر على من خرج من القيروان إلى سوسة ونحوه من الثغور ويقول جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك . ولما دخل أبو عبدالله الشيعي القيروان ، وخطب أول جمعة ، وجبلة حاضر ، فلما سمع كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه ، حتى رآه الناس ، وخرج يمشي إلى آخر الجامع ، ويقول قطعوها قطعهم الله ، فما حضرهم أحد من أهل العلم بعد هذا[١] .

وعلى كل حال فإن معظم الفقهاء الذين عاصروا هجوم العبيديين على إفريقية ، كانوا خير المجاهدين وأفضل المحرضين على قتال ذلك العدو ، ومن ذلك ما فعله زيادة الله الثالث ، حيث رفع فقهاء إفريقية إلى مدينة تونس مستظهراً بهم على أبي عبدالله الشيعي ، فاجتمعوا عند عبدالله بن الصائغ [٢] صاحب البريد وتفاوضوا في أمره ، وقال لهم ابن الصائغ : " إن الأمير يقول لكم هذا الصنعاني الخارج علينا يلعن أبابكر وعمر (رضي الله عنهما) ويزعم أن أصحاب النبي ﷺ ارتدوا بعده ، ويُسمي أصحابه المؤمنين ومن يخالفه في مذهبه بالكافرين ، ويبيح دم من خالف رأيه " فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه وحرضوا الناس على قتاله ، وأفتوهم بمجاهدته ، وأرسل زيادة الله هدية للخليفة العباسي ، عبارة عن آلاف من المثاقيل الذهبية ، وكتب في كل مثقال هذين البيتين :

يا سائراً نحو الخليفة قل له	أن قد كفاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبدالله سيف	الله دون الخليفة سله [٣]

---

(١) عياض ، (٣٧٦) .

(٢) ولاه زيادة الله ابن أبي العباس الوزارة والبريد ولما هرب زيادة الله من وجه أبي عبدالله الشيعي ركب عبدالله في البحر يريد المشرق فألقاه البحر بمدينة طرابلس وبها زيادة الله فأشار عليه أصحابه بقتله فقتله سنة ٢٩٦هـ . انظر : ابن عذاري ١٤٩ .

(٣) ابن عذاري ، (١٣٧/١) .

الفصل الثالث

الدور الاقتصادي والاجتماعي والعلمي للرباط في إفريقية

الفصل الثالث

الدور الاقتصادي والاجتماعي والعلمي للرباط في إفريقية

لقد كان الحديث في الفصل السابق يدور حول النشاط السياسي للرباط، أما في هذا الفصل فسأتناول النشاط الحضاري للرباط ، - ولا أقصد الحضارة العمرانية إنما النتاج الفكري - وذلك عن طريق ثلاثة مباحث ، كما هو واضح في عنوان الفصل ، ولكن قبل أن أدخل في صلب الفصل أرى أنه من الجدير أن أتعرض لمفهوم الحضارة ولو بشيء من الإيجاز .

فالحضارة هي نتاج عدة عناصر منها العنصر الثقافي وما يعطيه الفكر والوجدان من عاطفة وفلسفة وعلم وفن ، ومنها عنصر المدينة وما يساهم به من تفاعل الإنسان مع البيئة وتحديه للمحيط والزمان والمكان ، وحركة التاريخ ، فهي كالواجهة الأمامية للحركة الثقافية المتأججة وراء كل عمل إنساني وإنتاج بشري ، وما يؤثر في نمو الحضارة من تعاقب الأزمان وبين البيئة المتفاعلة مع الإنسان في حوار وصراع مستمر ، ومهما كان نوع البيئة فإن كل عمل إنساني يتحدى به العجز والاستسلام ويظهر وجوده يبدو واضحاً فيما نطلق عليه اسم الحضارة [١] .

فالحضارة الإسلامية الأصيلة جاءت في الأمور التي لم يستطع العقل البشري أن يصل إليها بنفسه ، وقد جاءت في نظم السياسة والاقتصاد والتشريع والأخلاق. وكانت الأخلاق مثار خلاف كبير بين الناس ، فالعدل اعتبره بعض الناس فضيلة ، واعتبره البعض الآخر دليل ضعف، فكان أن جاءت حضارة الإسلام لتبرز لنا الحق

---

(١) الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة الطبعة الثانية ، الدار البيضاء ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ٣٠ .

في هذه الأمور التي اختلفت فيها العقول .

وكانت حضارة البعث والإحياء في العلوم التجريبية كالرياضة والطب والموسيقى وغيرها ، وهي توضح لنا مدى ما وصل له المسلمون من تقدم في هذا المضمار ، إذ ورثوا الحضارة المصرية التي كانت قد تحولت إلى اليونان، وكذلك ورثوا ثقافة الفرس والهند، وكانت هذه الحضارة قد ذبلت وانزوت بسبب الكهنة والقسس وأحياها المسلمون وطوروها [١].

وبعد هذا الطرح الموجز لمفهوم الحضارة وما تعنيه هذه الكلمة عند الشعوب يمكن لنا تحديد شروط الحضارة فنقول أنها :

١ - نظام اجتماعي ينظم فيه الأفراد بقوانين وأعراف وعادات وتقاليد لتكوين بنية اجتماعية سليمة متكافلة .

٢ - أعمال وإنجازات تتوالى بفعل الذكاء الإنساني والتطور الدائب وتتبلور في تقدم تقني وفكري .

٣ - قيم ومبادئ يهدف المجتمع إلى تحقيقها ، ويكافح من أجلها تتجلى في الثقافة العامة التي تضمن مستوى أخلاقياً وأدبياً واجتماعياً [٢] .

وبعد هذا الطرح الموجز لمفهوم الحضارة وشروطها يتسنى لي البدء في مباحث الفصل :

أولاً : الدور الاقتصادي للرباط :

لقد كان للرباط ورجاله دور مهم من الناحية الاقتصادية ولكن من المهم أن أذكر كيف كان الوضع الاقتصادي في إفريقية أثناء فترة الدراسة.

لقد شهد عصر الأغالبة تقدماً اقتصادياً ملحوظاً حيث ازدهرت الحياة

---

(١) أحمد شلبي ، (٥٤/١).

(٢) الحسن السائح ، (٣٤).

الاقتصادية في إفريقية بشكل كبير لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادي ، وذلك بفضل ما وفر لها الأغالبة من الأمن الذي فقدته إفريقية زمناً طويلاً ، وفي ظل هذا الأمن أقبل السكان بكل اطمئنان على أعمالهم مما جعل المحاصيل الزراعية تتضاعف وتزخر الأرض بشتى أنواع الزراعات ، كما تمت زراعة أراض لم تكن عامرة من قبل، بأشجار الزيتون والنخيل وانتظمت منطقة الساحل بالقرى والبساتين وبخاصة الكروم التي كان يصنع منها ومن أعنابها النبيذ ، واشتهرت إفريقية في ذلك العصر بالزيتون والفواكه .

كما تقدمت الصناعة وبخاصة الآلات الحديدية اللازمة للسفن والسيوف والدروع والسروج واللجم وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة وصناعة الزجاج والنسيج ، وازدهرت التجارة [١] .

أما الدور الاقتصادي لأهل الرباط فكان على عدة أوجه :

أولاً : احتجاجهم ووقوفهم مع المزارعين حيث احتجوا على عبدالله الأول الذي فرض ضريبة العشور سوءا أنتجت الأرض أو لم تنتج [٢] كما مر بنا في الدور السياسي للرباط وحينما وصل زيادة الله للإمارة كان له جهود اقتصادية واضحة يريد منها التماس الرضا من الجند الذين كان بعضهم من أهل الرباط [٣] فقطع ما بدأ به أخوه عبدالله ثم أنه حاول استغلال ما أسفرت عنه - حملة أسد ابن الفرات من الأموال الطائلة - خير استغلال ، إذ عمر المساجد والحصون وعلى سبيل المثال لا الحصر مسجد القيروان الذي جدد بناءه بمائة وثمانين ألف مثقال ذهب [٤] .

---

(١) الجوهري (١٣٠) ، (٢٣٣/٤- ٢٣٤).

(٢) ابن عذاري (٩٥/١) ؛ والنويري نهاية الأرب (١٠٦/٢٤) ؛ والطالبي ، الدولة الأغلبية (١٨٣) ؛ ومحمود إسماعيل (٤٠- ٤١) .

(٣) ابن عذاري (١٠٦/١) ، والنويري ، نهاية الأرب (١١٥/٢٤) ؛ ومحمود إسماعيل (٤٠) .

(٤) ابن عذراي (١٠٦/١) ، والنويري ، نهاية الأرب (١١٥/٢٤) ؛ ومحمود إسماعيل (٤٠).

ثانياً : منع الاحتكار ، فالاحتكار هو أن يشتري تاجر السلعة ويجمعها عنده فإذا نفذت من الأسواق أخذ يبيعها بأسعار يحددها هو ، وقد حارب الفقهاء المرابطون الاحتكار ، فقد قال يحيى بن عمر [١] "في المحتكر إذا احتكر الطعام وكان ذلك مضراً بالناس في السوق : أرى أن يباع عليهم ويكون لهم رأس مالهم والربح يتصدق به أدباً لهم ، وينهون عن ذلك فمن عاد ضرب وطيف به وجلد" .

وسئل أبو عياش أحمد بن موسى [٢] عن التجارة بالقمح وحكرته فأباح ذلك في وقت كثرة رخصه ومنعه في وقت غلائه إلا ما لابد منه للقوت ، وقال هذا بخلاف الزيت يريد إباحته في كل وقت [٣] .

أيضاً وقد سئل الشيخ أبو الحسن القابسي [٤] عن الصيادين يدخل إليهم تجار المنستير إلى الجزيرة فيشترون منهم وربما اشتروه منهم عند القنطرة قرب قصر ابن الجعد فلا يصل إلى الحصون منه شيء لأنهم يمضون به في الأحمال إلى المدن ، فيطلب منه رجل شيئاً يسيراً فلا يصل إليه، فأجاب أنه من تلقى ما جيء إلى مكان

---

(١) أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني ، قيل هو مولى بني أمية أندلسي من أهل جيان، وعداده في الإفريقيين، سكن القيروان واستوطن سوسة أخيراً وبها قبره كنيته أبو زكريا نشأ بقرطبة ، سمع من سحنون وعون وأبي زكريا ، يعد من أصحاب سحنون ، توفي بسوسة في ذي الحجة سنة ٢٨٩هـ وعمره ٧٦ سنة .

انظر : عياض (٣٦٤/٤) ؛ وابن فرحون (٣٣٤/٢) .

(٢) أبو عياش أحمد بن موسى بن مخلد ، من العجم وينتمي بالولاء إلى غافق ، ويقال له عيشون كنيته أبو عياش ، كان شيخاً صالحاً ثقة فقيهاً عاقلاً ثبتاً زاهداً متعبداً ورعاً معدوداً في كبار أصحاب سحنون ، مولده سنة ٢٠٧هـ ووفاته ٢٩٥هـ .

انظر : الخشني ٢٠٠ ؛ و عياض (٣٩٣/٤) ؛ وابن فرحون (١٢٥/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٠٤) .

(٣) عياض (٣٩٣/٤) ؛ وابن فرحون (١٢٥/١) ؛ والطالبي تراجم أغلبية (٣٠٥) .

(٤) لم أجد له ترجمة في المصادر التي توفرت لدي .

فقد ركب ما لا يحل لـه ويؤخذ منه الشيء الذي تلقاه فيباع في المكان حيث السوق الذي يجتمع إليه بما يسوى فيه ما لم يزد على الثمن الذي اشتراه به أو أقل فإذا سوى أكثر كان لأهل المكان أخذه بمثل الثمن لا زيادة عليهم [١] .

ومن هنا يتضح لنا تدخل الفقهاء المقيمين بالأربطة فيما يوجد بإفريقية من سلع فلا يسمحون لأحد أن يحتكر عنده سلعة ويبتز الناس أموالهم، فمن المعروف أن عروض التجارة تزيد وتنقص حسب المواسم حتى أن الفقهاء إذا رأوا تاجراً يحتكر سلعة أجبروه على بيعها بالثمن الذي يكون في استطاعة الناس .

وأرى من المناسب الحديث عن السلع التي كان يتم الاتجار بها في إفريقية ، وتلك السلع كانت تعتمد على المنتجات الزراعية في أغلب الأحيان والتي تسقى بمياه الأمطار والعيون والآبار والأودية (أي الأنهار) والصهاريج [٢] . وكان بإفريقية نوعان من الأراضي ، الأول أراضي سقوية تجلب إليها المياه للري، سواء مياه الأنهار أو العيون أو الآبار باستخدام آلات رفع المياه مثل النواعير، أو السواقي والدواليب . والآخر أراض بعلية أي تروى بماء المطر [٣] حيث تتم زراعة القمح والشعير والحمص والفول والعدس والذرة والدخن والبازلا واسمها عندهم البسين أما الأرز فمجلوب[٤] .

أما فواكهها فهي الزيتون والعنب والتين والرمان والسفرجل، والتفاح

---

(١) الونشريسي : أحمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب ، إخراج جماعة من الفقهاء بإشراف : محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، د.ط ، بيروت ، (٥/٢) .

(٢) كمال أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٦م ، الإسكندرية ٥٧ .

(٣) كمال أبو مصطفى ٦١- ٦٢ .

(٤) الرقيق ١٢١ ، وابن عذارى (٨١/١) ، والقلقشندي (١١٣/٥) .

والكمثرة والعناب و والخوخ والمشمش على أنواعة ، والتوت الأبيض والفرصاد [١] ، والأترج والليمون والنارنج وقصب السكر وأنواع البطيخ والخيار واللوبا واللفت والباذنجان والقنبيط والقرنبيط والكرنب والرجلة والبقلة اليمانية . وبها من الرياحين الآس والورد والياسمين والنرجس والسوسن وغيرها [٢] .

فمن أول الدهر اشتهرت إفريقية بالفلاحة وذلك لاعتدال طقسها وجودة تربتها وانبساط أرضها ، وقد عمرها الرومان قبل الإسلام أحسن تعمير حتى لما فتحها المسلمون وجدوا ظلال أشجارها متصلة من طرابلس إلى طنجة ، ومنها إلى شمال مقاطعة قسنطينة ، فلما تمكنت الحضارة الإسلامية من البلاد كانت الزراعة هي ما شغل ولاة الأمر، فاهتموا بها لما لها من الدخل العظيم [٣] .

لقد اعتنى آل المهلب في القرن الثاني الهجري بتوزيع الأراضي على من يستحقها ثم تطورت نظم الري في عهد الاغالبة مما جعل الزراعة تزدهر وتكثر الخيرات [٤] .

أما الثروة الحيوانية في إفريقية فكانت إما حيوانات مستأنسة مثل الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم والماعز ، أو متوحشة مثل الغزلان وبقر الوحش وحمره والنعام وغيرها، أما طيورها ففيها الدجاج والحمام والأوز [٥] .

وبما أننا ذكرنا أن الفقهاء يحاربون الاحتكار وزيادة الأسعار فمن المهم أن نلقي نظرة على متوسط الأسعار في إفريقية في ذلك العصر ، حيث كان أوسط الأسعار بها في غالب الأوقات أن يكون كل قفيز من القمح بخمسين درهماً والشعير دون ذلك ،

---

(١) الفرصاد هو التوت الأسود ، انظر القلقشندي (١١٣/٥) .

(٢) القلقشندي (١١٣/٥) .

(٣) حسن حسني ، بساط العقيق (٣٢).

(٤) حسن حسني ، بساط العقيق (٣٢) .

(٥) الرقيق القيرواني (١٢١) ؛ والقلقشندي (١١٣/٥) .

وغالب سعر لحم الضأن عندهم كل رطل إفريقي [١] بدرهم وبقية اللحوم دونه في القيمة ، وفي الربيع ينحط السعر عن هذا القدر والدجاج الجيد عندهم بدرهمين وأحوالها مقاربة في ذلك الديار المصرية لقرب المجاورة [٢] .

ولقد ذكر البكري تفصيلات دقيقة لانواع الفواكه واسعارها وللحيوانات وعدد ما يذبح منها في المواسم حين تعرضه للحديث عن مدن افريقية [٣] ونعود إلى صلب المبحث فنقول إن ما ذكر آنفاً كان حول دور المرابطين في النشاط الاقتصادي ، والحقيقة أن الأمر لم يتوقف عندهم بذات أشخاصهم بل هناك إشارات تفيد أن الحصون ذاتها كانت داعمة للحياة الاقتصادية، حيث كان يتبع بعض الحصون مزارع وبهائم وربما تحقق الاكتفاء لأولئك المرابطين، ومما يدل على ذل كما ذكر عن الفقيه أبو عبدالله محمد بن حسون المزجلدي[٤] أنه سئل عن حصن حبست عليه أرض تنبت الحلفاء تباع كل عام بثلاثة دنانير أو أكثر أو أقل .

فعمد أهل المنزل فاطلقوا فيه النار وزرعوها على أن يعطوا للحصن ربع الزرع ويسقوا بمائة وضيقوا على الحصن حتى سقوا الزرع به حتى صنعوا بهائم الحصن أجعلوا لزرعكم لئلا تضرها بهائمها فتمنعوا من ذلك وقالوا احتاطوا أنتم عليها من اللصوص ، فهل لهم سقي بماء الحصن والحوطة على أهل السواقي أم لا؟ وقد ضاق أهل الحصن في منعهم ماءهم ورعي مواشيهم [٥] .

---

(١) كان رطل في افريقية قبل العصر الفاطمي يساوي ١٣٠ درهماً (٤٠٦,٢٥غرام) إلا رطل الفلفل فقد كان يزن ١٤٠درهماً يساوي٤٣٧,٥ غرام . وفي زمن الفاطميين زيد رطل في جميع الأحوال إلى ١٤٠درهماً ، انظر : هنتس (٣٦)

(٢) القلقشندي (١١٥/٥) .

(٣) ذكر ذلك عند حديثه عن مدينة القيروان صفحة ٢٣ ومدينة تونس صفحت ٣٩ في كتابه المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب .

(٤) لم تمدني المصادر التي توفرت لدي بمعلومات عنه .

(٥) الونشريسي (٣٧/٧=٣٨) .

وهناك إشارة أخرى تحمل بعض الطرافة تدل على أن الحصون كانت تتبعها مزارع وهي أنه كان بقرب قصر رجل له فرس يطلقه في زرع المرابطين فنهوه فلم ينته، فأتوا إلى عبدالرحيم بن عبد ربه ، فرفع عينيه إلى السماء وقال : "اللهم أجعله آية للعالمين واكف المسلمين شره فطارت عينا الفرس" [١] .

إضافة إلى ما ذكر فإن العامة إذا أصابتهم نكبة من النكبات الاقتصادية كانوا يلجأون إلى المرابطين وخصوصاً الفقهاء منهم فإذا كان الأمر متعلقاً بأمير من الأمراء درأوا به في نحره أما إذا كان الأمر من الكوارث التي يجريها الله سبحانه وتعالى توجهوا إليه بالدعاء حتى يزيل البلاء عن الناس فمما حدث من الأمراء ما يسمى بثورة الدراهم ، فحدث أن ضرب إبراهيم بن أحمد الدراهم الصحاح وقطع ما كان يتعامل به من القطع فأنكرت ذلك العامة وغلقوا الحوانيت وتآلفوا وصاروا إلى رقادة وصاحوا على إبراهيم فحبسهم في الجامع واتصل ذلك بأهل القيروان فخرجوا إلى الباب وأظهروا المدافعة فوجه إليهم إبراهيم بن أحمد احداً لينا قشهم في الامر فرموه بالحجارة وسبوه فانصرف إلى السلطان إبراهيم بن أحمد فأعلمه بذلك فركب إبراهيم إلى القيروان في جماعة من الجند فناصبه أهل القيروان القتال فتقدم إبراهيم إلى المصلى فنزل وجلس وكف أصحابه عن قتالهم فلما أطمأن به مجلسه وهدأ الناس خرج إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث فكان بينهما كلام كثير، ثم دخل أحمد بن مغيث مدينة القيروان وسكّن أهلها فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رقادة وأطلق المحبوسين بالجامع وانقطعت النقود والقطع من إفريقية ، وضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها العاشرية في كل دينار منها عشر دراهم [٢] .

ومما يؤكد على مساهمة أهل الرباط في الحياة الاقتصادية إظهارهم الحنق

---

(١) المالكي (٤٢٨/١) ؛ و عياض (١٩٥/٤).

(٢) ابن عذارى (١٢١/١) ؛ والطالبي ، الدولة الأغلبية (٣١٣).

والغضب من جراء ما فعله بنو الأغلب من الجباية غير الشرعية ، وقد مر بنا أن تدخلهم لدى عبدالله الأول الذي زاد في تفاقم فساد النظام بقي دون جدوى، وبالطبع لم يترتب أي شيء على العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية التي بدأ العمل بها إبراهيم الثاني لغرض دعائي قبل خروجه إلى الجهاد[١].

ومن الأمور المتعلقة بالابتلاءات الربانية أنه نزل قحط وجدب بسفاقس فعم الأرض بلاء من الناحية الاقتصادية فلا يجدون ما يأكلون أو يتاجرون به ، فاتجهوا إلى عنبسة [٢] الذي أمرهم أن يبيتوا صياماً ثم يأتوا صباحاً فخطبهم ثم صلى بهم فأمطرت السماء على إثر ذلك [٣] .

ولقد كان للفقهاء المرابطين تأثير على المجتمع بإفريقية حيث كانوا يقومون على عملية التوازن المالي بين الناس وذلك عن طريق الصدقات ومما يدل على ذلك فعل أبي الحسن الكانشي [٤] حيث كانت له رباع نفيسه بكانش وغيرها باعها كلها وتصدق بثمنها على الفقراء ، كان له خمس سوان باعها واحدة واحدة بأقل من

---

(١) الطالبي ، الدولة الأغلبية (٧٨٤).

(٢) أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي ، كان ثقة مأموناً له سماع من مالك بن أنس ومن سفيان الثوري وابن عيينة وله سماع مدون عن مالك ، كان شيخاً عالماً ، سمع من نظرائه في إفريقية كالبهلول وغيره ، كان سحنون يجله ، كان سكنه في حصن على البحر يقال له "ينقه" وحينما حضرته الوفاة كان عمره ست وثمانين سنة وكان ذلك في عام ٢١٠هـ وقيل ٢٢٠هـ .

انظر : أبو العرب ص(١٥٠) ؛ والمالكي (٢٤١/١) ؛ وابن فرحون (٤٢/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٧٨) .

(٣) المالكي (٢٤٢/١) ؛ وابن فرحون (٤٢/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٨٢) .

(٤) أبو الحسن الكانشي هو حسن بن محمد الخولاني ، كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم متعبداً مجتهداً ورعاً ، كثير المعروف سكن المنستير، سمع من عيسى بن مسكين ، ويحيى بن عمر ، سمع منه أبو الحسن القابسي وجماعة من الناس ، توفي - رحمه الله - سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وهو ابن تسع وتسعين ودفن بالمنستير .

انظر : عياض (٤٠/٦) .

خمسين ديناراً ومائة وأنفقها على المساكين وكان يعطي من الخمسة والعشرة والخمسة عشرة من الدراهم، وأقل ما كان يعطي ديناراً ويقول "يا أخي يجيء رجل إلى آخر يسأله ما يسد به حاله فيعطيه قيراطاً أعوذ بالله من دناءة الأمور" (١) .

ولم يتوقف تأثير الفقهاء على العامة فقط أو الأمراء بل إنهم كانوا يقاضون حتى القضاة أنفسهم إذا لاحظوا عليهم خللاً في قضية ما ، ومن هؤلاء القضاة ابن أبي الجواد (٢) الذي كان قاضياً بالقيروان ثم عزل وعينه سحنون في موضعه، ونظر في ديوان الودائع فوجد مالاً لورثة رجل فاحضر وكشف عن ذلك فأنكر وجحد الخط فشهد عليه جماعة من الفقهاء بأنه خطة ، فتمادى على الإنكار فتلوم له سحنون وأعذر إليه وأرسل من يشير عليه بإنصاف القوم فلج في الإنكار وتمادى عليه فحبسه أياماً فلم يرجع إلى الحق فأخرجه وضربه عشرة ورده إلى السجن فأتت زوجته بنت أسد بن الفرات والتزمت الدفع عنه فقال لها سحنون إن قال زوجك هذا مال الميت أو بدله قبضته فأطلقته لك فأحضر فامتنع من قول ذلك وكان سحنون يخرجه كل يوم جمعة وإذا امتنع من الأداء ضربة عشرة أسواط حتى ضربه مرات كثيرة ثم مرض ومات في السجن من مرضه ذلك ، وقيل إنما ضربه سحنون لأنه اتهمه كما يضرب السارق حتى يخرج عيان تلك السلع وروي أن سحنون كان يقول بعد موته مالي ولابن الجواد وكأنه تحرج من موته (٣) .

إضافة إلى ما سبق فإن التأثير الاقتصادي للفقهاء اثر في تعاملات الناس التجارية فإن الأهالي بسوسة كانوا لا يرون بيع دورها وبقي الحال كذلك حتى قام

---

(١) عياض (٤٧/٦) .

(٢) ابن أبي الجواد كان قاضياً بالقيروان أيام محمد بن الأغلب ولكن عزله عن القضاء وعين بدلاً منه سحنون وكان مذهبه في القضاء مذهب الكوفيين والذي هو مذهب أبي حنيفة، انظر الخشني (٣٠٥) . وعياض (/٥٥) .

(٣) الونشريسي (١٢٢/١٠) ؛ والطالبي تراجم أغلبية (١٠٦) .

محمد بن رزين [(١)] ، وهو أحد العلماء ببيع دار كان يملكها فسار الناس على إثره بعد ذلك [(٢)] .

إن ما سبق من الإشارات الاقتصادية كانت تدور حول العلماء تأثيرهم في الحياة الاقتصادية ، أما ما سيأتي فسيكون محوره رجال السياسة ومن ذلك ما قام به الأمير إبراهيم الثاني الذي يعتبر أعظم أمراء بني الأغلب على الإطلاق ، فهو الذي أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣هـ وبنى فيها جامعاً وقصراً سماه الفتح ، وهو الذي أتم بناء المسجد الجامع بتونس وماجل القيروان وبنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة ، وهو الذي بنى سور سوسة [(٣)] .

ولكن كثيراً من الحصون والمحارس التي بناها الأمراء الأغالبة قد تعرضت لكوارث طبيعية أدت إلى تهدمها أو الخسف بها نهائياً ففي عام ٢٤٠هـ سمعت صيحة في السماء استمرت ثلاثة أيام مات على إثرها خلق كثير وخسف بثلاث عشرة قرية من قرى إفريقية ، وإحدى القرى لم يبق من أهلها إلا عدد يسير فالتجأوا إلى القيروان فقام أهلها بردهم حيث رأوا أنهم قوم مسخوط عليهم وبنوا لهم خارجها وسكنوا وحدهم [(٤)] .

وفي سنة ٢٤٥هـ زلزلت بلاد المغرب حتى تهدمت الحصون والمنازل والقناطر ،

---

(١) محمد بن رزين ، سمع من أسد وعبدالله بن الحكم وسمع منه سليمان بن سالم وبكر بن حماد ، وكان من سكان سوسة ، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين .

انظر : أبو العرب (٢٠٤) ؛ وعياض (١٩٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٥٥).

(٢) أبو العرب (٢٠٦) ؛ و عياض (١٩١/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٥٦) .

(٣) ابن عذارى (١١٧/١) ؛ والنويري نهاية الأرب (١٢٨/٢٤) ؛ والسيد عبدالعزيز سالم (٣٩٩/٢) ؛ ومحمود إسماعيل عبدالرزاق (٢٢٩) .

(٤) ابن الجوزي (٢٧٠/١١) ؛ وابن تغري بردي (٣٦٢/٢) .

فأمر المتوكل بتفرقة ثلاثة آلاف ألف درهم في الذين أصيبوا بمنازلهم [١] .

وعلى أية حال فإن النشاط الحربي المتمثل في غزوات الأغالبة التي كان يشارك فيها المرابطون كان له أثر كبير في الحياة الاقتصادية على نطاق واسع ، فإن بيزنطة كانت تسيطر على البحر المتوسط، والملاحة البحرية فيه حتى ظهور قوة الأغالبة البحرية ، إذ باستيلائهم على جزيرة صقلية وغيرها من الجزر وتحكمهم في مضائق البحر في البحر المتوسط آلت إليهم السيادة البحرية ومن ثم هيمن الاغالبة على النشاط التجاري وفرضوا نوعاً من الرقابة التجارية على الشواطي الإسلامية ، وعلى الرغم من العداء التقليدي بين الأغالبة والبيزنطيين إلا أن علاقات تجارية محدودة قامت بينهما وذلك خلال عهود الأمراء الأغالبة الأوائل ، وكانت صقلية تمثل حلقة الاتصال في هذا الصدد، فتشير المصادر إلى أن المعاهدات التي عقدت بين الطرفين كانت تتضمن بنوداً تجارية تنص على تأمين التجارة وتبادل السلع بينهما ، فالمعاهدات التي عقدت بين أبي العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب وحاكم صقلية في سنة ١٩٢هـ أسفرت عن تحقيق مزيد من الأمن والرواج التجاري بين إفريقية وصقلية وبفضلها أصبح التجار الأفارقة قادرين على ممارسة نشاطهم في صقلية كما سمح للبيزنطيين بالمتاجرة مع المدن والمواني الأغلبية فاستورد الأغالبة السكر من صقلية وصدروا إليها الجلود والسلاح والحرير والعاج وزيت الزيتون، غير أن هذه العلاقات لم تدم طويلاً بسبب ما جرى من تبادل الغارات بين الطرفين وما كانت تسفر عنه من سلب ونهب وخسائر اقتصادية [٢] .

---

(١) الطبري (٥/٣٢٨) ؛ وابن الجوزي (١١/٣٢٨) ؛ وابن تغري بردي (٢/٣٨٢) .

(٢) محمود إسماعيل (٢٢٩- ٢٣٠).

ثانياً : الدور الاجتماعي للرباط :

لقد كان تأثير الرباط وساكنيه واضحاً في الناحية الاجتماعية ، فانعكس ذلك على تصرفات الناس تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين ، وسأجعل العلماء في هذا المبحث هم محورا لحركة لا المواضيع التي تحركوا فيها ، حيث إني أرى أن هذه الطريقة في هذا المبحث بالذات مجدية أكثر من غيرها ، وأولئك العلماء هم :

١ - البهلول بن راشد : كان البهلول بن راشد حريصاً على أن يعيش عيشة الناس المحيطين به في سرائهم وضرائهم ومما يوضح ذلك تلك الحادثة التي يذكر فيها أن بهلولاً كان يملك طعاماً فغلا السعر بالقيروان ، فأمر ببيعه في السوق ، ثم أمر أن يشتري له ربع قفيز من القمح ، فقيل له : نبيع ما بيدك ونشتري من السوق؟ فقال : نفرح إذا فرح الناس ونحزن إذا حزنوا [١] .

وللبهلول بن راشد حادثة أخرى توضح تدخل العلماء في تنظيم حياة الناس الاجتماعية المرتبطة بكيفية أدائهم لحدود الله وهي أنه سئل عن حصن فيه مسجد قديم وخارجه مسجد حديث فزعم أهل الحصن الداخل إقامة الجمعة في مسجدهم الأقدم لكونهم لا تقام إلا بهم وأن يعينوهم في أجرة الإمام إذا لم يجدوه إلا بأجر .

فأجاب أنه لا يلزم أهل الجامع الأحدث إتيان المسجد القديم إلا للجمعة خاصة ولا يلزمهم التزام الأجرة للإمام ولا أداؤها إليه ، وإنما يجب على من التزمها ورضي بأدائها ، فإن لم يريدوا أن يستأجروا من يقيم الجمعة ولا وجدوا من يقيمها دون أجر وجب الرحيل من ذلك البلد إلى بلد تقام فيه الجمعة أو بمكان لا يلزم إتيان الجمعة منه ، وحق على الإمام أن يجبرهم على ذلك [٢] .

٢ - سحنون بن سعيد : كان سحنون من العلماء المؤثرين في حياة الناس

---

(١) المالكي (٢٠٥/١) ؛ وابن فرحون (٢٧٦/١) ؛ وحسن حسني عبدالوهاب ، ورقات (٣٧٠/٢) .
(٢) الونشريسي (٢٥٣) .

عموماً أكثر من أي عالم آخر ، وقد كان تأثيره الاجتماعي واضحاً على حياة الناس بالذات ، إذ هناك إشارات تؤكد ارتباطه بذلك ، ومن تلك الأمور الحسبة فإنها لم تنظم بإفريقية إلا على يده ، وقيل إن سحنون أول من نظر في الأسواق [١] وإنما كان ينظر فيها الولاة دون القضاة فنظر سحنون فيما يصلح من أمر المعاش وفيما يغش من السلع وقد جعل الأمناء على ذلك ، ويؤدب على الغش وينفي من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة [٢] .

وحينما كانت تحدث الجرائم في المجتمع فإن القضاة كسحنون يكون لهم دور أساسي في حلها فإن القضاة والعلماء عموماً يحاربون الجرائم ويقومون بقطع دابرها ومن ذلك تلك المرأة التي يقال لها "حكيمة" حيث أتي بها إلى سحنون بسبب أنها كانت تجمع بين الرجال والنساء فضربت ونحيت من دارها وحبست وطين باب دارها بالطين والطوب ، وكانت خلاسية[٣] طوالة ، وأمر أن تجعل بين قوم صالحين فنقلت إلى ذلك الموضع [٤] .

ولسحنون طرقه في التعامل مع الشهود والخصوم ، إذ كان على قدر كبير من كرم الأخلاق ، حيث كان يوجه الناس ابتداءً بالقضاة وانتهاءً بالعامة ، إلى كيفية التعامل مع المتخاصمين ومع الشهود ، كان يؤدب الخصوم إذا آذى بعضهم بعضاً بكلام أو تعرضوا للشهود ، وكان يؤدب الخصم إن طعن على الشاهد بعيب أو بجرح

---

(١) ابن عمر الكناني : أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي الإفريقي ، كتاب النظر والأحكام في جميع أحوال السوق ، رواية أبي جعفر أحمد القصري القيرواني ، الشركة التونسية للتوزيع ، د.ط ، تونس ، ١٩٧٥م ،

(٢) يحيى بن عمر (٣١) ؛ وعياض (٦٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٠٤) .

(٣) الخلاسي : هو الولد بين أبيض وسوداء ، أو بين أسود وبيضاء . انظر : ابن منظور (باب السين فصل الخاء) .

(٤) يحيى بن عمر (١٣٣- ١٣٤) ؛ و عياض (٦١/٤) .

، وكان إذا دخل عليه الشاهد - ورعب منه - أعرض عنه حتى يستأنس وتذهب روعته فإن طال ذلك به هون عليه وقال لـه : ليس معي سوط ولا عصا ولا عليك بأس أد ما علمت ودع ما لم تعلم ، وكان يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز من الطلاق والعتق حتى لا يحلفوا بغير الله عز وجل ، وحصل أن تخاصم إليه رجلان صالحان من أصحابه ممن نظر في العلم فأقامهما وأبى أن يسمع منهما ، وقال استرا عني ما ستر الله عليكما ، وكان يؤدب على الغش ، وينفي من الأسواق من يستحق ذلك ، وكان قد بنا لنفسه بيتاً في الجامع يجلس فيه إذا رأى كثرة الناس ، وكثرة كلامهم ، فكان لا يحضر عنده غير الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما وسائر الناس عنه بمعزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغل باله أمرهم ، وكان الناس يكتبون أسماءهم في رقاع وتُجعل بين يديه ويدعوهم واحداً واحداً إلا أن يأتي مضطر ملهو ، وكان كثيراً ما يؤدب بلطم القفا ولم يل قضاء إفريقية مثله في الشجاعة ورباطة الجأش عند الفتن [١] .

ولم يكن تأثير سحنون في طبقة دون طبقة بل إنه وقف في وجه الأغالبة أنفسهم الذين نادوا بما ينادي به العباسيون ألا وهو عقيدة خلق القرآن، حيث كان الأمراء الأغالبة يظاهرون الخلفاء العباسيين في ذلك الوقت ومعهم كثير من القضاة والعلماء وينادون بعقيدة القرآن ، حيث كانوا يريدون من المجتمع عموماً أن يؤمن بهذه الفكرة المعتزلية ، فإن كان أحمد بن حنبل قد وقف في وجههم وامتحن على أيديهم في المشرق فإن لسحنون نفس الأثر في المغرب تقريباً ، حتى رفع الله البلاء عن الناس علماء وعامة بل إن سحنون أصبح هو القاضي بالقيروان وقد تمكن من محاكمة مخالفي السنة ممن كانوا قبله [٢] .

---

(١) عياض (٥٩/٤) ؛ وابن فرحون (٣٤/٢) .

(٢) أبو العرب (١٨٤) ؛ وعياض (٥٥/٤) ؛ والطالبي (٢٦١) .

٣ - يحيى بن عمر : إن يحيى بن عمر كان لا يضيق على الناس أمور دنياهم وكان يتلمس لهم الرخص الجائزة إذا كانت تعود عليهم بالنفع ويدخل السرور على النفس ومن ذلك أنه سئل عن الرجل يدعى إلى العرس وهي الوليمة أو الختان أو إلى صنيع فيسمع فيه صوت بوق أو ضرب مزهرٍ أو ضرب عودٍ أو طنبور ، أو يعلم أن فيه شراباً مسكراً ، هل ترى له أن يجيب إذا دعي؟ فأجاب : ليس على الناس أن يجيبوا إلا إلى الوليمة ، وفيها جاء الحديث وإن جاء إلى الوليمة وكان فيها ما ذكر ، أما المزهر المدور فقد سهل في العرس ولا بأس أن يجيب إليها ، وأما غير ذلك مما ذكر مثل البوق والطنبور والعود فلا يجيب . وسئل عن من استرعاه الله رعية إذا سمع في هذا العرس اللهو مثل البوق والمزهر أو يسمعه في دار غير دار العرس والختان هل يغيره أيضاً؟ وهل ترى العود والطنبور مثله؟ قال يحيى أرى أن ينهى عن ذلك إلا أن يكون في عرس فقد بينته قبل هذا فيما نهى عنه وما سهل فيه أهل العلم لإظهار العرس [١] . وليحيى بن عمر كلام حول الحمامات - وكانت الحمامات بالبلاد الإفريقية من مشمولات أملاك الدولة - التي كان الناس يستخدمونها للاستحمام ، وكانت النساء لا يدخلن تلك الحمامات إلا أن كن نُفساً ، فإن أدخلهم صاحب الحمام نهى وإن عاد أُدب ونكل به . ويحيى بن عمر في هذا الموقف يريد من الناس العفة وعدم الاختلاط [٢] .

وتأكيداً لما كان يسعى إليه يحيى بن عمر من تعفف النساء ، فإنه كان ينهى الخرازين عن عمل الخفاف الصرارة ومنع النساء من لبسها حيث شاع لدى النساء لبس النعال أو الخفاف الصرارة التي تحدث صوتاً أثناء المشي ، مما يجذب انتباه الرجال إليهن [٣] .

---

(١) يحيى بن عمر ، ٧٦- ٧٧ .

(٢) يحيى بن عمر ، ٨٦- ٨٧ .

(٣) كمال أبو مصطفى ، جوانب من الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في =

٤ - عبدالرحيم بن عبد ربه الربعي : إن لعبدالرحيم تأثيراً اجتماعياً كغيره من العلماء ، بل إن تدخله تعدى إلا الطبقات الأخرى من المجتمع كطبقة العبيد ، وذلك أن العلماء كانوا لا يساعدون العبيد الآبقين على الفرار بل يعيدونهم بالحسنى إلى أسيادهم ، وأسيادهم إما أن يبقوهم أو يعتقوهم لوجه الله ، حيث يذكر عن عبدالرحيم أنه رأى ليلة من ليالي رمضان في منامه قائلاً يقول له : "كل من بات في هذا القصر مغفور له إلا صاحب التليس" [(١)] وقد بات في قصبة "القصر" تلك الليلة خلق كثير ، فلما صلى عبدالرحيم الصبح خرج ، وكان من شأن الناس أن يودعوه وهو في بيته ، فنزل ذلك اليوم إلى سقيفة القصبة فودعه الناس وسألوه الدعاء ، فتقدم إليه صاحب التليس ليودعه ، وقد خف الناس عنه ، فقال له سراً فيما بينه وبينه : "يا بني ، رأى رجل في المنام أن كل من بات في هذه القصبة مغفور له إلا صاحب التليس ، وأخاف أن تكون أنت هو ، فعرفني ما الذي صنعت؟ " فقال : "أنا عبد مملوك أبقتُ من سيدي فقال له : "يا بني ارجع إلى سيدك وتب إلى الله تعالى من ذنبك ، وانصرف عنه فرجع العبد إلى سيده [(٢)] .

٥ - أبو السرى واصل بن عبدالله الجمي : لم يكن تأثير العلماء ينطلق من مبدأ النصح الديني والإرشاد الاجتماعي في كل الأحوال بل إن هناك أحوالاً يكون تأثير العلماء فيها على الناس بطريق غير مباشر ومن ذلك مع حدث لواصل الجمي [(٣)]

= المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الاسكندرية للكتاب ، د.ط ، الاسكندرية ، ١٩٩٦م ، (٤٨) .

(١) التليس هو اللزوم وعدم مبارحة المكان . انظر : ابن منظور (باب السين فصل اللام) ؛ والبستاني (٨٣٣) .

(٢) المالكي (٤٢٩/١) .

(٣) أبو السرى واصل بن عبدالله الجمي ، كان في بداية الأمر تاجراً يملك حانوتاً يبيع ويشتري فيه فنبذ ذلك وعاش في قصر الرباط ثم في المنستير ، تعلم على يد سحنون حتى نال من العلم ما ينفعه ، وسمي بالجمي نسبة لملازمته قصر جمة للعبادة ، كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائتين . انظر : =

إذ بقي أياماً بدون طعام حتى أشفق عليه أهل الحصن ، وفي الليلة الثالثة إذا بضارب يضرب عليهم باب القصر فسألوه فقال فلان - فسمى رجلاً مذكوراً بالخير - أرسلني إلى الشيخ واصل بطعام وقال لي: إن أوصلته إليه هذه الليلة فأنت حر - وكانت الحصون لا تفتح بالليل - فشاوروا واصلاً فقال: ما عليكم أن تفتحوا له وتعتقوه ففتحوا له ، فإذا مع الغلام حمل بغل موقر [1] عليه من أصناف الأطعمة والحلوى شيء كثير فأتوا بذلك إلى واصل فمد يده إلى شيء منه فأكل وقال للمرابطين : "افترقوا جميعه فيما بينكم" ولم يدخر منه شيئاً [2] .

وكان واصل كغيره من العلماء يحاول غرس الزهد في الناس والعيش على القليل ، وقد أقام أربعين سنة لم يدخر شيئاً من الدنيا ، وكان يقيم الأيام لا يطعم شيئاً ، فإذا جهد خرج إلى الحمى فيجمع شيئاً من بقول الأرض يقتات به ثم يعود إلى مصلاه [3] .

٦ - محمد بن سحنون : كان الناس بإفريقية يحبون ارتياد مجالس العلماء والزهاد لما فيهم من صلاح ، راجين بذلك دعوة تجد استجابة من الله تعالى أو نصيحة يستفيدون منها في دينهم ودنياهم ولم يكن ذلك مقصوراً على العامة وحسب ، بل حتى العلماء كانوا يذهبون إلى من هو أعلم منهم وأزهد ، فإن ابن سحنون ذهب إلى عبدالرحمن بن عبدربه الزاهد مع جماعة من أصحابه فسلم عليه فرد السلام وتركه جلس حيث انتهى به المجلس ، ولم يقبل عليه إلى أن انصرف ، فلما كانت الجمعة الأخرى استنهض ابن سحنون أصحابه لزيارته ثانية ، فقالوا له رأيناه

= المالكي (٤٣١/١)؛ وعياض (١٩٨/٤)؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٦٤) .

(١) الموقر يطلق على الدابة التي يكون عليها حمل من الأحمال. انظر : ابن منظور (باب الراء فصل الواو) .

(٢) المالكي (٤٣٣/١) ؛ وعياض (٢٠١/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٦٧) .

(٣) المالكي (٤٣٣/١) ؛ وعياض (١٩٩/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٦٥) .

لم يقبل عليك . فقال : ليس هذه بغيتي هو رجل صالح ترجى بكرة دعائه ، وقد كان سحنون يأتيه ويتبرك بدعائه ويلجأ إليه عند المهمات ، فعاد إليه ابن سحنون وأصحابه ، فلما رآه قام على رجليه ورحب به وأجلسه في موضعه ، ولم يزل مقبلاً عليه حتى انصرف ، فقيل له في ذلك مع فعله الأول فقال : والله ما أردت بذلك إلا الله ، رأيت اجتماع الناس عليه فخفت فتنته فعملت ما عملت ، فرأيت في ليلتي قائلاً يقول لي مالك لم تقبل على ابن سحنون وهو ممن يخشى الله؟ وفي رواية وهو ممن يحب الله ورسوله . فعلم ابن سحنون بذلك فبكى بكاءً شديداً وقال : لعله بذبي عن سنة رسول الله ﷺ[1] .

كان ابن سحنون كوالده في التأثير على الناس وتعليمهم الأخلاق الكريمة ، وذلك يتضح بالنظر إلى العراقي [2] الذي كان يؤذي ابن سحنون وكان ابن سحنون صابراً على إيذائه إياه وبعد زمن أصاب العراقي فقر فأراد أن يشكو الحال إلى ابن سحنون لكن زوجته نهته لظنها أن ابن سحنون لن يقدم له المساعدة ، لكن العراقي أصر على مراده ، فلما ذكر حاجته لابن سحنون استرجع ابن سحنون وقال كيف يصير لك ذلك وأنا موجود فأعطاه عشرين ديناراً ، ثم بعثه إلى مهمة خارج البلد فأكرمه أولئك الذين ذهب إليهم وأعطوه ثلاثمائة دينار ، فلما عاد بها لابن سحنون ، قال ابن سحنون إنها لك [3] .

٧ - أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب : لقد كان تأثير العلماء في غالب الأحيان ينصب في مجرى واحد ألا وهو تعريف الناس أن الدنيا زائلة مهما كان نعيمها فكان أبو عمرو ميمون بن المغلوب[4] كغيره من العلماء حريصاً على ذلك الأمر إذ أنه

---

(١) المالكي (٤٤٥/١) ؛ وعياض (٢٠٨/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٧٤) .

(٢) إذا أطلقت صفة عراقي على شخص بإفريقية فإن المقصود به من يكون متبعاً لمذهب أبي حنيفة .

(٣) المالكي (٤٤٥/١) ؛ وعياض (٢١٦/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٨٢) .

(٤) أبو عمرو ميمون بن عمرو بن المغلوب كان معدوداً من أصحاب سحنون ولى مظالم القيروان ثم قضاء =

لما تولى قضاء صقلية اجتاز سوسة في طريقه إليها فقال لهم: يا أهل سوسة هذا كسائي وهذا فروي وجبتي ، وخُرج فيه كتبي ، وهذه السوداء تخدمني معها جبة وكساء فبهذا دخلت عليكم وانظروا بأي شيء أرجع ، ولما وصل قيل له هذه دار القضاء تنزل فيها ، فقال هذه دار عظماء ماذا أعمل فيها؟ فنزل في دويرة لطيفة وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلا وتنفق عليه من فضل ذلك فإذا ضرب أحد الباب خرجت إليهم فقالت : الساعة يخرج إليكم القاضي ، فيخرج ويقضي بين الناس على الباب ثم يدخل، فأقام على ذلك سنين إلى أن اعتل ، فأقام ثلاثة أيام لم يخرج فقرع الناس الباب ، فخرجت إليهم السوداء وقالت : ادخلوا عودوا القاضي فإنه مريض ، فدخلوا عليه فأنصبوا وسادتين محشوتين بتبن عند رأسه وحصير بردي تحته فلما رآهم بكى ثم قال : "اللهم تعلم أني اجتهدت ما استطعت" ثم خرج من صقلية وهو مريض ، وقال لأهلها : خلف الله عليكم بعدي بخير فقالوا له: صحبك الله بالعافية، فوصل إلى سوسة فقال لهم يا أهل سوسة كما دخلنا عليكم كذلك رجعنا إليكم هذا كسائي وجبتي وخرجي فيه كتبي ، وهذه السوداء تخدمني[(١)] .

٨ - حمديس القطان : من التأثيرات الاجتماعية للعلماء ما كانوا يقومون به من منع اللعب بنعمة الله من دراهم وغير ذلك ، بالإضافة إلى مقتهم الميوعة والتشبه بالنساء وذلك يتضح من الحادثة التي يرد فيها ذكر حمديس [(٢)] ، إذ أنه قيل له أُخذ غلمان يلعبون بالدراهم فوضعت في أرجلهم القيد، فقال حمديس حبسهم عند آبائهم لا في السجن ، قيل وقد شوهد بعض قضاة القيروان أخذ من هذه حالته وجز

= صقلية . انظر : الخشني (٢٥٢) ؛ والمالكي (١٨٠/٢) .

(١) المالكي (١٨٠/٢) .

(٢) حمديس القطان واسمه أحمد محمد الأشعري من نسل الصحابي أبي موسى ﷺ طلب العلم بإفريقية ومصر كان ورعاً ثقة كارهاً لأهل الأهواء كانت وفاته عام ٢٨٩هـ. انظر : الخشني (١٩٧) ؛ والمالكي (٤٨٨/١) ؛ وابن فرحون(١٢٥/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٢٩٣) .

شعر رؤوسهم وكساهم ثياباً خشنة وأدبهم ووصاهم ألا يتزينوا بزي النساء[١] .

٩ - سعيد بن إسحاق الكلبي : لقد كان اهتمام العلماء بالأمة واضحاً وخصوصاً الفقراء منهم ، وذلك يتضح من حديث سعيد الكلبي [٢] حينما سُمع بكاؤه طوال الليل وهو في القصر ، فلما سئل عن ذلك قال تفكرت في فقراء أمة محمد ماذا سيفعلون في هذه الليلة الباردة[٣] ، والذي يؤكد اهتمام هؤلاء العلماء بالفقراء ما جاء في وصية سعدون الساكن بقصر ابن الجعد حينما حضرته الوفاة إذ أوصى بأن تعطى الجبة الصغيرة والنطع والكساء لأشخاص بعينهم وأوصى بالقمح والزيت للفقراء عموماً[٤] .

١٠ - حماس بن مروان [٥] : غالباً ما يكون تأثير العلماء على أهل بيوتهم أشد وضوحاً من تأثيرهم على عامة الناس ، وذلك يتضح من النظر في أحوال بيت حماس ، حيث أنه خرج ليلة من بيته وابنه سالم يتهجد في بيته ، وكذلك ابنه محمد في بيته ، والعجوز في بيتها تقرأ وتصلي وتركع وتبكي ، والخادم يصلي ، فوقف في

---

(١) الونشريسي (٢٥٨/٨) .

(٢) سعيد بن إسحاق الكلبي كنيته أبو عثمان : كان متعبداً يسكن قصر الطوب سمع من سحنون وابنه محمد كان من الخاشعين كثير البكاء كان مولده في سنة اثنتي عشرة ومائتين ، ووفاته بقصر الطوب سنة خمس وتسعين ومائتين . انظر : الخشني (٢٠٧) ؛ والمالكي (١٢/٢) ؛ وعياض (٤١٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٢٤) .

(٣) المالكي (١٣/٢) ؛ وعياض (٤١٠/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٢٤) .

(٤) الونشريسي (٥٣٣/٩) .

(٥) حماس بن مروان بن سماك الهمذاني يكنى أبو القاسم القاضي سمع من سحنون وهو صغير وسمع بمصر من ابن عبدالحكم - كان صالحاً ثقة وكثيراً ما تفقه الناس على يديه - كان مولده سنة اثنتين وعشرين ومائتين ووفاته ثلاث وثلاثمائة ، انظر : الخشني (٢٠٧) ؛ والمالكي (١١٨/٢) ؛ وابن فرحون (٢٩٨/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٤٠) .

القاعة وقال : يا آل حماس ؛ ألا هكذا فكونوا [١] .

١١ - أبو عمرو هاشم بن مسرور[٢] . كان كثير الإحسان للفقراء والأيتام ، حيث كان يطلب أن يؤتى إليه بالأيتام فيشترى لهم الفاكهة فيطعمهم ويدهن رؤوسهم ، ويقبل بين أعينهم ويقول ما عسى أن أصنع بكم ويرفع رأسه إلى السماء ويقول : اللهم هذا الجهد مني ، فكان يدور على كل كتاب من كتاتيب القيروان فيفعل ذلك مع صبيانه [٣] .

١٢ – أبو الغصن : كان أبو الغصن واحد العلماء الذين يطبقون مبدأ الآية الكريمة : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٤] ، ولا نراهم ينهرون من يقع في الأخطاء وإن كان لابد فاعلين فإنهم يحبذون مبدأ النصيحة في السر ، وأبو الغصن [٥] أكبر دليل على ذلك فقد حدث أنه كان بجواره شاب بطال صاحب ملاه وكان أبو الغصن لا يتجهم له ، خوفاً أن يشرد منه فأقيمت الصلاة يوماً في مسجد أبي الغصن ، فقدم الفتى فامتنع فعزم عليه أبو الغصن فصلى ، ثم رجع فكسر ما في بيته من آلات الباطل والخمر وعاد للعمل الصالح [٦] .

---

(١) المالكي (١١٨/٢) ، وابن فرحون (٣٠/١) .

(٢) أبو عمرو هاشم بن مسرور صاحب الفرن ، كان مشهوراً بالخير كثير الصدقة يتصدق في السنة بالمال العظيم ويفك السبايا ويزدهم من ماله ، توفي سنة سبع وثلاثمائة . انظر : المالكي (١٤٤/٢) .

(٣) المالكي (١٤٥/٢) .

(٤) سورة النحل : ١٢٥.

(٥) أبو الغصن اسمه نفيس الغرابلي السوسي ، وهو مولى لامرأة من أهل سوسة ، كان فقيه البدن ثقة سمع من سحنون وابنه وغيرهما ، كان حماس يشهد له بالفقه ، وأراده أن يلي قضاء سوسة فأبى عليه ، كان مولده سنة ثلاث أو أربع عشرة ومائتين ، ووفاته سنة تسع وثلاثمائة . انظر : الخشني (٢٢٠) ؛ والمالكي (١٦٢/٢) ؛ وعياض (١١٤/٥) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٦) .

(٦) عياض (١١٦/٥) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٩) .

١٣ - أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري :

لقد كان في المجتمع حوادث غريبة تعرض على العلماء فيقومون بحلها وتوجيه المجتمع إلى الوجهة الصحيحة ومن ذلك ما عرض على أحمد بن نصر الهواري [١] . فقد أتى زوجان اتهم كل منهما الآخر بأنه غيوط [٢] فأمر أحمد أن يطعم أحدهما تيناً والآخر فقوساً ، فيعرف بذلك صاحب الحدث [٣] . وسئل أبو جعفر أيضاً عن امرأة سقت زوجها فأجزمته؟ فاضطرب علماء القيروان فيها ، فقال لهم المسألة في المدونة : في السن إذا جذبها رجل فاسودت أو اخضرت فقد تم عقلها ووجبت الدية فيها ؛ لأن المراد منها بياضها وجمالها فإذا أسودت أو اخضرت فقد ذهبت ، فكذلك الإنسان إذا انجزم فقد زال حسنه ووجبت فيه الدية [٤] .

١٤- حمدون بن مجاهد الكلبي : ومن العلماء المرابطين الذين كان لهم تأثير في إصلاح حياة الناس حمدون بن مجاهد الكلبي ، الذي قيل عنه أنه إذا انصرف من محرابه يوجد بعده أثر لسجوده قد ابتل من دموعه ، وقيل عنه أنه صلى بالناس التراويح فلما ختم ليلة سبع وعشرين أخذ في الدعاء والبكاء والناس حوله يبكون ، فتاب تلك الليلة من شراب المسكر على يديه نحو سبعين رجلاً ونرى من خلال هذه الحادثة أن الأربطة كما هي أماكن للحراسة والإنذار المبكر فهي أماكن لجهاد الأنفس

---

(١) أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري ، كان عالماً متقدماً بأصول العلم حاذقاً بالمناظرة وكان يحسن الشعر ويقوله في ابتداء أمره ، ثم لما صار إلى درجة العلم ، وصحبة العلماء ترك الشعر وصنعته ، وكان من مقدمي رجال سحنون ، ولد سنة ست أو خمس وثلاثين ومائتين ، وتوفي في ربيع الآخر سنة سبع عشرة وثلاثمائة . انظر : عياض (٩٣/٥) ؛ وابن فرحون (١٣٠/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٦٦) .

(٢) الغيوط صفة لمن يحدث على نفسه وهي مشتقة من الغائط. انظر : ابن منظور (باب الطاء فصل الغين) .

(٣) عياض (٩٤/٥) ؛ وابن فرحون (١٣٤/١) ؛ الطالبي ، تراجم أغلبية (٣٦٧) .

(٤) عياض (٩٥/٥) ؛ وابن فرحون (١٣٥/١) ؛ وتراجم أغلبية (٣٦٧) .

والصبر على المكاره وتوجيه الناس إلى الأخلاق الفاضلة[١] .

وعلى كل حال فإن العلماء المرابطين عموماً كان لهم تأثير واضح في شتى مجالات الحياة، وقد كانوا يستفيدون من المساجد والأربطة في توجيه الناس وإصلاح شؤون حياتهم عموماً.

هناك إشارات تدل على أن الجوامع والمساجد كانت هي الأمكنة التي يتم فيها إبرام عقود الأنكحة، وذلك على يد القاضي أو من يقوم على ذلك العمل وكان ذلك يتم داخل المدن الكبيرة ، أما المواضع البعيدة عن الحاضرة كالقرى والحصون فكان إمام المسجد هو الذي يتولى عقد القران دون إذن من القاضي لبعد المسافة بينهما[٢] .

١٥ - أبو الحسن الكانشي : وقد يوجد بين العامة من يلحقه ابتلاء من ربه فيلحق ذووهم إلى الصالحين ، كالذي حدث لذلك الرجل الذي أُقعدت زوجته فذهب إلى المنستير وقابل شخصاً فسأله عن مكان الكانشي فإنه يريد منه أن يدعو الله فيزيل البلاء عن زوجته فأخبره الرجل بمكان الكانشي ، فلما أتاه وجده يصلي وأطال صلاة الضحى - وقد كان الكانشي يسمى حسن بن محمد بن حسن الخولاني وكان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم متعبداً مجتهداً ورعاً خائفاً رقيق القلب كثير النياحة والبكاء ، كان من العالمين بالله وبأمره سكن المنستير، سمع من عيسى بن مسكين ويحيى بن عمر وقد توفي سنة ٣٤٠هـ عن عمرٍ ناهز التسع والتسعين سنة ودفن بالمنستير - فلما فرغ من صلاته أخبره بما يريد فقال له الكانشي : إن الأمر الذي قد جئت من أجله قد قضي منذ أن قابلت ذلك الرجل فإنه نور في القلوب ينطق الله به من يشاء من عباده[٣] . ويتضح في هذه الرواية المبالغة وإضفاء

---

(١) المالكي (٢/٢٠٣)؛ وعياض (٥/١٤٧).

(٢) كمال أبو مصطفى (١٣).

(٣) عياض (٦/٤٦- ٤٧) ؛ وابن فرحون (١/٢٨٥) .

الكرامة على الكانشي إذ كيف تسنى له معرفة الغيب حيث قام بإخبار الرجل عمن قابله في الطريق .

١٦ - الحسن بن نصر السوسي : إن العلماء حريصين على الإبقاء على مروءة الناس ، فقد يقومون بإسقاط شهادة من يعري أجزاءً من جسمه ، كما كانوا حريصين على عدم انتشار الفسق بين الناس ويقدمون مبدأ سد الذرائع ، وذلك يتضح جلياً من تصرفات أبي علي الحسن السوسي [١] فقد أسقط هذا العالم شهادة رجل كان ينزل من حانوته فينصرف مؤتزراً بمئزر عاري البدن وقال له : أسقطت مروءتك وهمتك ، وكان يأمر بمن يمشي على شاطئ البحر والمواضع الخالية فإن وجدوا رجلاً مع غلام حدث أتو بهما إليه فإن لم تقم بينة على أنه ابنه أو أخوه وإلا عاقبه [٢] .

١٧ - أبو حفص عمر بن عبدالله بن يزيد الصدفي : لقد كان العلماء بإفريقية قد اعتادوا لبس الخشن من الثياب ويرغبون الناس في ذلك ، ليس تحريماً للملابس الزاهية إنما زهداً في الدنيا وطمعاً فيما عند الله في جنته ، فكان أولئك العلماء إذا لزم الأمر لبسوا الجميل من الثياب وتركوا المرابطة ونرى أبا حفص عمر الصدفي الذي كان يسكن قصر ابن الجعد يخرج إلى سوسة أيام الموسم وكانت له بها زوجة فيقيم بها ويلبس ثياباً جميلة ويتزيا بزي حسن لا يشبه زيه ويتصرف في الأسواق كتصرف التجار ينحفي بذلك حاله ويستر أمره وفضله ، ولا يعرفه من يراه بهيئته تلك إذ المعروف غير ذلك من لبسته وهيئته ، فكان الناس يجتمعون بقصر ابن الجعد للسلام

(١) الحسن ابن نصر السوسي كنيته أبو علي وأصله من قصطيلية كانت ولادته في منتصف القرن الثالث الهجري وقد صحب أتباع سحنون فترة من الزمن وامتد به العمر حتى جاوز التسعين عاماً وكانت وفاته في صفر سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة للهجرة . انظر : المالكي (٢/٣٩٢) ، وعياض (٦/٨٨) .

(٢) المالكي (٢/٣٩٢) ، عياض (٦/٨٨) .

عليه ويتكاثرون على باب بيته تبركاً به وبرؤيته ويبحثون عنه رغبة في بركة دعوته فلا يجدون أحداً وهو بينهم بسوسة يتصرف ولا يُفطن له ولا يُعرف فإذا انقضى الموسم عاد إلى بيته في القصر ولبس ما اعتاد لباسه من الخشن [١] .

١٨ - الحريري المنستيري : لقد كان لهذا العالم كما هو شأن غيره من العلماء مقدرة في توجيه الأمة لصرف الأموال فيما يعود عليها بالخير، وذلك يتضح من السؤال الذي ورد على الحريري [٢] المتعبد بقصر المنستير ، وكان فحوى ذلك السؤال أن رجلاً كانت لديه أموال فأراد أن يتصدق بها ولكن لم تكن لديه الطريقة المثلى لكيفية صرفها ، هل يعطيها الفقراء بالتساوي أم يعطيها الأفضل منهم قياساً على ما يكون عليه ذلك الفقير من أسبقية في الدين وأموره؟ أم هل يصرفها على أهل الحصون؟[٣]

فأجاب الحريري : إن تلك الأموال تصرف في منافع المسلمين ولا بأس أن تعطى لثقاة يقومون بتوزيعها على الفقراء وإن وجد فقراء في حصن أو كان ذلك الحصن نفسه يحتاج إلى ترميم فلا بأس من صرف الأموال على الفقراء والحصون معاً [٤] .

---

(١) المالكي (٤٥٥/٢) ؛ وعياض (٥٠/٦) .

(٢) لم أجد له ترجمة في المصادر المتوفرة لدي .

(٣) الونشريسي (٥٤٧/٩) .

(٤) الونشريسي (٥٤٧/٩) .

ثالثاً : الدور العلمي للرباط :

إن مكانة العلم في الدين الإسلامي عظيمة عظم الدين نفسه ، وقد نزلت أول آية على رسولنا الكريم تأمره بإقرأ قال تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[١] ، فالقراءة هي مفتاح العلم ، وإن الإسلام لم يأمرنا بتعلم العلم الشرعي فقط ، بل أعطانا الحرية لنختار من العلوم ما ينفعنا ويتماشى مع طبيعتنا البشرية ، ومهما كان لشعب من الشعوب من رقي فلابد أن يكون ذلك الرقي مبنياً على العلم وأسسه ، وإن كل حضارة قامت في غياب العلم ، إنزوت واندثرت .

وإفريقية كغيرها من الأصقاع الإسلامية نالت اهتماماً كبيراً من قبل الخلفاء ، فإنه بعد توطد الفتح واستتباب الأمن قام الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، على رأس المائة الأولى الهجرية بإرسال عشرة من أجل العلماء ليعلموا أهل إفريقية أمور دينهم واللغة العربية[٢] .

وبعد ذلك انطلق أهل إفريقية إلى مصر والحجاز والعراق والشام طالبين مزيداً من العلم ، وقد استمرت تلك الرحلات قرابة مئة عام ، عادوا بعدها إلى إفريقية بعلم غزير ومن أشهر من رحل إلى المشرق تاركاً إفريقية خلفه أسد بن الفرات [٣] وسحنون - وذكرتهما هنا على سبيل المثال لا الحصر- .

وهناك أمور تتعلق بهذه الرحلات :

---

(١) سورة العلق : ١.

(٢) أبو العرب (٨٤) ؛ والمالكي (١/٩٩) ؛ وابن عذاري (١/٤٨) ؛ وحسن عبدالوهاب ، بساط العقيق (٥٧) .

(٣) رحلات أسد بن الفرات إلى المشرق . انظر : أبو العرب ، ١٦٣ والمالكي (١/٢٥٥)، وابن فرحون (١/٢٦٧) ، وحسن عبدالوهاب ، بساط العقيق (٥٧) .

رحلات سحنون إلى المشرق : انظر : أبو العرب ١٨٥ ، والمالكي (١/٣٤٨) ، وابن فرحون (٢/٣٠) ، وحسن عبدالوهاب بساط العقيق (٥٧) .

الأمر الأول : كثرة تلك الرحلات طوال النصف الثاني من القرن الثاني ، وحتى نهاية القرن الثالث الهجريين .

الأمر الثاني : تناقص الرحلات العلمية وقلتها خلال القرن الرابع الهجري.

وهذا التناقض يرجع لوجود العلماء في إفريقية مما يجعل الرحلات ليست ذات أهمية بالدرجة الأولى ، ويضاف إلى ذلك سيطرة العبيديين على المنطقة مما ضيق الأمر على من يريد طلب العلم سواء في إفريقيا وخارجها بالدرجة الأولى .

الأمر الثالث : إن الرحلات العلمية صارت نادرة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

الأمر الرابع : التعلق العاطفي بالمشرق ، فأهل إفريقية والمغرب والأندلس كانوا يشعرون بأنهم يشكلون الجناح الغربي للدولة الإسلامية(١) .

إضافة إلى ما ذكرت فهناك عوامل أثرت في الحياة العلمية في إفريقية وهي بإيجاز.

أولاً : إن الفتح الإسلامي لإفريقية كان فتحاً عقدياً علمياً بالدرجة الأولى .

ثانياً : جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار.

ثالثاً : ما قام به حسان بن النعمان من تعريب الدواوين وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية .

رابعاً : تأسيس عبيدالله بن الحبحاب جامع الزيتونة - ذلك الجامع الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

خامساً : جهود يزيد بن حاتم الذي استقطب في بلاطه العلماء والشعراء من المشرق فاتته البعثات سواء برغبتهم في جوائزه أو مرسلين من قبل الخليفة العباسي .

---

(١) يوسف بن أحمد حوالة ، الحياة العلمية في إفريقية "المغرب الأدنى" منها إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، مكة المكرمة ، (١/١٢٣-١٢٤) .

وقبل أن أدخل في صلب المبحث ألا وهو الحديث عن الرباط وعلاقته بالعلم أرى أنه من المناسب الحديث عن أهم مؤسسة علمية في العالم الإسلامي عموماً وإفريقية خصوصاً، ألا وهي المسجد ، ذلك المكان الذي لم يكن يقتصر على إقامة الصلاة فيه فقط ، بل امتد دوره ليشمل جميع ما يتعلق بالولاية من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية .

ومن أهمها جامع القيروان الذي أسسه عقبة بن نافع عند تخطيطه للمدينة نفسها وهو أول معهد على الإطلاق بإفريقية حيث أسس في النصف الأول من القرن الأول الهجري [١] .

وقد حدث أن جدد بناء ذلك الجامع عدة مرات ومن أشهر تلك التجديدات ما كان في عهد أبي إبراهيم أحمد بن محمد عام ٢٤٨هـ [٢] فقد كان عامراً بالمعلمين والمتعلمين إلا أنه كان يهجر أحياناً حيث ينصرف طلبة العلم إلى المساجد الأخرى وذلك حينما يكون لجامع القيروان ترميم أو تعديل [٣] .

وهناك ما يسمى بجامع الزيتونة في تونس الذي بناه عبيدالله بن الحبحاب في سنة ١١٤هـ/٧٣٢م ، وأغلب الظن أن البناء تم بعد ذلك بسنتين[٤] ، وقد جدد هذا المسجد وأصلح وأضيف إليه وجمل وزخرف في عصور مختلفة ، وسجل هذا بكل دقة في نصوص تاريخية منقوشة على الحجارة ، والباحث في آثار هذا المسجد يستطيع

---

(١) المالكي (١٢/١) ، وابن عذاري (٢٠/١) ، والنويري (٢٤/٢٤) .

(٢) ابن عذاري (١١٣/١) ، والنويري (١٢٤) .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب ، بساط العقيق ١٧ ؛ وعبدالفتاح (٢١٩/١) ؛ ومؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته (٣٠٥/١) .

(٤) عبيدالله بن الحبحاب قيل إنه من قيس ، ثم من سلول وأنه ليس صريحاً ، بل هو مولى كان بليغاً فصيحاً يقول الشعر، تولى مصر ومن ثم إفريقية ، ثم عاد إلى المشرق بعد ثورة البربر، ويقال إنه قتل بواسط، ويقال بل عاش خامل الذكر أيام العباسيين – انظر: ابن الأبار (٣٣٦/٢) ، الرقيق ، (٧١) ، وابن عذارى (٥١/١) .

تحديد مراحل تطوره بصورة مضبوطة سواء من حيث تخطيطه أو من حيث بنيانه وزخرفته .

ومنها الجامع الذي أسسه الصحابي رويفع [١] المسمى (جامع الأنصار) ، ومنها المسجد المنسوب إلى التابعي (حنش) [٢] ومنها (مسجد الحبلى المنسوب إلى أبي عبدالرحمن الحبلي المعافري التابعي[٣].

وهناك مساجد أخرى أقل شهرة من جامعي القيروان والزيتونة ، منها مسجد عبدالله المنسوب إلى الصحابي الجليل عبدالله بن الزبير رضي الله عنه[٤].

وعلى كل حال فإن الذي حفظ لنا هذه البيانات هي تلك الكتابات التدشينية الموجودة على تلك الأبنية ، فقد استعمل الخط الكوفي في العهد الأغلبي في كتابات تذكارية تحمل اسم منشئها وتواريخ تجديد المسجد ، وتشكل هذه الكتابات بطبيعتها المضخمة في الغالب ، خطاً أفقياً طويلاً يلتف بزوايا قائمة حول الحشوات ذات النمط الزخرفي النباتي والهندسي المختلف ، ولا يعكس النص المخطوط ، المرئي بوضوح أي خيال مبدع ، وتؤكد صلابة السمات على صفته التقشفية بل الصارمة بحيث نشعر

---

(١) رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني مالك بن النجار ، يعد في المصريين ، أمره معاوية على طرابلس بالمغرب سنة ست وأربعين ، فغزا منها إفريقية سنة سبع وأربعين ، روى عنه حنش الصنعاني ، ووفاء بن شريح ، وشيبان العتباني ، انظر : ابن الأثير ، اسد الغابة (٢/٢٣٩) .

(٢) حنش بن عبدالله الصنعاني التابعي ، كان من الأبناء ثم تحول فنزل مصر ، وقد روى عنه المصريون ، انظر : ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ؛ الطبقات الكبرى ، تقديم إحسان عباس ، دار صادر ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. بيروت ، (٥/٥٣٦) .

(٣) أبو عبدالرحمن الحبلي واسمه عبدالله بن يزيد المعافري كان رجلاً صالحاً فاضلاً ، يروي عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبدالله بن عمر ، وروى عن جماعة من العلماء ، بعثه عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى أهل إفريقية ليفقههم في الدين ، توفي بالقيروان سنة مائة من الهجرة ودفن بباب تونس . انظر : المالكي (١/٩٩) .

(٤) حسن عبدالوهاب ، بساط العقيق (١٨) .

أننا أمام عمل فقيه أكثر من أن نكون أمام عمل فنان حاذق همه الوحيد أن يعطي الجدران مظهراً غنياً بالدلالات دون أي اهتمام بالعمل التجميلي[(١)] .

وعلى أية حال إن العلم والتعليم في إفريقية بلغا حداً أصبحت من خلاله إفريقية ومدنها تنافس منارات العلم الأخرى في العالم الإسلامي ، فقد كانت القيروان مركزاً علمياً تقام فيها حلقات الدرس في المساجد يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشباب الذين يلبسون زياً خاصاً بأهل العلم والدراسة ، وفي هذه الحلقات يقوم بالتدريس شيوخ كبار لهم مقام كبير في العالم الإسلامي كله من أمثال أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد وأمثالهما ممن يمثلون مستوى فكرياً ودينياً عالياً [(٢)] .

وبعد هذه التوطئة عن العلم في إفريقية أصبح من اليسير الحديث عن الدور العلمي للرباط حيث تأتي الرباطات في المرتبة الثانية من الأهمية في تسلسل الوسائط أو المؤسسات العلمية والثقافية في إفريقية (المغرب الأدنى) فخلال الفترة موضوع الرسالة ، ففي تلك الأثناء انتشرت علوم ومعارف دينية على وجه الخصوص أسهمت في المحصلة والإنتاج العلمي الذي تميزت به الحياة العلمية آنذاك [(٣)] .

وفيما يلي سأسوق الحديث عن علماء وعباد كان لهم تأثير واضح في الناحية العلمية ، فمنهم البهلول بن راشد الذي سبق الترجمة عنه وما يهمنا الآن هو نشاطه العلمي ، إذ كان للبهلول علم غزير حيث أخذ علمه مباشرة عن مالك بن أنس وعن سفيان الثوري وعبدالرحمن بن أنعم [(٤)] ، ومما يدل على قوته في العلم أن أعظم شيوخ إفريقية وعلماءها في زمانه ألا وهو سحنون بن سعيد قد أخذ جزءاً كبيراً من

---

(١) حيان صيداوي ، الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية ، دار المتنبي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٢م ، (١٧٨) .

(٢) مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته (١ /٣٠٥) .

(٣) يوسف حوالة (١/٢٣٦) .

(٤) أبو العرب ، (١٢٧) ؛ والمالكي (١/٢٠٠) ؛ وابن فرحون (١/٢٧٦) .

علمه عن البهلول [١] ، وكان البهلول يقول عن العلم : "ما أعمال البر كلها عند الجهاد إلا كبصقة في بحر ، وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم إلا كبصقة في بحر ، وقال أيضاً "إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى العلماء ثم ضرب عليهم بسور من نور ، ثم يقول : "إني لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، تعافوا وادخلوا الجنة" ، فسئل عن معنى تعافوا فقال البهلول "قول بعضهم في بعض فلان ليس يعرف شيئاً"[٢] ، ومن أشهر كتب البهلول ، ديوان في الفقه والغالب عليه فقه مالك [٣] .

٢ - عبدالله بن غانم : يعد من أشهر علماء إفريقية في زمانه كان فصيحاً لا يخشى في قول الحق وإظهاره من أمير وغيره سمع من مالك وسفيان الثوري وابن أنعم[٤] ، وكان مالك من حبه له أنه أراد أن يزوجه ابنته إلا أن ابن غانم اشترط ذهابها معه إلى إفريقية ، وكان يجله ، فإذا جاءه أقعده إلى جانبه وأقبل عليه يسأله عن المغرب وأخباره ، فكان إذا رآه طلبة العلم معه قالوا : شغله المغربي عنا ، فلما بلغ مالكاً ولاية ابن غانم القضاء ، قال لأصحابه : أعلمتم أن الفتى الحميري الذي كان يجالسنا قد استقضي على إفريقية؟ [٥] .

وكان فضله وعلمه أكثر من أن يذكر وهو أحد الثقات والأثبات ، وحين مات قيل عنه "إنا لله وإنا إليه راجعون رحمك الله يا أبا عبدالرحمن فقد كنت قائماً بهذا الأمر" أي الفقه والعلم ، وقد قال عنه سحنون : "قرأ علينا ابن غانم كتاباً من الموطأ فقال له رجل : "يا أبا عبدالرحمن ، أيعجبك هذا من قول مالك؟ "فقام ابن غانم ،

---

(١) أبو العرب ، (١٢٨) ؛ والمالكي (٢٠١/١) ؛ وابن فرحون (٢٧٦/١) .

(٢) أبو العرب ، (١٢٩) ؛ والمالكي (٢١١/١) ؛ وسعد زغلول (٥١٥/٢) .

(٣) المالكي (٢٠١/١) .

(٤) أبو العرب (١١٧) ؛ والخشني (٣٠٤) .

(٥) الرقيق (١٩١) ؛ والمالكي (٢١٧/١) .

وألقى الكتاب من يده ، وقال : "أوليس وصمة علي في ديني وعقلي أن أرد على مالك قولة قالها؟ والله لقد أدركت العباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه - سفيان ودون سفيان - فما رأيت بعيني أورع من مالك" وهذا من حسن أدبه(١) .

٣ - أسد بن الفرات : كان من العلماء الأفذاذ في إفريقية ، لم يكتف بما في إفريقية من العلماء وما لديهم من علم بل رحل إلى منابعه الأصلية في الشرق ، فذهب إلى المدينة أولاً فسمع من مالك موطأه ومن هناك ارتحل إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة هناك (٢) ، ثم ارتحل إلى مصر وقابل أشهر علمائها ، وأعطاهم الأسدية - وهي مؤلفه الكبير (٣) -.

وقد كان أسد كارهاً للبدع ، مناظراً لأهلها ، وكان مرة يعرض التفسير فتلا قوله تعالى : ﴿**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ❖ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ فقال عند ذلك أسد : "ويح لأهل البدع هلكت هوالكهم ، يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاماً يقول ذلك الكلام المخلوق : "أنا الله لا إله إلا أنا" (٤) .

ومما يذكر عنه أنه سئل عن الرجل يسأل عن المسألة ، وهو يعرف اختلاف الناس في مثلها هل يفتي بالأقاويل أو يستحسن أحدها فيفتي به؟ فقال : إذا كان المفتي من أهل النظر فلا يفتي بالقولين لأنه يدع السائل في حيرة ، ولكنه يفتي بأحسن الأقاويل عنده ، وإن كان من غير أهل التمييز فليخبر المستفتي بما رُوي عن العلماء ولا يتخير له (٥) .

٤ - سحنون (عبدالسلام بن سعيد) يعد سحنون أشهر علماء إفريقية في تلك

---

(١) المالكي (١/٢١٧) .

(٢) أبو العرب (١٦٣) ؛ والمالكي (١/٢٥٥) ؛ وابن فرحون (١/٢٦٧) .

(٣) الونشريسي (٦/) ؛ والطالبي ، الدولة الأغلبية (٧٩٠) .

(٤) أبو العرب (١٦٥) ؛ والمالكي (١/٢٦٥) .

(٥) المالكي (١/٢٦٧) .

العصور ، كانت لـه رحلة في طلب العلم إلى المشرق [١] .

ويرجع الفضل إليه بعد الله في تنظيم التدريس بجامع القيروان حيث أن الخوارج وأهل البدع كانوا يقومون بالتدريس في الجامع حتى منعهم سحنون عن ذلك [٢] ، ومما يدل على أثر سحنون في العلم أنه تخرج على يده سبعمائة عالم، أخذوا يدرسون الناس في عصره وبعد وفاته [٣] ، ولما وافق بعد تردد على القضاء اشترط أن تطلق يده في كل الناس وعلى رأسهم آل الأغلب حيث يحضرون إلى المحكمة إذا جرت منازعة منهم وشخص من العامة [٤] ، أما أعظم أثر خلفه سحنون فهو كتاب "المدونة" الذي نهج فيه منهج الإمام مالك ، وكانت الأسدية ركيزة من ركائزه في تأليف كتبه إلا أنه قام بتعديل ما يلزم تعديله حسب رأيه .

وكان سحنون يقول عن نفسه "عندي ستة - أو أربعة - وأربعون كتاباً من البيوع منها كتابان أو ثلاثة اصلها أربع مسائل في الموطأ [٥] .

٥ - ومن العلماء ؛ أبو عبدالله محمد بن سحنون سمع من أبيه سحنون ومن غيره وحج ولقي هناك كثيراً من العلماء ، وكان في مذهب مالك من الحفاظ المتقدمين وفي غير ذلك من المذاهب من الناظرين المتصرفين [٦] وكان كثير الوضع للكتب ، غزير التأليف ، يحكى أنه لما تصفح محمد بن عبدالله بن عبدالحكم كتابه وكتاب ابن عبدوس - قال في كتاب ابن عبدوس : هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه

---

(١) أبو العرب (١٨٥) ؛ والمالكي (٣٤٨/١) ؛ وابن فرحون (٣٠/٢) ؛ وحسن عبدالوهاب ، بساط العقيق (٥٧) .

(٢) أبو العرب (١٨٤) ؛ والمالكي (٣٤٦/١) ؛ وعياض (٥٣/٤) .

(٣) أحمد شلبي (١٧٤/٤) ؛ وحسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته (٢٩٩/١) .

(٤) عياض (٥٦/٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٩٩- ١٠٠) .

(٥) عياض (٥١/٤) .

(٦) الخشني (١٧٨) ؛ والمالكي (٤٤٣/١) ؛ وابن فرحون (١٥٥/٢) .

أو كما قال ، وقال في كتاب ابن سحنون : (هذا كتاب رجل سبح في العلم سبحاً)[(١)] - وكان كريماً في نفسه سمحاً بما في يده ، جواداً بماله وجاهه ، وكان يكتب لمن يعنى به إلى الكور فيعطي الأموال الجسيمة ، وهذا عنه مستفيض عند أهل القيروان[(٢)] ، وقد ألف محمد بن سحنون كتابه المسند في الحديث وهو كبير، وكتابه الكبير المشهور "الجامع" جمع فيه فنون العلم والفقه فيه عدة كتب نحو الستين ، وكتاباً آخر في فنون العلم ومنها كتاب السير عشرون كتاباً ، وكتابه في المعلمين ، ورسالته في السنة ، وكتاب في تحريم المسكر، ورسالة فيمن سب النبي ﷺ ورسالة في آداب المتناظرين، وكتاب "الحجة القدرية" وكتاب " الحجة على النصارى" وكتاب "الإمامة" وكتاب "الورع" وكتاب "الإيمان والرد على أهل الشرك" وكتاب "الرد على أهل البدع" وكتاب في الرد على الشافعي وعلى أهل العراق ، وكتاب"الجوابات" خمسة كتب ، وكتاب "التاريخ"ستة أجزاء ، وألف كتاب الكبير مائة جزء عشرون في السير وخمسة وعشرون في الأمثال ، وعشرة في آداب القضاء ، وخمسة في الفرائض ، وأربعة في الإقرار، وأربعة في التاريخ في الطبقات ، والباقي في فنون العلم" وألف في أحكام القرآن[(٣)] .

وكان ابن سحنون حريصاً على العدل في التعليم بين الصبيان حيث أنه كان يروي الحديث الذي قال فيه الرسول ﷺ : "أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم ، حشر يوم القيامة مع الخائنين"[(٤)] كما كان ابن سحنون يكره أن يعبث الصبية بآيات الله أو يمسحونها

---

(١) الخشني (١٧٨) ؛ وابن فرحون (١٥٦/٢) .

(٢) الخشني (١٧٨) .

(٣) المالكي (٤٤٣/١) ؛ وابن فرحون (١٥٧/٢) .

(٤) محمد بن سحنون ، آداب المعلمين ، وهو من ضمن كتاب أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، (٣٥٣) .

بأقدامهم ومعلمهم لا ينكر عليهم ، إذ روى عن أنس بن مالك قال : "إذا محت صبية الكتاب (تنزيل من رب العالمين) من ألواحهم بأرجلهم ، نبذ المعلم إسلامه خلف ظهره ، ثم لم يبال حين يلقى الله على ما يلقاه عليه" [١] .

وبما أن الحديث هنا عن الصبيان وتعليمهم فأرى من المناسب الحديث ولو بشيء من الإيجاز عن الكتاتيب ، فقد كان التعليم في الكتاتيب يبدأ عندما يبلغ الصبي سن التمييز فيما بين الخامسة والسادسة من عمره ، وكان المؤدب يعلم الصبيان في تلك المرحلة الأولى القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن وتجويده حيث جرى العمل بالكتاتيب على اجتماع الصبيان لتلاوة آيات القرآن بصوت واحد ، علاوة على الإلمام ببعض علم اللغة والنحو والفقه [٢] .

٦ - ومن العلماء يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني ، كان له كرسي في جامع القيروان للسماع فيجلس عليه ويسمع عليه الناس[٣]. له تصانيف كثيرة منها : "كتاب الرد على الشافعي" وكتاب " اختصار المستخرجة" المسمى بالمنتخبة ، وكتبه في أصول السنة ككتاب "الميزان" وكتاب "الرؤية" وكتاب "الوسوسة" وكتاب "أحمية الحصون" وكتاب "فضل الوضوء والصلاة" وكتاب "النساء" وكتاب "الرد على الشكوكية" وكتاب "الرد على المرجئة" وكتاب "فضائل المنستير والرباط" وكتاب "اختلاف ابن القاسم وأشهب" [٤] من أشهر ما ألف يحيى بن عمر كتابه النظر في أحكام السوق ، وقد استخدمته غير مرة في التأثير الاقتصادي للرباط .

٧ - ومن علماء إفريقية أيضاً أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي ، صحب ابن

---

(١) محمد بن سحنون (٣٥٣) .

(٢) كمال أبو مصطفى (١٣) .

(٣) المالكي (٤٩٣/١) ؛ وابن فرحون (٣٣٦/٢) .

(٤) ابن فرحون (٣٣٦/٢) .

مسكين القاضي ، وكان يكتب له السجلات [١] وسمع منه أناس كثيرون منهم أبو العرب وغيره ، كان عالماً بالوثائق وضع فيها عشرة أجزاء [٢] أجاد فيها ، وكان ثقة ، وله كتاب في أحكام القرآن عشرة أجزاء أيضاً ، وله كتاب في مواقيت الصلاة [٣] كان فقيهاً نبيلاً ، وكان مذهبه النظر ولا يرى التقليد ، وكان يتكلم في ذلك كلاماً حسناً ، وكان بصيراً باللغة بليغ الشعر من المجيدين لنظمه وعلمه ، ولم يكن في المناظرة باللسان يبلغ مبلغ غيره وكان من ذوي الجاه والمروءة والنعم ، وقد توفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة [٤] .

٨ - ومن هؤلاء العلماء أيضاً حمدون بن مجاهد الكلبي ، من أصحاب عيسى بن مسكين ، سمع من سحنون ، وكانت له رحلة وكان من أهل الفضل والدين والفقه والزهد ، والنسك والورع والعبادة ، يحسن الفقه ويتكلم فيه [٥] سكن الرباط [٦] وكتب بيده دواوين كثيرة قال : "كتبت بيدي ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم أكتبه بعد [٧] . والذي يبدو أن الكتب التي يقصدها المؤلف هي ما نراه في كتب الفقه مثلاً ككتاب الصلاة وكتاب الحج ورسالة في البسملة... الخ..

٩ - ومن هؤلاء العلماء ، أبو الأحوص المتعبد بسوسة أحمد بن عبدالله ، أصله من المغرب ، سكن سوسة وأوطنها [٨] ، وكان ثقة متعبداً كثير العمل والاجتهاد ، كان يصلي من الضحى إلى العصر ، ثم يجلس فيُسمع الناس [٩] .

---

(١) عياض (١١٢/٥) ؛ وابن فرحون (١٤٦/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٥) .

(٢) عياض (١١٢/٥) ؛ وابن فرحون (١٤٦/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٥) .

(٣) عياض (١١٢/٥) ؛ وابن فرحون (١٤٦/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٥) .

(٤) عياض (١١٢/٥) ؛ وابن فرحون (١٤٦/١) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٨٥) .

(٥) عياض (١٤٧/٥) .

(٦) المالكي (٢٠٣/٢) .

(٧) المالكي (٢٠٣/٢) ؛ وعياض (١٤٧/٥) .

(٨) المالكي (٢٠٣/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٠٠) .

(٩) المالكي (٢٠٣/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٠٠) .

أدوار انتشار مذهب مالك بإفريقية :

إن المتتبع لحياة علماء إفريقية يجد أن معظمهم كان على المذهب المالكي ، وهذا بالطبع لم يكن بمحض الصدفة ، إنما كانت له بيئته الخصبة التي جعلته ينمو ويترعرع ، حتى غدت إفريقية من المدارس العلمية التابعة للمذهب المالكي ، والمتتبع لكتب الرجال يرى عدداً كبيراً من الكتب تحتوي على علماء تلك المدرسة ، فهناك عدة أدوار في انتشار مذهب الإمام مالك في إفريقية، ويمكن حصرها في الآتي :

الدور الأول : الدور الاول مرتبط بالعلماء الأوائل الذين أخذوا العلم من الإمام مالك مباشرة ، أو من طلابه ، وكان دخولهم إفريقية أيام يزيد بن حاتم ، ومن أولئك العلماء عبدالله بن فروخ الفارسي [(١)] ، فلقد كان له دور في نشر المذهب يأتي من صحبته الطويلة للإمام مالك بن أنس ، والأهم من هذا فقد أسهم ابن فروخ في الترويج للمذهب في بلاده عن طريق مكاتبته للإمام مالك ، والتي دارت حول عدد من الأسئلة الفقهية للعمل بها في إفريقية ، وهذا أمر أدى إلى تمهيد الأمر في البلاد لدخول المذهب ومن ثم انتشاره .

الدور الثاني : ثم تأتي الطبقة الثانية التي ثبتت المذهب ثم قامت بنشره ، ومن أشهر رجال تلك الطبقة أسد بن الفرات مؤلف الأسدية على مذهب مالك، ولم يقف أسد عند التأليف بل كان مدافعاً عن المذهب ضد أهل الأهواء والبدع وغيرهم ، وعلى كل حال فإن من رجال هذه الطبقة من هو أكثر شهرة في نشر المذهب والدفاع عنه ألا وهو الإمام سحنون بن سعيد التنوخي .

الدور الثالث : وكان رجال تلك الطبقة هم طلاب الإمام سحنون الذين كان

---

(١) عبدالله بن فروخ الفارسي من شيوخ إفريقية ولد سنة ١١٥ للهجرة وكانت له رحلة للمشرق حيث لقي مالكاً وأصحابه وأخذ عنهم العلم ، ورجع إلى القيروان حيث أخذ يعلم الناس ويقف في وجه أهل البدع . أما وفاته فكانت سنة ١٧٦هـ في مصر ودفن بسفح المقطم . انظر : أبو العرب (١٠٧) ، والمالكي (١/١٧٦) .

لهم دور مذكور في مواصلة ترسيخ قواعد المذهب وتثبيته في إفريقية سواءً كان ذلك بوساطة مؤلفاتهم الفقهية ، أو بواسطة مواصلة الوقوف المتشدد بل والاصطدام بعلماء المذهب الحنفي الذين كانوا يستمدون نفوذهم من الأمراء الأغالبة الأحناف على غرار ساداتهم العباسيين ، وهذا الجانب في الحقيقة بدأ منذ عهد سحنون .

الدور الرابع : وهذه الطبقة تتمثل في صغار طلاب سحنون ومن أشهرهم جبلة بن حمود ، فإن هذه الطبعة عايشت فترة سقوط الدولة الأغلبية السنية وقيام الدولة الفاطمية الشيعية وذلك عام ٢٩٦هـ- ٩٠٨م ، ولقد تصدى رجال هذه الطبقة للمد الشيعي وحالوا بينه وبين الانتشار في إفريقية (١) .

عوامل انتشار مذهب مالك :

من أهم العوامل التي ساعدت في انتشار مذهب الإمام مالك في إفريقية ما يأتي :

١ - كثرة من رحل من إفريقية إلى الشرق لطلب العلم والأخذ عن عالم المدينة وإمامها في وقته : مالك بن أنس .

٢ - ما كان لهؤلاء الرواد من المكانة .

٣ - الحركة العلمية لرواد المدرسة المالكية .

٤ - ما قام به الإمام سحنون بن سعيد من جهود ومواقف في نصرة مذهب مالك ونشره بإفريقية عن طريق التعليم والقضاء (٢) وتلك الجهود تتمثل في تفريق حلقات جميع المخالفين ومنع الفتوى بغير مذهب مالك ، وقد اقتدى به القضاة وأهل الفتوى في معظم أنحاء المغرب فصاروا . يمنعون الإفتاء بغير مذهب مالك ويؤديون

---

(١) الونشريسي (٢٦/١٢) ؛ ويوسف حوالة (٢٧٦/١- ٢٧٧) ؛ ومؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته (١٨٠/١) .

(٢) الشرحبيلي ، تطور المذهب المالكي (٤٣) .

على ذلك [١] .

أسباب تمسك الأفارقة بمذهب الإمام مالك :

١ - الاعتبارات العقدية : حيث إن أهل إفريقية علماءً وعامةً رأوا في الإمام مالك سلامة العقيدة ، خلاف ما رأوه من المذاهب الأخرى كالخوارج وغيرها ، فمذهب مالك يجد فيه الباحثون تلازماً بين المسائل الفقهية والعقدية .

٢ - الاعتبارات الموضوعية : حيث إن الأفارقة رأوا في هذا المذهب اعتمادا كاملاً على الحديث وأنه كان منتشراً بالمدينة ، وبعض الناس عليه مما جعلهم يرون أنه أصح المذاهب في ذلك الوقت. إضافة إلى ما سبق فإن الإمام مالك كان علماً في الحديث وروايته، وعلماً في أمور الفقه مما جعله إمام المدينة في عصره دون منازع .

ومن الاعتبارات أيضاً سعة مرويات مالك وإحاطتها بجل السنن والآثار ، ومنها صحة الأصول والقواعد التي بنى عليها الإمام مالك مذهبه ، ومن الاعتبار كذلك كثرة أصول المذهب وتعددها ، ومنها مرونة المذهب المالكي ، ومنها ورع مالك وثباته في الفتوى وتحريه في الاجتهاد ، ومنها ما حظى به كتاب الموطأ من الخصائص والمزايا وحسن القبول [٢] .

معوقات انتشار المذهب المالكي :

رغم الانتشار الواسع الذي حظي به المذهب المالكي في إفريقية إلا أنه كانت هناك بعض المعوقات التي صاحبت هذا الانتشار ، فمنها

أولاً : وجود مناصرين لمذهب الأحناف في إفريقية .

ثانياً : الصراع بين المالكية والأحناف والذي كان على أشده حتى قام والي إفريقية بضرب البهلول حتى مات فعزله هارون الرشيد .

---

(١) كمال أبو مصطفى (٩٤) .

(٢) الشرحبيلي ، تطور المذهب المالكي (٥٣) .

ثالثاً : حينما جاء العبيديون قاموا بامتحان شيوخ مذهب مالك خاصةً والسنة عامةً حيث قام الفاطميون بالترويج لمذهبهم وحمل الناس عليه وملاحقة رموز المذهب المالكي خاصةً، إلى أن قام المعز بن باديس سنة ٤٤١هـ بقطع الدعوة للعبيديين وإعلان الولاء للعباسيين وإعادة الناس على اتباع مذهب مالك ولا يزال المذهب المالكي مسيطراً إلى اليوم في إفريقية (١) .

الدراسات الشرعية في إفريقية :

كان قيام الدولة الأغلبية في إفريقية مؤذناً بتحول سياسي واجتماعي وعلمي وثقافي، انعكست آثاره الإيجابية على المجتمع الإفريقي آنذاك ، إن مجمل ما يمكن قوله هو أن قيام الدولة الأغلبية ومن ثم استقرارها خلال تلك الفترة الزمنية ، إضافة إلى مجهودات أمرائها في العناية بالعلم والعلماء قد أوجد تياراً ثقافياً قوياً ، وأوجد نهضة علمية مزدهرة شملت أكثر حقول الحياة العلمية ، إلا أن الأثر العلمي البارز الذي على غيره في عهدها هو ازدهار الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص الفقه الذي نشط نشاطاً مذهلاً . وإذا مضينا نتتبع الأسباب التي أدت إلى أن يكون نشاط العلوم الفقهية خاصة والدراسات الشرعية عامة في عهد الأغالبة هو الذي كان يطغى على غيره من المعارف ، فإننا نراه يندرج في الآتي :

١ - إتمام تعريب إفريقية وتأكيد إسلام أهلها في عهدهم .

٢ - تزامن دخول المذهب المالكي إلى إفريقية مع قيام الدولة الأغلبية تقريباً ، إلا أن عصرهم شهد التمكين المطلق للمذهب، ولابد أن نعيد إلى الأذهان القول بأن انتشار المذهب الفقهي المالكي إنما هو انتشار وتوسع الفقه الذي اقترن به .

٣ - نجاح الأغالبة في تكريس الوحدة والتجانس بين أفراد المجتمع.

٤ - جهودهم الحثيثة في تشجيع الثقافة والعلم عن طريق الاهتمام بوسائط

(١) الشرحبيلي ، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ، (٣٨) .

الثقافة من مساجد وأربطة وكتاتيب ومكتبات عامة وخاصة ، هذا من جهة ، وجهودهم في تشجيع العلماء من جهة أخرى .

٥ - إن حكم الأغالبة لإفريقية قد اقترن في نفوس المغاربة بالشعور بالاستقلال الذاتي [١] .

وعلى كل حال فإن ما تقدم كان يدور حول الدراسات الشرعية والتي لها مصدران أساسيان هما القرآن والسنة ، أما السنة فإن أصحاب مذهب مالك كان لهم اليد الطولى في تعليم الناس إياها كما تقدم ، أما القرآن الكريم فإن دخوله إلى إفريقية كان بيد الصحابة رضوان الله عليهم مع أول غزو نظامي لإفريقية بقيادة ابن أبي سرح سنة ٢٧هـ/٦٤٧م ، وكان من بينهم من له اختصاص في القرآن وكان كل واحد يملك مصحفاً خاصاً به وقد جاءوا متطوعين في الجيش الإسلامي . ومن أمهات المصاحف لهذه الفترة وما بعدها بالقيروان "المصحف العقباني" أو "مصحف عقبة بن نافع" وهو مصحف كبير محلى بالذهب والياقوت كتبه له أحد أتباعه بالقيروان وممن دخل إفريقية لتفقيه أهلها وتحفيظ القرآن "التابعون العشرة" أو "الفقهاء العشرة"[٢] الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩هـ / ٧١٧م ، وهم الذين أقبلوا على إفريقية فاشاعوا الرشد وبثوا العلم وعلموا الحلال والحرام وحرصوا على الأمن والتآخي والمواساة وبثوا دعوة الإسلام بين البربر [٣] .

أثر الأغالبة الإيجابي على الحياة العلمية :

إن أهم أثر للأغالبة على الحياة العلمية هو تأسيسهم لبيت الحكمة في مدينة رقادة ، ولم يكتف الأغالبة بهذا بل قاموا بتأسيس مدارس منها المدرسة الزقاقية بمقربة من قصر الرباط والتي كانت تحتوي على مسجد وغرف صغيرة معدة لسكنى الطلاب

---

(١) يوسف حوالة (١/٣٢٩- ٣٣٠) .

(٢) المالكي (١/٩٩) .

(٣) محمد الصادق عبداللطيف ، دخول المصحف الشريف لإفريقية (تونس) ٩٥ .

ولها صومعة جميلة تدل على الاهتمام بتلك المدرسة التي كان يدرس بها العلم الشرعي إلى جانب علوم اللغة العربية ، وإن هذه المدرسة تنسب إلى أبي جعفر أحمد الزقاق [١] أحد سكان مدينة سوسة إلا أن الناس في الأزمنة المتأخرة خلطوا في نسبة هذه المدرسة إلى مؤسسها [٢] .

(١) حسن عبدالوهاب ، ورقات (١٦) ؛ ويوسف حوالة (١/١١٠) .

(٢) حسن عبدالوهاب ، ورقات (٧٦) ؛ ويوسف حوالة (١/١١٠).

الأغالبة يستمدون شرعيتهم السياسية من العباسيين :

نجم عن صلات الود بين الأغالبة والعباسيين تألق في الحياة الثقافية وفي الفن الإسلامي في إفريقية فاتجه الأفارقة إلى مدرسة بغداد يتلقون عنها ضروب العلم والمدنية ، وانعكست حضارة العباسيين على البلاط الأغلبي الذي كان في رونقه ورسومه وأُبهته صورة مصغرة لبلاط بغداد .

وإذا كانت حضارة إفريقية الأغلبية قد تأثرت بمؤثرات أخرى تنتمي إلى عالم البحر المتوسط أو تستمد قوامها من الأصول البيزنطية إلا أنه من السهولة بمكان تمييز المؤثرات العباسية فيها بوضوح وجلاء ، ولم تترك مدرسة بغداد أثراً كبيراً في النواحي المتعلقة بالفقه وعلوم الشريعة التي شهدتها مدرسة القيروان ، فلم يستطع الأفارقة استيعاب النشاط الفكري المتألق في عاصمة الخلافة ، ذلك النشاط الذي ازدهر نتيجة الإطلاع على الفكر اليوناني في عاصمة الخلافة . ولعل ذلك يفسر إقبال الأفارقة على مذهب مالك الذي يلتزم بالكتاب والسنة وأعمال الصحابة والتابعين ، ولا يميل إلى الاجتهاد والقياس كما هو الحال بالنسبة لمذهب أبي حنيفة ونظراً لإقبال فقهاء الحنفية في المغرب على أصحاب الأمر والسلطان والتماسهم الرخص والتيسيرات عن طريق التأويل والقياس. كان المالكية بإفريقية أكثر الناس مقاومة للآراء الحنفية ، وكذلك آراء المعتزلة والقدرية والخوارج ، وبالرغم من جهود فقيه كأسد بن الفرات الذي عرف بتبحره في العلوم على اختلافها واستيعابه لآراء أبي حنيفة فإن مذهب مالك كان هو الأقوى بإفريقية والأكثر رواجاً .

كذلك فقد نشطت الرحلات العلمية بين بغداد والقيروان إذ رحل الكثير من علماء المشرق إلى إفريقية ووجد من العراقيين من درس العلم ، كما شهدت بلاد المغرب الرحالة والجغرافيين المشارقة الذين وفدوا للمشاهدة والدراسة والتجارة ، ومن هؤلاء اليعقوبي المتوفي عام ٢٨٤هـ صاحب كتاب البلدان .

وغصت مدارس الكوفة والبصرة وبغداد بالكثير من الطلبة الأفارقة وكذلك

الشعراء والعلماء والفقهاء .

وقد تركت المؤثرات الثقافية العراقية آثاراً واضحة على نظم الدراسة ومناهجها في إفريقية ، فقد جرى نظام الدراسة على ما عرف في العراق من حلقات الطلاب وأساتذتهم ، كما أتبع أيضاً منهج التخصص في الدراسات الإسلامية كدراسة المغازي والسير والشريعة والنحو والفقه والحديث ، ومن أشهر أساتذة مدرسة القيروان في هذا الصدد أسد بن الفرات ، وسحنون ، وأبو محرز ومحمد بن سحنون وغيرهم ممن انتهجوا نهج المعاصرين لهم في المشرق كالبخاري ومسلم[1] .

(١) محمود إسماعيل عبدالرزاق (٧٧- ٨٠) .

الآثار السلبية للرباط :

مما لا شك فيه أن كل عمل بشري معرض للنقص ، وكذلك هو حال الأربطة ، والذي مر علينا من قبل هو صورة مشرقة للرباط وأهله ، إلا أن المتتبع لتلك الأربطة وما يدور فيها من خلال ساكنيها يلاحظ جوانب سلبية ترافق تلك الجوانب الإيجابية . صحيح أنها ليست ذات تأثير مخل مقارنة بالدور الإيجابي للأربطة ، ولكن أرى من الأمانة التاريخية ذكر تلك الآثار السلبية والتي جمعتها من خلال المصادر . وقد كانت تلك الآثار السلبية مرتبطة بالعلماء ، وفي أكثر الأحيان كانت إما مبالغات أو خرافات القصد منها تمجيد أولئك الصالحين ورفع مكانتهم ، والذي يدور حول المغالاة في الصالحين ، ما جاء في شأن جبلة بن حمود ، حيث يروى أنه أتاه رجل بصحبة ابنه ، وتناولا طعام الفطور معه ، فقال جبلة للطفل اشته ما شئت ، فطلب الطفل تيناً أخضراً - ولم يكن ذلك الوقت موسماً لثمار التين - فمد جبلة يده إلى قلة فأخرج خمس تينات خضر ومدها للطفل [(١)] . والسؤال هنا كيف لجبلة أن يحقق شهوة هذا الطفل؟ فإن كونه رجل صالح لا خلاف عليه ، ولكن هذا الأمر يختص به الله تعالى في جنته .

ومما يروى عن جبلة أيضاً أن الخضر عليه السلام كان يزوره [(٢)] كما كان يزور حماس بن مروان [(٣)] .

وهذا كلام أستطيع أقول إنه من نسج الخيال ؛ لأن الخضر عليه السلام أحق بأن يزار فإن جبلة وحماس وغيرهما مهما بلغوا من الزهد والصلاح لا يصلون إلى

---

(١) المالكي (٢/٣٤) ؛ وعياض (٤/٣٧٤) ؛ وابن فرحون (١/٢٨٣) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٢٨٢) .

(٢) المالكي (٢/٤١) ؛ وعياض (٤/٣٧٤) ؛ وابن فرحون (١/٢٨٣) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٢٨٣) .

(٣) وابن فرحون (١/٣٠٠) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٣٤٣) .

مرتبة الأنبياء ، هذا أولاً ، وثانياً أن الخضر عليه السلام وبالرجوع إلى الأحاديث كان قد توفاه الله تعالى .

ومن المغالاة أيضاً ما يروى عن عنبسة أبو خارجة الغافقي [١] أنه بنى مسجداً عظيماً فيه نحو عشرين سارية عظاماً فقالوا له : من يرفع هذه السواري؟ فقال : الذي خلقها ، فأصبحت السواري مرفوعة ورؤوسها عليها [٢] .

ومن الآثار السلبية للرباط والمرابطين أيضاً امتلاء الكتب بالخرافات الواضحة ومن ذلك ما يروى عن أبي السرى واصل من أنه كان يسير في الغابات والبراري فإذا ضل طريقه أتت السباع تمشي بين يديه لتدله على الطريق الصحيح [٣] ، وتتوالى الخرافات تحاك حول واصل فمما قيل عنه تلك العصا التي كان يمشي بها يوماً من الأيام فنزل عليه المطر ، فأخذ يشير للمطر بتلك العصا ، فكلما مد العصا إلى جهة توقف المطر عنها [٤] .

وكذلك من الخرافات ما يروى عن عيسى بن مسكين ، أن رجلاً رافقه في الحج فخرج ليلة من الرفقة ، لقضاء حاجة الإنسان ، ثم عاد إلى الرفقة ، فإذا عليها سور منعه من الوصول إليها حتى أصبح ، فذكر ذلك لعيسى فقال : ما أبيت ليلة حتى أدور على الرفقة وأقول : "اللهم أحرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بكنفك الذي لا يرام اللهم إني أستودعك ديني ونفسي وأهلي وولدي ومالي إنه لا تخيب ودائعك يا أرحم الراحمين" [٥] .

---

(١) هو عنبسة بن مازجة الغافقي سمع من مالك والثوري وابن عيينة ، كان شيخاً عالماً توفي سنة ٢٢٠هـ .
انظر : أبو العرب ، (١٥٠) ؛ والمالكي (٢٤١/١) ؛ وابن فرحون (٤٢/٢) .

(٢) ابن فرحون (٤٢/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٨٠) .

(٣) المالكي (٢٠/٢) .

(٤) المالكي (١٨/٢) .

(٥) ابن فرحون (٦٣/٢) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (٢٤٤) .

ومن الخرافات أيضاً ما يرويه سعيد الكلبي عن الشاب الذي أقام فترة بقصر الطوب ثم غادر القصر فلحقه سعيد وجعل يعتذر إليه ويقول له : يا هذا إننا شغلنا عنك ونسيناك ولكن خذ هذه الصرة ، وأخرج صرة فيها دراهم من جيبه ، فقال له الشاب أنا مستغن عنها ، فألح عليه في أن يأخذها فقال له مالي إليها حاجة ، فقال له سعيد ، ما نرى معك شيئاً يغنيك عنها ، فمد الشاب يده إلى الرمل فأخذ منه قبضته فإذا هو ذهب يلوح في يده ، فبهت سعيد بن إسحاق ثم ألقاه الشاب ومضى ، فكان سعيد يقول إني لمحروم إذ لم أقل له ادع لي دعوة[1] .

ومن الخرافات ما يروى عن عبدالرحيم بن عبدربه أنه بقي ستة أشهر لا يشرب ماء فبلغ ذلك سحنون فأنكر عليه وركب إليه مع جماعة من الشيوخ فبات عنده ، وسأله عما بلغه فقال عبدالرحيم : ومن لا يأكل ولا يشرب ؟ فلما انصرف عنه سحنون رجعه وقال له : سألتني عن شيء فكتمته ثم حاسبت نفسي ، والذي قيل لك صحيح ، ولي ستة أشهر لم أشرب ماء وذلك أني كنت أصلي فأصابني عطش شديد فقلت أفرغ من حزبي وأشرب ، فلما فرغت حددت يدي للقسط فانقلب وذهب ما فيه من ماء ، وكانت ليلة كثيرة الريح والبرد والماجل أسفل القصر فكبر عليَّ النزول ، وقلت يا رب : إن هذا شغلني عن حزبي فأحمل عني المؤونة فأجابني من زاوية البيت ، ولا أحد فيه يقول : أنا من مؤني الجن أصلي بصلاتك مدة فمر هذه الليلة شيطان مارد ، وهم علينا أمر مما هم عليكم فحسدك ورمى لك في القسط شيئاً ، فلو شربته لعرض في جسمك ما لا طاقة لك به ، فلما مددت يدك إلى القسط سبقتك إليه فأهرقته قال عبدالرحيم فأخلصت لله الدعاء فحمل عني المؤونة ، وإن احتجت الماء بعد شربته ، فنزل سحنون إلى الناس وقال عبد سأل مولاه حاجة

---

(١) المالكي (١٤/٢) .

فقضاها لـه [١] .

ومن الآثار السلبية للرباط قطيعة الرحم بين الأهل فإنه يروى عن أبي السرى واصل أنه اشتغل بالعبادة فلم يكن بينه وبين أخته تواصل ، فلما حضرته الوفاة أمر بها أن تحضر لتبكي وتنوح عليه [٢] .

ومن الآثار السلبية للرباط ، ما كانت عليه تلك الأربطة من الاتساخ أحياناً ، والدليل على ذلك أن المرابطين طلبوا من أبي السرى واصل أن يدعو لهم بزوال البق والحشرات المشابهة للبق عنهم [٣] والمعلوم أن البق والحشرات لا تتواجد إلا مع إهمال النظافة ، فالواضح أن سكان الأربطة كانوا يهتمون بالعبادة والمرابطة متناسين أمرا لنظافة وأهميتها ، مع أنه لا مانع من أن يكون الشخص زاهداً ومجاهداً ونظيفاً في آن واحد، فقد كان الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم عُباداً زهاداً، وفي نفس الوقت ملتزمون بنظافة أبدانهم .

ومن الآثار السلبية للرباط أيضاً ما انتشر بين المرابطين من البطالة والفسق والتسول وقد كان ذلك جلياً في رباطات بلرم ، حيث كانت تلك الأربطة مليئة بالبطالين والفساق والمتمردين شيوخاً وأحداثاً ، قد عملوا السجادات في وجوههم منتصبين لأخذ الصدقات ، وقذف المحصنات وإنما آووا إلى هناك لعجزهم ومهانة أنفسهم وكان ذلك منتشراً في معظم حصون صقلية ، وبالأخص في منتصف القرن الرابع الهجري [٤] .

ومن الآثار السلبية للرباط خروج دجالين إلى سطح المجتمع يدعون معرفة ما في بطون النساء ، ومتى يموت فلان ، ووقت نزول المطر، مما يجعل بعض العامة المساكين

---

(١) المالكي (٤٢٦/١) ؛ وعياض(١٩٣/٤- ١٩٤) ؛ والطالبي ، تراجم أغلبية (١٥٩) .

(٢) المالكي (٤٤١/١) .

(٣) المالكي (٤٣٨/٢) .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (المجلد العاشر) ٢١ .

يتعلق بأولئك الدجالين الكذبة [١] ، وتمضي الحال بالدجالين المبتدعين فيدعون أنهم من أولياء الله الصالحين ، ومن أصحاب الكرامات وأنهم يرون جبريل ويسمعون منه كما يرون ميكائيل ويقول أحدهم للعامة من يشتري مني شياخته بشيخه... ويتحدث في حمل الحوامل ... ويقول لمن يراه مريضاً خذ هذه العشبة تداوى بها ، فإنها كما أعطانيها رسول الله ، إلى غير ذلك من البدع [٢] .

ومن الآثار السلبية ظهور ما يسمى بظاهرة المرابطية فقد انتشرت في المغرب عموماً هذه الظاهرة ، وهي ظهور أناس يتميزون بالتقوى والاستقامة والزهد مع الثقافة الدينية ، كانوا بعيدين كل البعد غالباً عن المنافع الدنيوية ومنصرفين في التعاليم الأخلاقية ، وفي الوعظ والإرشاد إلى فعل الخيرات وسواء السبيل. وكان هؤلاء القوم يسمون عادة "المرابطين" وكثيراً ما يعتبرهم الغربيون – خطأ – قد يسيء الإسلام ، وجدير بالذكر في هذا المقام أن الإسلام لا يعرف ولا يعترف بتاتاً بالقديس بالمعنى المسيحي لهذه اللفظة ، رغم أنه يحترم ويبجل كل من يتمسك بالفضائل. وفي إفريقية ظل تبجيل هؤلاء "المرابطية" واحترامهم من أمد طويل . ولا يغيب عن الأذهان أن ظاهرة "المرابطية قد امتدت فيما بعد لتشمل المغرب كله وعند وفاة الولي يقوم تلاميذه بدفنه في قبر يكون في غالب الأحيان معزولاً ومحاطاً عادة بسياج بسيط ذا بروز قليل فوق وجه الأرض [٣] ، يتحول مع الوقت إلى مزاراً يزوره السذج من الناس ويطلبون منه مطالبهم الدنيوية ناسين أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ناهيك عن أن ينفع غيره .

---

(١) الونشريسي (١١/١٦٦) .

(٢) كمال أبو مصطفى (٩٧) .

(٣) المعمار الإسلامي في ليبيا (٦٦- ٦٧) ، تعريب على اصادق حسنين .

الخاتمة

بعد البحث الطويل في مباحث هذه الرسالة توصلت إلى نتائج أرى أنها قد تكون خلاصة لهذه الرسالة وهي على النحو التالي :

١- إن إفريقية منذ الربع الثاني للقرن الثاني الهجري دخلت في اضطرابات جعلتها تتأرجح فترة من الزمن بين الفهريين والخوارج والعباسيين مدة تزيد عن ثلاثين عاماً.

٢- إن المهالبة كان لهم دوراً أساسي في توطيد الأمن واستتبابه في إفريقية ، فذلك يعود لما كانوا عليه من حنكة سياسية وقدرة عسكرية.

٣- إن الأربطة في المشرق سبقت نظيراتها في المغرب.

٤- إن أهم سبب جعل المسلمين ينشئون الأربطة هو ما جاء من آيات وأحاديث تحثهم على ذلك ، وإن الأربطة في الأساس أنشئت لحقن الدماء .

٥- إن أول رباط أنشئ في إفريقية كان رباط المنستير ، وكان ذلك على يد هرثمة بن أعين .

٦- إن الأربطة الإسلامية والأديرة النصرانية يوجد بينهما نوع من التشابه من حيث إقامة أناس باستمرار في المؤسستين ووجود رئيس لكل منهما غير أن الاختلاف هو أن أهل الدير لم يكن القتال بالنسبة لهم شيئاً رئيساً .

٧- إن الأربطة لم تقتصر على ما بني من قصور أو ما تم ترميمه من قبل الأمراء والصالحين ، بل إن هناك عدداً من المدن يعد من الأربطة كالقيروان مثلاً .

٨- إن الأربطة لم تكن تنشأ من قبل الأمراء فقط ، بل إن الصالحين والزهاد كانوا ينافسون الأمراء في بنائها ، وربما خسروا في سبيل إنشائها كل ما يملكون دون أن يطلبوا الاستعانة من أحد .

٩- التأثير الواضح من أهل الرباط على الأمراء وتخفيفهم الضغط على العامة في أي وقت أراد الأمراء فيه إحداث جور أو خلاف ذلك .

١٠- بلغ اهتمام الأمراء والصالحين بالأربطة حيث إنها غطت كل الساحل الإفريقي فكانت ممتدة من سبتة إلى الاسكندرية ، فكانت الإشارات تصل من أول رباط إلى آخر رباط في خلال مدة قصيرة ، ولذلك أصبحت هذه الأربطة أماكن للإنذار المبكر لأي خطر قادم .

١١- إن الأربطة كان لها أكبر دور في الفتوحات الأغلبية سواء في صقلية أو في إيطاليا أو في الغزوات البيزنطية.

١٢- إن الأربطة إضافة إلى ما كانت تمثله من صد للأعداء في الخارج فقد كان لها دور أساسي في الوقوف في وجه الثوار المناوئين في الداخل .

١٣- إن الأمراء كانوا كثيري التودد لأهل الأربطة وذلك لما يعلمونه من تأثيرهم على العامة الذين يشكلون عماد الدولة .

١٤- إن للرباط وساكنيه تأثيراً عسكرياً واضحاً من خلال ما انبثق عن الرباط من أشكال الأربطة والحصون والاستحكامات العسكرية وكيفية تسويرها ، إضافة إلى السيادة البحرية التي فرضت من قبل الأغالبة على بحر الروم (البحر المتوسط) وجزره .

١٥- إن الرباط كان له نتاج فكري إضافة إلى ما أنتجه من نتاج سياسي

وعسكري .

١٦- إن لأهل الرباط تأثيراً اقتصادياً واضحاً ، فنرى الناس يلجأون إليهم إذا ألمت بهم كارثة اقتصادية ، ويضاف إلى ذلك إن الفتوحات التي لعب فيها أهل الرباط دوراً عظيماً جعلت إفريقية تعيش في رغد من العيش بشكل واضح ، فتلك الفتوحات جلبت الأموال الطائلة إلى الدولة الأغلبية التي سخرتها بدورها للمنفعة العامة .

١٧- لقد حظيت الحياة الاجتماعية في إفريقيا بتأثير واضح من أهل الرباط فانعكس ذلك التأثير على حياة الناس العامة وتصرفاتهم .

١٨- إن العباد في الأربطة كانوا يتبعون مذهب الإمام مالك مما جعل أهل إفريقية بشكل عام يأخذون هذا المذهب منهجاً لهم .

١٩- لقد اهتم أهل الرباط بالعلم ونشره في إفريقيا بين الأمراء والعامة فنتج عنه من قبل العامة علماء امتلأت بهم كتب التراجم ، أما عن الأمراء فإن بيت الحكمة في رقادة كان أكبر نتاج يذكر للأغالبة من الناحية العلمية.

٢٠- صحيح أن للرباط وأهله تأثيرات إيجابية لا يمكن حصرها في هذه الرسالة ولكن ذلك لا يجعلنا نغض الطرف عما كان للرباط من تأثيرات سلبية تم إيرادها في آخر الفصل الثالث من هذه الرسالة .

المصادر والمراجع

١- ابن الآبار : القضاعي البرنسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر (ت٦٥٨هـ) ، الحلة السيراء (جزءان) ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٥م .

٢- ابن الأثير : الشيباني الجزري أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبدالكريم (ت٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ (عشرة أجزاء) ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٣- ابن الأثير : الشيباني الجزري أبو الحسن عز الدين علي بن محمد عبدالكريم (ت٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (ستة أجزاء) ، تحقيق : علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبدالموجود ، تقديم : محمد عبدالمنعم البري ، وعبدالفتاح أبو سنا ، وجمعة طاهر النجار ، دار الكتب العلمية (د ط) بيروت .

٤- أحمد الشرباصي ، الرباط في الإسلام ، مجلة الأزهر الجزء الرابع ، القاهرة ، ربيع الآخر ١٣٧٣هـ/ديسمبر ١٩٥٣م .

٥- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السادسة ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٦- أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، دار المعارف بمصر، د.ط القاهرة ١٩٦٨م .

٧- الإدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسيني (ت ٥٦٠)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (جزءآن) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٨- البخاري : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ) ، صحيح البخاري

، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٩- بطرس البستاني ، محيط المحيط ، تحقيق : مكتبة لبنان ، مكتبة لبنان د.ط ١٩٩٨م . (باب الراء فصل الطاء) .

١٠- البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالخالق (ت٧٣٩هـ) ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (ثلاثة أجزاء) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٢٢هـ - ١٩٩٢م .

١١- البكري : أبو عبدالله عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ) ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، د ط ، بغداد .

١٢- البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩)، فتوح البلدان ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف (د ط) ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م بيروت .

١٣- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩) ، سنن الترمذي ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م . كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله الحديث رقم : ١٦٤٣.

١٤- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (ستة عشر جزء) ، تقديم : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١٥- الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية ، مكتبة لبنان ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٧م .

١٦- ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ) ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (عشرين جزء) ، تحقيق : محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، الطبعة

الثانية ، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٧- الجوهري ، شمال إفريقية ، دراسة في الجغرافيا التاريخية (د ط).

١٨- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت٨٣٢هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة (ثمانية أجزاء) ، مكتبة ابن تيمية (د ط) القاهرة .

١٩- حسن أحمد محمود ومنى حسن محمود ، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة ، الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٠- الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ، الدار البيضاء ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٢١- حسن حسني عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٦م ، تونس .

٢٢- حسن حسني عبدالوهاب ، بساط العقيق ، تقديم : محمد العروس المطوي ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٧٠م .

٢٣- حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، الدار السعودية للنشر ، الطبعة الأولى ، جدة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٢٤- حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، لجنة الجامعيين ، نشر العلم ، د.ط ، الرياض .

٢٥- الحميري : محمد بن عبدالمنعم (ت٨٣٠) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م ، بيروت.

٢٦- حيان صيداوي ، الإسلام وفئوية العمارة العربية ، دار المتنبي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٢م .

٢٧- الخشني القيرواني : أبو عبدالله محمد بن حارث بن أسد (ت٣٦١) ، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، تحقيق : السيد عزت العطا الحسيني ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

٢٨- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ) ، تاريخ ابن خلدون (ثمانية أجزاء) ، اعتناء وتعليق : تركي فرحان المصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٢٩- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (أربعة أجزاء)، تقديم : محمد عبدالرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٣٠- خير الدين الزركلي ، الإعلام قاموس تراجم (ثمانية أجزاء) ، دار العلم للملايين ، الطبعة الحادية عشر ، بيروت ١٩٩٥م .

٣١- دار المعارف الإسلامية (مادة ربط) .

٣٢- أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ)، سنن أبي داود ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م . كتاب الجهاد ، باب في فضل الرباط الحديث رقم : ٢٥٠٠ .

٣٣- الدباغ : أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي (ت٦٩٦هـ) ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (ثلاثة أجزاء) ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ومحمد باضور ، مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة الفينيقية بتونس ، د.ط مصر وتونس .

٣٤- الدرجيني : أبو العباس أحمد بن سعيد (ت٦٧٠هـ) ، طبقات المشائخ بالمغرب (ثلاثة أجزاء) ، تحقيق : إبراهيم طلاي ، الطبعة الأولى ، الجزائر ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

٣٥- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء (ثماني وعشرون جزء) ، تحقيق : كامل الخراط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٣٦- الرقيق : أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق : عبدالله العلي الزيدان ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٠م .

٣٧- سحنون بن سعيد (ت٢٤٠هـ) ، المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس (خمسة أجزاء) ، دار الكتب العلمية ، د.ط ، بيروت .

٣٨- سعد زغلول عبدالحميد ، تاريخ المغرب العربي ، منشأة المعارف (د ط) .

٣٩- ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت٢٣٠هـ) ، الطبقات الكبرى (تسعة أجزاء) ، تقديم : إحسان عباس ، دار صادر ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٤٠- السيد عبدالعزيز سالم وأحمد مختار عبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، مؤسسة شباب الجامعة د. ط ١٩٩٣م .

٤١- السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير (ثلاثة أجزاء)، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م .

٤٢- شارل جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثالثة ، تونس ، ١٩٧٨م .

٤٣- الشرحبيلي ، تطور المذهب المالكي .

٤٤- شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت .

٤٥- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك الوافي بالوفيات ، اعتناء: س

ديدرينع ، دار فرانزستاينر ، الطبعة الثانية ، فيسبادن ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

٤٦- طاهر مظفر العميد ، آثار المغرب والأندلس ، دار الكتب والنشر ، جامعة الموصل ، المكتبة الوطنية بغداد ١٩٨٩م .

٤٧- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك (سبعة أجزاء) ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٤٨- ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله (ت٢٦٨هـ) ، فتوح إفريقية والأندلس ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، مكتبة دار الكتاب اللبناني (د ط) بيروت .

٤٩- عبدالحليم عويس ، صور وبطولات من حضارتنا الإسلامية ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٥٠- عبدالعزيز بن إبراهيم العمري ، الفتوح الإسلامية عبر العصور ، دار إشبيلية للنشر ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٥١- عبدالفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغرب العربي (ستة أجزاء) ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٥٢- عبدالهادي التازي ، جامع القروين ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٢م .

٥٣- ابن عذاري المراكشي (ت٦٩٥) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (أربعة أجزاء) ، تحقيق ومراجعة د.س.كولان و.أ.ليفي بروفنسال ، الطبعة الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٨م .

٥٤- أبو العرب : محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت٣٣٠هـ)، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباني ، الدار

التونسية ، الطبعة الثانية ، تونس ١٩٨٥م .

٥٥- عز الدين عمر موسى ، النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي للمغرب في القرن السادس الهجري ، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٥٦- علي الصادق حسنين ، المعمار الإسلامي في ليبيا ، دار الجيل، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٥٧- ابن عمر يحيى (ت٢٨٩هـ/٩٠١م) ، كتاب النظر والأحكام في جميع أحوال السوق ، رواية أبي جعفر أحمد القصري ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٥م .

٥٨- عياض : القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت٥٤٤هـ) ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (ثمانية أجزاء) ، تحقيق : عبدالقادر الصحراوي وسعيد أحمد عراب ، د.ن ، الطبعة الثانية ، الرابط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٥٩- فالتزهنتس ، الكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسيلي ، دليل الاستشراق ، الطبعة الأولى ، جوتنجن ١٩٥٥م .

٦٠- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ)، تقويم البلدان ، تصحيح ريفود وماك كوكين ديسلان ، دار صادر ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٨٢٠م .

٦١- ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد (ت٧٩٩هـ) ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (جزأن) ، تحقيق : علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، بورسعيد ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٦٢- الفيومي : المصري أحمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير ، مكتبة لبنان ، د.ط ٢٠٠١م . (باب الحاء فصل النون) .

٦٣- قاجة ، موسوعة فن العمارة الإسلامية د.ط.

٦٤- قاموس أنكارتا في الشبكة العنكبوتية العالمية MSN، Ensarta Dictianary.

٦٥- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٥٠) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، (خمسة أجزاء) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٦٦- ابن كثير : القرشي الدمشقي عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ) ، البداية والنهاية (أربعة عشر جزء)، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٦٧- كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الاسكندرية للكتاب د.ط ١٩٩٦م .

٦٨- المؤلف المجهول المراكشي ، من مؤلفي القرن السادس الهجري كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق سعد زغلول عبدالحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ١٩٨٥م .

٦٩- المالكي : أبو بكر عبدالله محمد ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وشيئ من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم (جزأن) ، تحقيق : بشي البكوش ، مراجعة محمد العروس المطوي ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠١هـ - ١٩٩١م .

٧٠- محمد بن سحنون ، آداب المعلمين ، وهو ضمن كتاب أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام د.ط، دار المعارف ، القاهرة .

٧١- محمد الباجي بن مامي ، جامع الزيتونة أهمم عالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية د.ط .

٧٢- محمد الصادق عبداللطيف ، دخول المصحف الشريف لإفريقية د.ط تونس .

٧٣- محمد الطالبي : الدولة الأغلبية التاريخ السياسي ، ترجمة المنجي الصيادي ، تدقيق حمادي الساحلي ، دارالغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٢م .

٧٤- محمد الطالبي ، تراجم أغلبية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، د.ط تونس ١٩٦٠م .

٧٥- محمد بن محمود مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر ، د.ط بيروت .

٧٦- محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة في تاريخ المسلمين ، مطبعة الإسكندرية ، ١٩٦٨م ، مطبوعات العيد الماسي لجمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية .

٧٧- محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة د.ط .

٧٨- محمد العروسي المطوي ، فضائل إفريقية في الآثار والحديث الموضوعة ، دار الغرب الإسلامي ، د.ط بيروت ١٩٧٤م .

٧٩- محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير (ثلاثة أجزاء) ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، الجزائر ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

٨٠- محمد محمد زيتون ، المسلمون في المغرب والأندلس ، دار الوفاء د.ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٨١- محمد مرسي الشيخ ، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، د.ط .

٨٢- محمود إسماعيل عبدالرازق ، الأغالبة وسياستهم الخارجية ، مكتبة سعيد رأفت ، د.ط ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

٨٣- محمود شيث خطاب ، قادة فتح المغرب العربي دار الفكر ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، بيروت .

٨٤- المراكشي : عبدالواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق :

محمد زينهم محمد عزم ، دار الفرجاني ، القاهرة د.ط ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٨٥- مسلم النيسابوري : أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) ، صحيح مسلم ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى بيروت ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م . كتاب الإمارة ، باب فضل الرباط الحديث رقم : ١٩١٣.

٨٦- المقدسي : الشامي شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار صادر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٩م .

٨٧- المقري التلمساني : أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (أحد عشر جزءاً) ، تحقيق : مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٨٨- المقريزي العبيدي : تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت٨٤٥) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (أربعة أجزاء) ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٨٩- ابن منظور الإفريقي : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١) ، لسان العرب (ستة عشر جزء) ، دار صادر ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م . (باب الطاء فصل الراء) .

٩٠- ميكائيل آماري ، المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع ، ليبستك د.ط ١٨٥٧م .

٩١- نجوى عثمان ، مساجد القيروان ، دار قابس ، الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠٠٠م .

٩٢- النسائي : أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن دينار (ت٣٠٣) ، سنن النسائي ، دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ، بيروت

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م . كتاب الجهاد ، الحديث رقم : ٣١١٩.

٩٣- نقولا زيادة ، إفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي ، رياض الريس للكتاب والنشر ، الطبعة الأولى ، لندن ١٩٩١م .

٩٤- نقولا زيادة ، صفحات مغربية ، منشورات دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦م .

٩٥- نهلة شهاب أحمد ، المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع ، دراسة تحليلية ، دار المتنبي د.ط ، الأردن أربد ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٩٦- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب (اثنان وثلاثون جزء) ، تحقيق : حسين نصار ، مراجعة عبدالعزيز الأهواني ، د.ط بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٩٧- ابن وردان ، تاريخ مملكة الأغالبة ، تحقيق : محمد عزت د.ط.

٩٨- الوزان : الحسن بن محمد الوزان الزياتي (ت٩٤٤هـ) ، وصف إفريقيا ، ترجمة عبدالرحمن حميدة د.ط .

٩٩- الونشريسي : أحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ) ، المعيار المعرب (ثلاثة عشر جزء) ، إخراج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، د.ط بيروت .

١٠٠- ياقوت : ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي ، (ت٦٢٦هـ) ، معجم البلدان (سبعة أجزاء) ، دار صادر ، بيروت .

١٠١- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٥٦هـ) ، البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٨٣م .

١٠٢- يوسف أحمد حوالة الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) ، من اتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامي الهجري (ثلاثة أجزاء) ، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ١٤١٩هـ .

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

الفصل الثالث